حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به ـ العدد الثالث ـ شهر رمضان ـ ١٤٣٤هـ / تموز ـ ٢٠١٣م

٣

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

مسجد الكوفة المعظم سنة ١٩٣٥م يظهر فيها محراب أمير المؤمنين وبقية المحاريب المقدسة للأنبياء والصالحين

من أعلام الكوفة

الأستاذ الدكتور صباح نوري المرزوك

جامعة بابل / الحلة

المقدمة

لعل هناك كثيراً من الأسباب التي دفعت الإدارة الإسلامية إلى إن تقوم بتمصير مدينة الكوفة إذ سرعان ما أصبحت عاصمة العلم والأدب واللغة والنحو والرواية والتاريخ فتأسست فيها المدارس العلمية وازدحمت مساجدها بالدارسين والوافدين من شتى الأمصار الإسلامية.

ومن هنا فقد قصدها الكثير واستقر بها وتلقب (بالكوفي) نسبة إليها أو منهم من ولد فيها ونشأ طالباً للعلم ثم تخصص في علم أو فن وصارت له مجموعة من المؤلفات وعدد كبير من التلاميذ.

وبرز لذلك أدباء وشعراء ونقاد ورواة ونحاة ولغويون مشتغلون بالحديث والفلسفة والتاريخ والكيمياء وقاموا بخدمة التراث العربي الإسلامي وأبدعوا في ذلك أيماً إبداع وهذا ما نراه في بطون الكتب الخاصة بالتاريخ والأدب واللغة والمعارف العامة وعلوم الدين الإسلامي وظل يتكرر اسم (الكوفة) إشارة إلى مكانة هذه المدينة في عالم المعرفة.

وفكرت في أن أميط اللثام على عدد من الشخصيات الكوفية ممن كانت لها دور فاعل في الحياة الفكرية والعقلية والعلمية والثقافية على مر التاريخ وفي شتى أدواره وهي تقدم صورة لما كانت عليه الكوفة من توقد علمي من جهة واعتزازاً بما قدمته هذه الشخصيات من جهة أخرى وهي تبذل أقصى ما لديها في سبيل المعرفة.

ورأيت أن تكون هذه الشخصيات متنوعة العطاء وفي تخصصات شتى فمنهم شعراء لهم صوتهم المتميز ودورهم ومكانتهم في عالم الشعر والقصة، ولهم مواقف معروفة وثابتة في عموم الحياة السياسية والدينية بما تركوا من آثار واضحة دلت على ذلك وأكدت على تلك المبادئ.

ومنهم فلاسفة ورواة لهم دور في رفد تراثنا العلمي بنصوص الأخبار ومجموعة من النحاة واللغويين الذين أسسوا المذهب الكوفي وأقاموا مذهباً قوياً أمام المذهب البصري مما شغل الناس لزمن طويل يضاف إلى ذلك بعض المشتغلين بعلم الكيمياء وممن سعى إلى الموسوعية.

لم يختصر الحديث عن هذه الشخصيات باختيار الأجداد دون غيرهم بل تعدى ذلك إلى المعاصرين لربط الحاضر بالماضي.

وقد رأيت أن يكون هناك تمهيد للوصول إلى فضاء تلك الشخصيات وكان ما كتبه يوسف خليفة في كتابه (حياة الشعر في الكوفة) مطابقاً لما أطمح إليه.

أسأل الله تعالى أن أكون قد قدّمت ما يكون موضع الحمد لدراسة تراث مدينة الكوفة المعطاء.

وشكري وتقديري لمن ساهم في نشر هذا الكتاب.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

جامعة بابل- الحلة

الأستاذ الدكتور صباح نوري المرزوك

التمهيد

عندما أخذت حركة الفتح الإسلامي في الاتساع، وأخذ العرب يخرجون من جزيرتهم لينشروا دين الله في أقطار الأرض، وضعت الأسس الأولى لطائفة من الأمصار الإسلامية.

وقد أسست هذه الأمصار لتكون معسكرات ثابتة للجيوش العربية في انطلاقها البعيد المدى في أرجاء العالم القديم. ولكن هذه المعسكرات أخذت تتحول مع الأيام إلى مدن لها كل ما للمدن من مقومات، وأخذت هذه المدن تلعب دورها الخطير في الحياة الإسلامية في شتى جوانبها.

وإن المتأمل في هذه الحياة الإسلامية يلاحظ بوضوح أن الدور الذي لعبته هذه الأمصار في تاريخها أعمق وأقوى تأثيراً من الدور الذي لعبته حواضر الخلافة نفسها. ففي هذه الأمصار التي أسست في مناطق ذات حضارات قديمة، والتي نزلتها القبائل العربية بتقاليدها الموروثة ودينها الجديد لتعيش جنباً إلى جنب مع عناصر أجنبية على حظ غير قليل من الحضارة والمدنية، وضعت الأسس الأولى للحضارة الإسلامية، وهي حضارة شارك في بنائها العرب والأجانب. العقليات العربية والأجنبية حتى قامت وازدهرت واستقرت. ثم في هذه الأمصار أخيراً تطورت الحضارة العربية القديمة، وتطور معها الأدب تطوراً لم تكن تعرفه حواضر الخلافة وهو تطور لم يكن منه بد حين أصبح الميدان مشتركاً بين أصحابه الأصلاء ومن دخل فيه من أولئك الأجانب المستعربين، ومن هنا كانت دراسة هذه الأمصار على جانب كبير من الأهمية لمن يريد دراسة هذه الحضارة وهذه الثقافة وهذا الأدب، ومتابعتها في طريق النشأة والتطور والازدهار.

ومن المقرر بين الباحثين أن البصرة والكوفة هما المصران اللذان كان لهما أعمق الآثار وأقواها في هذه الجوانب كلها؛ فهما اللذان شهدا البواكير أسلماها بعد ذلك إلى بغداد حين ظهرت، ثم إلى غيرها من المراكز التي كانت الحضارة الإسلامية تنتقل فيها مع تغير الظروف السياسية. ولن يستطيع باحث في تاريخ هذه الحضارة أن يدعي أنه ينهج نهجاً علمياً سليماً، أو أن يدعي العلم بها إن لم يدرس هذين المصرين ويضع يديه على ما قاما به في سبيل تأسيس هذه الحضارة ورعايتها.

ولكن من الملاحظ أن الاهتمام بالبصرة كان دائماً أشد وأقوى من الاهتمام بالكوفة. وربما كان السبب في هذا يرجع إلى أن الطريق إلى البصرة أيسر وأقرب؛ فالمعلومات التي بين أيدينا عنها أكثر وأشد خصباً، والصورة التي في أذهاننا عنها أوضح وأدق؛ فالنحاه يقيمون دراساتهم على أسس المذهب البصري وقواعده، ويطمئنون إليها أكثر من اطمئنانهم إلى أسس المذهب الكوفي وقواعده، والعلماء يرون في الاعتزال مؤثراً قوياً في التاريخ خاصة، والاهتمام بالجاحظ وابن المقفع وبشار وأبي نواس البصريين لا يكاد يعدله اهتمام بغيرهم من المعاصرين لهم، وهو اهتمام كان يدفع الباحثين الى الاهتمام بالبيئة التي نشؤوا فيها. ومن هنا كان الطريق إلى الكوفة أشد بعداً وأكثر وعورة، وكانت الصورة عنها أقل وضوحاً وأكثر نقصاً. وأغلب الظن أن هذا لا يرجع إلى ضعف شأن الكوفة أو ضعف تأثيرها في العصر الأموي وفترة غير قصيرة من العصر العباسي، وهي ظروف جعلت الدولة الأموية تقف منها موقف عصف واضطهاد، وجعلت الخلفاء العباسيين الأول يقفون منها موقف حذر وريبة. وان هذا يجعل الرواة يقفون منها موقفاً على جانب كبير من التحرج والتردد، بل يجعلهم أحياناً ينصرفون عنها أو يشوهون الحقائق ويزيفونها عليها.

وإنما لأنها هي التي تعرض علينا صورة لصلة الكوفة بالحياة العامة من حولها، أو – بعبارة أخرى– تهيئ لنا السبيل لنضع الكوفة في موضعها الصحيح من الدولة، فالحياة السياسية هي الجانب العام في حياة الكوفة، وكان من رأينا أن نبدأ بهذا الجانب العام لنستطيع في ضوئه أن نتبين أين كانت تنزل الكوفة من هذه البيئة العامة، بيئة الدولة، وكيف كانت تعيش في هذا الجو العام الذي كان يؤثر في غيرها من المدن والأمصار والأقاليم. ومضينا ندرس هذه الحياة لا دراسة استعراضية، وإنما دراسة تعليلية، لم نقف فيها طويلاً عند الأحداث التاريخية التي تزخر بها المصادر التاريخية المتعددة. وإنما أشرنا إلى هذه الأحداث وإلى مواضعها من هذه المصادر، لنتفرغ لتعليلها وتفسيرها وربط أسبابها بمسبباتها، لعلنا نستطيع من وراء ذلك أن نصل إلى استجلاء ما كان يجري خلف المسرح السياسي، وفهم الدوافع والمحركات التي كانت تلعب دورها الخطير في توجيه (الحركة المسرحية) التي اعتاد رواة التاريخ السياسي أن يقفوا عنها طويلاً دون أن ينفذوا إلى ما وراءها. وفي ضوء هذه الدوافع والمحركات استطعنا أن نربط بين الأحداث التاريخية المتعددة، وأن نرى فيها مسرحية ضخمة ذات فصول عدة يترابط بضعها ترابطاً قوياً، وتجري كلها فصلاً في أثر فصل لتصل إلى هدف واضح محدد. وفي ضوء هذا كله استطعنا أن نرسم صورة لشخصية الكوفة السياسية.

وإذ انتهينا من تخصيص هذا الجانب من جوانب الحياة، مضينا إلى الجوانب الخاصة التي تفسر لنا الحياة الداخلية في الكوفة من حيث هي مدينة ذات أنماط خاصة في الحياة قد تشترك فيها مع غيرها من المدن، وقد تنفرد بها.

وكانت (الحياة الاجتماعية) أول جانب من هذه الجوانب الخاصة وقفنا عنده، لأنه هو الذي يفسر لنا طبيعة الحياة في هذه المدينة، ويضع أيدنا على الأسس التي قامت عليها. وكان من الطبيعي أن يكون التكوين الاجتماعي لهذه المدينة أول ما نقف عنده من حياتها الاجتماعية، فمضينا ندرس الأجناس التي شاركت في تكوينها الاجتماعي، أو–بعبارة أخرى– عناصر السكان فيها، وحاولنا أن نربط بين هذه الظاهرة الاجتماعية وبين الظروف التاريخية التي أحاطت بتأسيس الكوفة من ناحية، والبيئة الجغرافية التي أسست فيها من ناحية أخرى، وإذ اتضحت لنا صور هذا التكوين الاجتماعي كانت الخطوة الطبيعية

التالية أن نتبين كيف كانت هذه الأجناس في الكوفة؟ وكيف كانت حياتها الاجتماعية؟ وما طبيعة الصلات الاجتماعية التي كانت تربط بينها؟ ورأينا أن نتحدث أولاً عن الطبقات الاجتماعية، وعن حياتها، والظروف الاقتصادية التي كانت تعيش فيها، لنستطيع أن نتبين بعد هذا طبيعة الصلات بينها. ورأينا أن سلامة المنهج ودقته تفرضان علينا ألا نتحدث عن هذه الطبقات حديثاً عاماً نملؤه بطائفة من الأفكار العامة المعروفة. وإنما نتحدث عنها حديثاً علمياً دقيقاً. وكان سبيلنا إلى هذا أن نتابع (الخط التاريخي) لحياة هذه الطبقات في خلال الفترة التي ندرسها لنرى كيف يمضي؟ وإلى أين يتجه؟ وما الانحرافات أو الانعكاسات التي أصابته؟ ومن هنا كان منهجنا في هذه الدراسة يجمع بين اتجاهين: عرض تاريخي لتطور الظواهر الاجتماعية، ودراسة موضوعية لطبيعة هذه الظواهر. ثم انتهينا من هذا كله إلى رسم صورة مفصلة لشخصية الكوفة الاجتماعية استطعنا أن نبين فيها الألوان المختلفة التي تتألف منها، أو -بعبارة أخرى- التيارات الاجتماعية المتعددة التي تندفع فيها.

وإذ انتهينا من تشخيص هذا الجانب مضينا إلى (الحياة العقلية) ولم يكن تأخيرنا لها لأنها أقل الجوانب أهمية أو أضعفها تأثيراً، وإنما لأنها أخص هذه الجوانب، إذ أنها لا تفسر لنا طبيعة الحياة العامة في الكوفة، ولكنها تفسر طبيعة الحياة في دائرة خاصة، هي دائرة العناصر المثقفة المستنيرة.

وإذ كانت الكوفة أحد المراكز الأساسية للثقافة الإسلامية كان من الضروري أن نعرض أولاً لمنزلتها الثقافية لنرى أين تقف بين المراكز الثقافية الأخرى؟ وأن نحاول استجلاء العوامل التي جعلتها تحتل هذه المكانة الملحوظة في تاريخ هذه الثقافة، لنمضي بعد ذلك إلى ألوان الحياة العقلية المختلفة. وكان طبيعياً أن تكون (الحياة الدينية) أول ما نقف عنده من هذه الألوان، لأنها الأصل الذي قامت عليه الثقافة الإسلامية والمحور الذي دارت حوله. وإذ كانت الحياة الإسلامية تتجه ثلاثة اتجاهات: اتجاه نحو القرآن، واتجاه نحو الحديث، واتجاه نحو التشريع، مضينا نتبين الدور الذي قامت به مدرسة الكوفة الدينية في كل اتجاه من هذه الاتجاهات. ثم مضينا بعد ذلك إلى (الحياة اللغوية) لأنها الأساس الثاني الذي قامت عليه الحياة العقلية في الكوفة، فالدين أولاً واللغة بعد ذلك هما المقومان الأساسيان لهذه الحياة ما دامت الكوفة مدينة إسلامية عربية. ووقفنا عند الاتجاهات الثلاثة التي اتجهت إليها مدرسة الكوفة اللغوية: جمع اللغة وتدوينها، ووضع قواعد النحو، ورواية الشعر والأخبار، وحاولنا أيضاً أن نتبين الدور الذي قامت به في كل اتجاه من هذه الاتجاهات. ثم كانت (الحياة المذهبية) هي الاتجاه الثالث من اتجاهات الحياة العقلية، وهي -بطبيعة وضعها التاريخي- تأتي بعد الاتجاهين الديني واللغوي، لأنها الاتجاه الذي لم يظهر مع نشأة الكوفة وإنما ظهر بعد ذلك. ولسنا نقصد بالحياة المذهبية تلك المذاهب الفقهية التي ظهرت في التشريع الإسلامي، وإنما نقصد تلك المذاهب التي نشأت نشأة سياسية ثم أخذت صورة دينية بعد ذلك، وكان هدفها خدمة طوائف معينة تدين بمذاهب سياسية خاصة. ورأينا أن المذهبين الأساسيين اللذين عرفتهما الكوفة هما (التشيع والإرجاء) فوقفنا عندهما وقفة طويلة تتبعنا فيها نشأتهما وتطورهما. وكان منهجنا في دراسة هذه الاتجاهات الثلاثة للحياة العقلية يقوم على أساس من العرض التاريخي والدراسة الموضوعية على نحو ما فعلنا في دراسة الحياة الاجتماعية. وإذ انتهينا من هذا كله مضينا نحاول رسم صورة لشخصية الكوفة العقلية نوضح عليها الخطوط الأساسية التي تحددها، والألوان الواضحة التي تميزها.

وإذ تمت لنا دراسة (الحياة) واتضحت الصورة الدقيقة لها، مضينا إلى (الشعر) نحاول أن نتبين إلى أي حد أثرت هذه (الحياة) فيه؟ وإلى أي حد كان تعبيراً عنها؟ وكان طبيعياً أن تجري الدراسة هنا على المنهج الذي جرت عليه هناك، فكان (الشعر والحياة السياسية) ثم (الشعر والحياة).

تأسيس الكوفة :

كان تأسيس الكوفة إحدى الضرورات الحربية التي اقتضتها طبيعة الفتح الإسلامي لبلاد فارس في عهد عمر بن الخطاب، فقد اندفع الجيش العربي تحت قيادة سعد بن أبي وقاص بعد فتوح السواد إلى بلاد فارس، وكان من نتيجة هذا أن طالت خطوط المواصلات -على حد التعبير الحربي الحديث- بين المدينة حاضرة الدولة الإسلامية في ذلك الوقت، وبين ميدان القتال، فكان من الضروري أن يتخذ الجيش الإسلامي المحارب نقطة ارتكاز له أو معسكراً ثابتاً قريباً من ميدان القتال. فأصدر عمر أمره إلى سعد بأن " يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا"[1]. وخيل لسعد في أول الأمر أن المدائن، حاضرة الإمبراطورية الساسانية، هي المنطقة التي تصلح لأن تكون هذا المعسكر الثابت للجيش العربي، يتابع منها اندفاعه صوب الشرق، ولكن جو هذه المنطقة الرطبة لم يلائم العرب

(١) البلاذري: فتوح البلدان / ٢٧٥- وقد كان المقصود بدار الهجرة في ذلك الوقت مركز القتال الذي يرابط فيه الجنود مع أسرهم تحت السلاح -على حد التعبير الحربي- في انتظار الغزو (انظر Wellhausen: The Arab Kingdom and its Fall,P.٢٥) ومن هنا كان الجنود المسلمون يسمون أحياناً المقاتلة وأحياناً المهاجرة (Ibid,P.٢٥) وكلمة «قيروان» في النص تؤدي هذا المعنى أيضاً إذ أن من معانيها «الجماعة من الخيل، ومعظم الكتيبة» (انظر القاموس المحيط، مادة «قرن») -وفي بعض روايات الطبري أن عمر كتب إلى سعد بأن يتخذ للمسلمين «دار هجرة ومنزل جهاد» (٢٣٦٠/٥/١).

الخارجين من أعماق الصحراء الحارة، فاجتووها[1]. ورأى سعد أن يرجع إلى عمر يسأله رأيه، وأدرك عمر بثاقب فكره أهمية العامل الجغرافي في اختيار البيئة التي تصلح لنزول هؤلاء العرب المجاهدين الذين كان يحرص كل الحرص على أن يظلوا محتفظين بنشاطهم وحيويتهم التي خرجوا بها من الصحراء، وأدرك أنه لا تصلح لهم إلا بيئة جغرافية تشبه البيئة التي خرجوا منها، ورأى – من ناحية أخرى – أن طبيعة المهمة التي خرج من أجلها هؤلاء العرب من صحرائهم، وهي مهمة حربية، تفرض عليه ألا يهمل الجانب الحربي في هذا الاختيار، فرأى أن المنطق العسكري يقضي بألا يوجد فاصل طبيعي بين هذا الجيش وبين مركز القيادة العليا في المدينة، حتى يضمن بذلك السيطرة على طرق المواصلات التي تربط بينهما، فكتب إلى سعد: "إن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل، فارتد لهم موضعاً عدنا. ولا تجعل بيني وبينهم بحرا"[2]. وفكر سعد في الأنبار على الضفة الغربية للفرات التي لا يفصل بينها وبين الجزيرة العربية بحر – كما أراد عمر – «وأراد أن يتخذها منزلاً، فكثر على الناس الذباب، فتحول إلى موضع آخر فلم يصلح، فتحول إلى الكوفة فاختطها[3]». وكان ذلك في السنة السابعة عشرة من الهجرة (٦٣٨م) كما تذهب بعض الروايات، وفي السنة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، كما تذهب روايات أخرى[4]، والأول أرجح.

وتختلف الروايات في طريقة اهتداء سعد إلى هذه المنطقة التي اختط فيها الكوفة[5]، وأيا ما كانت الرواية الصحيحة فإن النتيجة التي نصل إليها من بين هذه الروايات المختلفة هي أن اختيار الموضع الذي أسست فيه الكوفة لم يكن أمراً مرتجلاً وإنما كان بعد نظر طويل وبحث دقيق، وهي نتيجة لا تقبل اختلافاً حولها، ولا يطعن فيها تعدد الروايات التي انتهت بنا إليها:

وهكذا نستطيع أن نرد تأسيس الكوفة إلى عاملين:

عامل حربي، وهو امتداد خطوط مواصلات الجيش الإسلامي بعد توغله في بلاد فارس، وما ترتب على ذلك من حاجته إلى نقطة ارتكاز له يتخذها معسكراً ثابتاً، وقاعدة حربية، يستريح فيها بعد القتال، ويتابع منها تقدمه، أو–على حد تعبير عمر – " دار هجرة ومنزل جهاد[6] ".

وعامل جغرافي، وهو ذلك الاختلاف الذي شعر به الجيش العربي بين البيئة التي خرج منها، وهي بيئة الصحراء العربية، والبيئة التي خرج إليها، وهي بيئة بلاد فارس، وما نتج عن ذلك من ضعف قوة الجند وحيويتهم، أو –على حد تعبير عمر – "من تغير ألوان المقاتلين ولحومهم[7] " الأمر الذي دفعه –وهو القائد الأعلى للجيش – إلى التفكير في وسيلة تحفظ على جيشه حيويته وقوته، وتعينه على المضى في الرسالة الكبرى التي غادر صحراءه من أجلها، وهي الجهاد في سبيل الله[8].

ولم يكد المسلمون ينزلون الكوفة حتى بدؤوا يشعرون بأن حياة التنقل والتقلقل التي كانوا يحيونها في جزيرتهم لم تعد تلائمهم أو – بتعبير آخر – لم تعد تلائم تلك الرغبة التي لابد أنها جاشت في نفوسهم في أن تكون لهم «مدينة» على النمط الفارسي الذي رأوه في أثناء حروبهم في بلاد فارس، تجمع بينهم، وتستقر بهم، وتكفيهم ذلك التردد الدائب خلف مواقع الغيث ومنابت الكلأ، مادام منزلهم الجديد منزلاً بريا بحرياً ينبت الحلى والنصى، على حد تعبير سعد[9]، وينبت الخزامى والأقحوان والشيح والقيصوم والشقائق، على حد تعبير رواة البلاذري[10].

ومن هنا بدأ تفكير تلك الجماعة المهاجرة المجاهدة من المسلمين في تحويل معسكرهم إلى مدينة، فلم يكادوا ينزلون الكوفة وتستقر بهم الدار، ولم يكادوا يعرفون أنفسهم ويثوب إليهم ما كانوا فقدوا – على حد تعبر المؤرخين[11] – حتى كتبوا إلى عمر يستأذنونه في بنيان القصب. ولكن عمر كان يرى في ذلك رغبة في الاستقرار لا تتفق مع طبيعة الدور الخطير الذي خرج هؤلاء المهاجرون من أجله، وجنوحاً إلى الارتباط بالأرض والاستكانة لها لا يتلائم مع طبيعة الجنس العربي التي كان عمر

(١) البلاذري: فتوح البلدان/ ٢٧٥- وفي رواية أخرى أن المسلمين «استوخموها واستوبئوها» (المصدر نفسه/ ٢٧٧).

(٢) البلاذري: فتوح البلدان /٢٧٦ –ويتردد هذا النص في مواضع مختلفة من المصادر التاريخية مع اختلاف في روايته، ولكنه اختلاف لا يغير المعنى. (انظر على سبيل المثال: الطبري ٢٣٦٠/٥/١، وياقوت: معجم البلدان ٢٩٧/٧).

(٣) البلاذري: فتوح البلدان /٢٧٥.

(٤) انظر: «The Ency. Of Isiam, art. al – Kufa» وهناك اختلافات أخرى حول هذا التاريخ (انظر الطبري ٢٣٦٠/٥/١، ٢٤٨١، وابن الاثير ٢/ ٢٥٩، والمسعودي: التنبيه والاشراف / ٣٥٨، والبلاذري / فتوح البلدان / ٢٨٤).

(٥) انظر البلاذري: فتوح البلدان / ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، معجم البلدان ٧/ ٢٩٧، والطبري ٢٣٦٠/٥/١، ٢٤٨٣، ٢٤٨٤، ٢٤٨٥.

(٦) الطبري ٢٣٦٠ /٥/١، ومن هذه الناحية كانت تسمى أحياناً «كوفة الجند» كما وردت في شعر عبدة بن الطيب (انظر ياقوت: معجم البلدان ٢٩٦/٧).

(٧) الطبري٢٤٨٣/٥/١، وابن الاثير ٢/ ٤١٠.

(٨) ويرى بعض المؤرخين – الاستاذ Reitemeyer– أن مسألة القلق على صحة الجيش المحارب لم تكن السبب الوحيد الذي دفع عمر إلى الأمر بتأسيس الكوفة، وإنما يضاف إلى هذا رغبته في حفظ العرب جنساً محارباً بعيداً عن الشعوب المغلوبة، كما فعل مع الجيش العربي الذي فتح مصر عندما أمره بعدم الإقامة في الإسكندرية (انظر: Creswell: Early Muslim Architecture,I,١٥).

(٩) الطبري ٢٤٨٦/٥/١، ١٤٨٧.

(١٠) فتح البلدان / ٢٧٧.

(١١) الطبري ٢٤٨٧/٥/١. و«ويثوب إليهم ما كانوا فقدوا» أي من قوتهم (انظر ابقن الاثير٤١١/٢).

يحرص أشد الحرص على أن تظل صافية نقية كما خرجت من الجزيرة العربية، وكان يرى -إلى جانب ذلك- أن حياة المعسكرات، مما فيها من تقشف وخشونة، خير حياة لهؤلاء المقاتلين الذين يجب أن يكونوا دائماً على أهبة القتال، والذين لم يخرجوا من جزيرتهم ليستقروا، كما تزين لهم الحياة الدنيا الفانية، وإنما خرجوا منها مقاتلين ليعودوا إليها مقاتلين أيضاً، كما يفرض عليهم جهادهم المقدس في سبيل الله والحياة الباقية. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل عمر أمام تلك الرغبة الجماعية التي أبداها جيشه؟ رأى عمر أن خير ما يفعله أن يبدي رأيه للجيش، ويترك له حرية الاختيار والتصرف، فكتب إليهم يقول: "العسكر أجد لحربكم، وأذكى لكم، وما أحب أن أخالفكم"[١].

وخطا المسلمون الخطوة الأولى في طريقهم نحو «المدينة» وأقاموا بيوتهم من القصب[٢]. ولكن يظهر أن الحياة أرادت أن تثبت لهم أن هذا المثل من الحياة المستقرة التي أرادوا أن يحيوها ليس إلا مثلاً ساذجاً ناقصاً، وأن هذه الخطوة التي خطوها ليست هي الخطوة الأخيرة في الشوط فقد وقع حريق في مدينتهم الناشئة «فاحترق ثمانون عريشا، ولم يبق فيها قصبة»[٣]. ولمعت الفكرة في ذهن سعد: لم لا يستبدلون ببنيان القصب بنيان اللبن؟ وخشى سعد معارضة الخليفة، وأدرك أن معارضته في هذه المرة ستكون أشد، فلم يكتب إليه كما فعل في المرة السابقة، وإنما بعث إليه وفداً منهم يستأذنونه في هذه الخطوة الجريئة، ومرة أخرى رأى عمر أن في هذه الخطوة خطراً على الجيش المقاتل، وأنها تخفي وراءها نعومة مترفة تهدد الحياة الخشنة التي يجب أن يظل هذا الجيش مقيماً عليها، بعيداً عن السرف آخذاً نفسه بالقصد والاعتدال[٤]. ولكن التيار كان جارفاً ولم تكن من الحكمة معارضته والوقوف في سبيله، فرأى عمر أن يوافقهم ولكنه قيد موافقته بقيود رأى أنها تحفظ على جيشه شيئاً من حياته الحسنة، وتبقي له على شيء من القصد والبعد عن السرف، فقال لهم: " افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الجولة"[٥].

(١) الطبري ٢٤٨٧/٥/١، وابن الاثير ٤١١/٢، وفيه «العسكر أشد لحربكم، وأذكر لكم» والمعنى على الروايتين واحد.

(٢) عن ابن عباس / " كانت منازل أهل الكوفة قبل أن تبنى أخصاصاً من قبل من قصب، إذا غزوا قلعوها وتصدقوا بها، فإذا عادوا بنوها" (ياقوت: معجم البلدان ٢٩٧/٧).

(٣) الطبري ٢٤٨٧/٥/١.

(٤) وفي الطبري أن عمر بعد أن أذن للوفد بالبناء تقدم إليهم " ألا يرفعوا بنياناً فوق فقالوا: وما القدر؟ قال: مالا يقربكم من السرف، ولا يخرجكم من القصد" (٢٤٨٨/٥/١).

(٥) الطبري ٢٤٨٧/٥/١، ٢٤٨٨، وابن الاثير ٤١٢/٢.

تخطيط الكوفة :

وخطا المسلمون خطوة أخرى في طريقهم نحو «المدينة» وبدأت الخطوة الأولى «لمدينة الكوفة» ترسم فوق الأرض، وكان المسجد - رمز الدولة الإسلامية- أول ما اختطه المسلمون في هذه الأرض الجديدة[٦].

ثم خطط قصر الإمارة وبيت المال بحيال محراب المسجد[٧] في الواجهة الجنوبية مع انحراف قليل نحو الشرق[٨]، وخططت المناهج من حول المسجد، وجعلت الأساسية منها- وفقاً لأمر عمر - أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين، وما بين ذلك عشرين، وجعلت الأزقة سبعة أذرع[٩] وتفرع من المسجد خمسة عشر منهجاً: من شماليه خمسة، ومن قبلته أربعة، ومن شرقيه ثلاثة ومن غربيه أيضاً[١٠]، ثم وزعت القبائل من حول المسجد على هذه المناهج[١١]. وبدأت قوالب اللبن ترفع القواعد من بنيان هذه المدينة الناشئة.

ثم مضت المدينة الناشئة في طريقها تستكمل مقوماتها، حتى اذا كانت إمارة زياد في السنة الخمسين من الهجرة[١٢] خطا المسلمون في هذه المدينة خطوة أخرى، فاخذوا يقيمون بيوتهم من الآجر بدلاً من اللبن[١٣]. ومضى زياد يدخل بعض التعديلات على المسجد فزاد فيه ووسعه[١٤] وأقامه على أساطين جلبت من جبال أهواز ثم نقرت وثقبت وحشيت بالرصاص وسفافيد الحديد، وجعل ارتفاعه ثلاثين ذارعاً، ثم سقفه، وجعل له مجنبات ومواخير، واستعان على ذلك (ببنائين من بنائي الجاهلية) - على حد عبارة الطبري- وحقق له بنّاء فارسي كان بناء لكسرى تلك الصورة التي كانت نفسه تنازعه إليها[١٥]، ثم أمر بالحصى فجمع، وألقى في صحن المسجد لأن الناس " كانوا يصلون فإذا رفعوا أيديهم وقد تربت نفضوها

(٦) في الطبري " فأول شيء خط بالكوفة وبنى حين عزموا على البناء المسجد" (٢٤٨٨/٥/١) - ويرسم المؤرخون صورة طريفة لاختطاطه (انظر البلاذري: فتوح البلدان /٢٧٦، والطبري ٢٤٨٩/٥/١).

(٧) الطبري ٢٤٩١/٥/١.

(٨) ماسينيون: خطط الكوفة /٢٧.

(٩) الطبري ١/ ٥/ ٢٤٨٨.

(١٠) الطبري ٢٤٨٩/٥/١.

(١١) الطبري ٢٤٨٩/٥/١، ٢٤٩٠.

(١٢) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ٦٧/١.

(١٣) ياقوت: معجم البلدان ٢٩٧/٧.

(١٤) البلاذري: فتوح البلدان /٢٧٧.

(١٥) الطبري ٢٤٤٢/٥/١- والمراد ببنائي الجاهلية في عبارة الطبري أنهم غير مسلمين

(أنظر Creswell: Early Muslim Architecture, ١،٣٦).

فقال زياد: ما اخوفني أن يظن الناس على غابر الأيام أن نفض الأيدي سنة في الصلاة "[1]. وباختصار فقد جعل زياد المسجد- على حد تعبير ماسينيون- أكبر وأجمل مسجد إسلامي قبل أن يفطن عبد الملك إلى بيت المقدس والحجاج إلى مسجد المدينة[2]. والواقع – كما يقرر كرزول[3]- ان فن العمارة في الكوفة أخذ يسجل تقدماً في أيام زياد.

وهكذا تحولت الكوفة في عهد زياد- كما يذكر زترشتين[4] - إلى مدينة منظمة بيوتها من الآجر.

وهنا نقف لنتساءل: إلى أي حد تم للمسلمين تحقيق الفكرة التي كانوا يسعون إليها، وهي فكرة (المدينة) في هذه (الكوفة) الناشئة التي أراد عمر أن تكون معسكراً وأرادوا هم أن تكون مدينة؟

أبو العتاهية

هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي مولى عنزة العيني الكوفي الشاعر المشهور الملقب أبو العتاهية.

ولادته ووفاته :

قال ابن خلكان: ولد سنة ١٣٠ للهجرة بعين التمر (ولذلك قيل له العيني) بليدة بالحجاز قرب المدينة وقيل إنها من أعمال سقي الفرات وقال ياقوت الحموي في كتابه المشترك أنها قرب الأنبار (انتهى) أقول الصواب أن مولده بعين التمر بالعراق لا بالحجاز وهي التي يقال لها اليوم شفاثاً وإن صح أن بالحجاز ما يسمى عين التمر فليس مولده به وفي رواية في الأغاني أن مولده بالكوفة.

وتوفي يوم الاثنين لثمان أو ثلاث خلون من جمادي الآخرة سنة ٢١١ وقيل ٢١٣ وقيل ٢١٠ وقيل ٢٠٩ حكى هذه الأقوال أبو الفرج في الأغاني ولكن قوله في الأبيات الآتية (عشت تسعين حجة) يدل على أنه مات سنة ٢٢٠ على الأقل وكانت وفاته ببغداد وقبره على نهر عيسى قبالة قنطرة الزياتين قاله في الأغاني. وأوصى أن يكتب على قبره:

إن عيشا يكون آخره المو
ت لعيش معجل التنغيص

وقيل أوصى أن يكتب عليه:

إذن حي تسمعي
واسمعي ثم عي وعي
أنا رهن بمضجعي
فاحذروا مثل مصرعي
عشت تسعين حجة
أسلمتني لمضجعي
كم ترى ثابتاً
في ديار التزعزع
ليس زاد سوى التقى
فخذي منه أودعي

أمه :

في الأغاني أمه أم زيد بنت زياد المحاربي مولى بني زهرة (انتهى) فهو من قبل الأب مولى عنزة ومن قبل الأم مولى بني زهرة.

نسبته :

العنزي نسبة إلى قبيلة عنزة بفتح العين المهملة والنون بعدها زاي وهاء سميت باسم عنزى بن أسد بن ربيعة قاله ابن خلكان. ويظهر من الأغاني أنهم من عنزة نسباً وأن جدهم اسر فاشتراه عنزي واعتقه فكان ولاؤه أيضاً لعنزة روى ذلك عن محمد بن سلام قال كان محمد بن أبي العتاهية يذكر أن أصلهم من عنزة وأن جدهم كيسان كان من أهل عين التمر فلما غزاها خالد بن الوليد كان جدهم كيسان يتيماً يكفله قرابة له من عنزة فسباه خالد فسأل أبو بكر كيسان عن نسبه فأخبره أنه من عنزة فاستوهبه منه عباد بن رفاعة العنزي فأعتقه فتولى عنزة (انتهى) ومن ذلك يعلم أنه من عين التمر بالعراق لا بالحجاز كما مر.

كنيته ولقبه :

في الأغاني كنيته أبو إسحاق وأبو العتاهية لقب غلب عليه. وفيه بسنده عن ميمون بن هارون عن بعض مشايخه أنه كني بأبي العتاهية لأنه كان يحب الشهرة والمجون والتعته وبسنده عن محمد بن موسى بن حماد أن المهدي قال له يوماً أنت إنسان متحذلق معته فاستوت له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه وكنيته ويقال للرجل المتحذلق عتاهية ويقال أبو عتاهية بدون الـ(انتهى) وفي تاريخ بغداد أبو العتاهية لقب به لإضراب كان فيه وقيل بل كان يحب المجون والخلاعة فكني لعتوه (لعتوهه) أبا العتاهية.

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان /٢٧٧.

(٢) خطط الكوفة /٢٨.

(٣) Early Muslim Architecture, I, ٣٣.

(٤) Zettersteen: The Ency. of Islam art " al-Kufa".

صفته :

في الأغاني بسنده عن محمد بن موسى كان أبو العتاهية نظيفاً أبيض اللون أسود الشعر له وفرة جعدة وهياة حسنة ولباقة وحصافة وفي موضع آخر منه عن النوفلي أبو العتاهية كان مقبحاً طويل الوجه كأنه ينظر في سيف.

أصله ومنشؤه :

قد عرفت أصله من عين التمر بالعراق وفي الأغاني منشؤه بالكوفة ثم روى عن ميمون عن بعض مشايخه قال وبلده الكوفة وبلد آبائه وبها مولده ومنشؤه وباديته وفي تاريخ بغداد: أصله من عين التمر ومنشؤه الكوفة ثم سكن بغداد.

أقوال العلماء فيه :

في الأغاني قال الشعر فبرع فيه وتقدم ويقال أطبع الناس بشار والسيد وأبو العتاهية وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرته وكان غزير البحر لطيف المعاني سهل الألفاظ كثير الافتنان قليل التكلف إلا أنه كثير الساقط المرذول مع ذلك وأكثر شعره في الزهد والأمثال وله أوزان ظريفة قالها مما لم يتقدمه الأوائل فيها (انتهى) وفي شذرات الذهب: هو من مقدمي المولدين ومن طبقة بشار إبن برد وأبي نواس (انتهى) وفي تاريخ بغداد: هو أحد من سار قوله وانتشر شعره وشاع ذكره ويقال أن أحداً لم يتجمع له ديوانه بكماله لعظمه وكان يقول في الغزل والمديح والهجاء قديماً ثم تنسك وعدل عن ذلك إلى الشعر في الزهد وطريقة الوعظ فأحسن القول فيه وجود وأربى على كل من ذهب وأكثر شعره حكم وأمثال وكان سهل القول قريب المأخذ بعيداً من التكلف متقدماً في الطبع (انتهى).

مكانته في الشعر :

كان أبو العتاهية يفضل على شعراء عصره وبعضهم يقول إنه أشعر الناس هذا وفي عصره من فحول الشعراء مثل أبي نواس وبشار والعتابي والنميري ومسلم بن الوليد وأبي الشيص ومروان بن أبي حفصة والسيد الحميري وأشجع السلمي ودعبل الخزاعي ومحمد بن أمية ومحمد بن مناذر وأبي الشمقمق وغيرهم وفي الأغاني يقال إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية والإسلام ثلاثة بشار وأبو العتاهية والسيد فإنه لا يعلم أن أحداً قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع (انتهى) وكان أبو نواس مع شهرته وعلو مكانه في الشعر يعترف له بأنه أشعر منه ويقول عن شعره أسحر هذا ففي الأغاني بسنده أنه قيل لأبي نواس وقد أنشد شعراً: أنت أشعر الناس فقال أما والشيخ حي يعني أبا العتاهية فلا. وفيه بسنده أنه قرئ بعض شعره على أبي نواس فقال قد والله أجاد ولم يقل فيه سوءاً. وفي تاريخ بغداد بسنده عن ابن أبي شيخ قال بكرت إلى سكة ابن نيبخت فرأيت أبا نواس فجلست إليه فمر بنا أبو العتاهية على حمار فسلم ثم أومأ برأسه إلى أبي نواس وأنشأ يقول:

لا ترقدن لعينك السهر
وانظر إلى ما تصنع الغير
انظر إلى غير مصرفة
إن كان ينفع عينك النظر
وإذا سألت فلم تجد أحداً
فسل الزمان فعنده الخبر
أنت الذي لا شيء تملكه
وأحق منك بما لك القدر

فنظر إلي أبو نواس ثم قال أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون. وفيه بسنده أن أبا نواس كان جالساً في بعض طرق بغداد والناس يمرون به وهو ممدود الرجل بين بني هاشم والقواد ووجوه أهل بغداد فكل يسلم عليه فلا يقوم إلى أحد ولا يقبض رجله إذ أقبل شيخ على حماره واعتنقا وجعل أبو نواس يحادثه وهو قائم على رجليه حتى رئي أبو نواس يرفع إحدى رجليه ويضعها على الأخرى مستريحاً من الأعياء ثم انصرف الشيخ ورجع أبو نواس إلى مكانه فقيل له من هذا الشيخ الذي رأيناك تعظمه هذا الإعظام وتجله هذا الإجلال فقال: هذا إسماعيل إبن القاسم أبو العتاهية فقال له السائل لم أجللته هذا الإجلال وساعة منك عند الناس أكثر منه قال ويحك لا تقل فوالله ما رأيته قط إلا توهمت إنه سماوي وأنا أرضي (انتهى) وكان بشار وهو الشاعر المقدم يقول إنه أشعر أهل زمانه ويطرب عند سماع شعره ويقول لأشجع وأبو العتاهية ينشد: انظر هل طار الخليفة عن فرشة ففي الأغاني بسنده قيل لبشار من أشعر أهل زماننا فقال مخنث أهل بغداد يعني أبا العتاهية. وبسنده أنه جلس المهدي للشعراء يوماً فأذن لهم وفيهم بشار وأشجع وأبو العتاهية وكان أشجع يأخذ عن بشار قال أشجع فلما سمع بشار كلام أبي العتاهية قال يا أخا سليم أهذا ذلك الكوفي الملقب قلت نعم قال لا جزى الله خيراً من جمعنا معه ثم قال له المهدي أنشد فقال ويحك أو يبدأ به فيستنشد أيضاً قد ترى فأنشد:

إلا ما لسيدتي ما لها
تدل فاحمل ادلالها
ألا إن جارية للإما
م قد أسكن الحب سربالها

مشت بين حور قصار الخطا
تجاذب في المشي أكفالها
وقد أتعب الله نفسي بها
وأتعب باللوم عذالها

قال أشجع: فقال لي بشار ويحك يا أخا سليم ما أدري من أي أمريه أعجب أمن ضعف شعره أم من تشبيبه بجارية الخليفة يسمع ذلك بأنه (قال المؤلف) أعجب شيء ما بلغ به هؤلاء المتسمون بالخلافة من الخلاعة وقلة الغيرة حتى صار الشعراء يشببون بجواريهم في مجلسهم العام ولكن من يبرز جواريه تغني أمام الأجانب لا يمكن أن يغار من التشبيب بها. قال حتى أتى على قوله:

أتته الخلافة منقادة
إليه تجرر أذيالها
ولم تك تصلح إلا له
ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره
لزلزلت الأرض زلزالها
ولم لم تطعه بنات القلوب
لما قبل الله أعمالها
وإن الخليفة من بغض لا
إليه ليبغض من قالها

قال أشجع فقال لي بشار قد اهتز طربا ويحك يا أخا سليم أترى الخليفة لم يطر عن فرشه طرباً لما يأتي به هذا الكوفي.

(ومروان بن أبي حفصة) وهو من مشاهير شعراء عصره ومقدم عند بني العباس بانحرافه عن الطالبيين يمدح الخليفة العباسي بقصيدة طويلة ويمدحه أبو العتاهية وهو شيعي زيدي ببيتين فيسوي بينهما في العطاء ففي تاريخ بغداد بسنده عن العتبي قال رئي مروان بن أبي حفصة واقفاً بباب الجسر كئيباً آسفاً ينكت بسوطه في معرفة دابته فقيل له يا أبا السمط ما الذي نراه بك قال أخبركم بالعجب مدحت أمير المؤمنين فوصفت له ناقتي من خطامها إلى خفيها ووصفت القيافي من اليمامة إلى بابه أرضاً أرضاً ورملة رملة حتى إذا أشفيت منه على غنى الدهر جاء ابن بياعة النخاخير –يعني أبا العتاهية– فأنشده بيتين فضعضع بهما شعري وسواه في الجائزة بي وهما:

إن المطايا تشتكيك لأنها
تطوي إليك سباسبا ورمالا
فإذا رحلن بنا رحلن مخفة
وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

ومسلم بن الوليد على تقدمه يقول له وقد سمع بعض شعره: لا والله يا أبا إسحاق لا يبالي من أحسن أن يقول مثل هذا ما فاته من الدنيا رواه في الأغاني. وأبو تمام الطائي ومكانته في الشعر والأدب لا تلحق يقول عن بعض شعره أنه ما شركه فيه أحد. ففي الأغاني بسنده قال ابو تمام الطائي: لأبي العتاهية خمسة أبيات ما شركه فيها أحد ولا قدر على مثلها متقدم ولا متأخر وهي قوله:

الناس في غفلاتهم
ورحى المنية تطحن

وقوله لأحمد بن يوسف:

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى
وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وقوله في موسى الهادي:

ولما استقلوا بأثقالهم
وقد أزمعوا للذي أزمعوا
قرنت التفاتي بآثارهم
واتبعتهم مقلة تدمع

وقوله:

هب الدنيا تصير إليك عفوا
أليس مصير ذاك إلى زوال

وفي تاريخ بغداد بسنده عن أبي تمام قال: تكتب من شعر أبي العتاهية خمسة أبيات فإن أحداً لم يشركه فيها ولا تهيا لأحد مثلها وذكر الخمسة المتقدمة. وابن الأعرابي مع علو كعبه في معرفة الشعر ونقده يقول ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا اقدر على بيت منه وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر. ففي الأغاني حدث ابن الأعرابي أن الرشيد حم فصار أبو العتاهية إلى الفضل بن الربيع برقعة فيها أبيات في حق الرشيد فوصل إليه بذلك مال جليل فقال رجل بالمجلس لابن الأعرابي ما هذا الشعر بمستحق لما قلت لأنه شعر ضعيف فقال ابن الأعرابي وكان احد الناس: الضعيف والله عقلك ألأبي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر ثم أنشد له:

قطعت منك حبائل الآمال
وحططت عن ظهر المطي رحالي
ووجدت برد اليأس بين جوانحي
فأرحت من حل ومن ترحال
يا أيها البطر الذي هو من غد
في قبره متمزق الأوصال

حذف المنى عند المشمر في الهدى

وأرى منـاك طويلـة الأذيـال

حيل ابن آدم في الأمور كثيرة

والموت يقطع حيلة المحتال

قست السؤال فكان أعظم قيمة

من كل عارفة جرت بسؤال

فإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً

فابذل للمتكرم المفضال

وإذا خشيت تعذراً في بلدة

فاشدد يديك بعاجل الترحال

واصبر على غير الزمان فإنما

فرج الشدائد مثل حل عقال

ثم قال للرجل هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا الشعر فقال له الرجل يا أبا عبدالله جعلني الله فداءك أني لم أردد عليك ما قلت ولكن الزهد مذهب أبي العتاهية وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد فقال أفليس هو الذي يقول في المديح:

وهارون ماء المزن يشفى به الصدا

إذا ما الصدي بالريف غصت حناجره

وأوسط بيت في قريش لبيته

وأول عز في قريش وآخره

وزحف له تحكي البروق سيوفه

وتحكي الرعود القاصفات حوافره

إذا حميت شمس النهار تضاحكت

إلى الشمس فيه بيضه ومغافره

إذا نكب الإسلام يوماً بنكبة

فهارون من بين البرية ثائره

ومن ذا يفوت الموت والموت مدرك

كذا لم يفت هارون ضد ينافره

فتخلص الرجل من شر ابن الأعرابي بأن قال له القول كما قلت وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين وكتبهما عنه. هذا مع ان صاحب الأغاني روى أن ابن الأعرابي كان يعيب أبا العتاهية ويثلبه. فإذا كان هذا قوله فيه وهو يعيبه ويثلبه كان اقرب إلى الصحة.

والفراء يحيى بن زياد الأقطع من مشاهير علماء العربية يعترف بأنه أشعر أهل البصرة، ففي الأغاني بسنده عن يحيى بن زياد الفراء قال لي جعفر بن يحيى يا أبا زكريا أزعم أن أبا العتاهية أشعر أهل هذا العصر فقلت هو والله أشعرهم عندي، الورد بن زياد الخزاعي أخو دعبل وهو من معاريف شعراء ذلك العصر يقول إنه أشعر الإنس والجن، ففي الأغاني بسنده قيل لورد بن زيد بن رزين الشاعر من أشعر أهل زمانه؟ قال: أبو نواس قلت فما تقول في أبي العتاهية فقال أبو العتاهية أشعر الإنس والجن.

وهذا سلم الخاسر ومكانته في الشعر غير مجهولة يقول إنه أشعر الجن والإنس ففي الأغاني بسنده أن موسى الشهرزوري قال لسلم الخاسر أنشدني لنفسك قال ولكن أنشدك لأشعر الجن والإنس لأبي العتاهية ثم أنشدني قوله:

سكن يبقى له سكن

ما بهذا يؤذن الزمن

نحن في دار يخبرنا

ببلاها ناطق لسن

دار سوء لم يدم فرح

لامرئ فيها ولا حزن

في سبيل الله أنفسنا

كلنا بالموت مرتهن

كل نفس عند ميتتها

حظها من مالها الكفن

إن مال المرء ليس له

منه إلا ذكره الحسن

وعن رجاء بن مسلمة قلت لسلم الخاسر من أشعر الناس فقال إن شئت أخبرتك بأشعر الجن والإنس فقلت إنما أسألك عن الإنس فإن زدتني الجن فقد أحسنت فقال أشعرهم الذي يقول: (سكن يبقى له سكن) الأبيات مع أن أبا العتاهية هجاه كما في الأغاني بقوله:

تعالى الله يا سلم بن عمرو

إذل الحرص أعناق الرجال

وكان بينهما منافرة والجماز كان ابن أخت أعناق الرجال بعث لخاله بالأبيات التي أولها (ما أقبح التزهيد من واعظ) كما يأتي.

وهذا العتابي كلثوم بن عمرو وهو من لا يجهل مكانه في الشعر يقول إنه أشعر الناس الأولين والآخرين في وقته ففي الأغاني بسنده قال العتابي لمحمد بن النضر أنشدني لشاعر العراق يعني أبا نواس فأنشده وقال ظننتك تقول هذا لأبي العتاهية فقال لو أردت أبا العتاهية لقلت لك أنشدني لأشعر الناس ولم

اقتصر على العراق، وبسنده قال العتابي الشاعر: لكم يا أهل العراق شاعر منوه الكنية ما فعل فذكر القوم أبا نواس فانتهرهم ونفض يده وقال ليس ذلك فقيل لعلك تريد أبا العتاهية قال نعم ذاك أشعر الأولين والآخرين في وقته، وفي الأغاني بسنده عن مصعب بن عبدالله: أبو العتاهية أشعر الناس بقوله:

تعلقت بآمال

طوال أي آمال

وأقبلت على الدنيا

ملحا أي إقبال

أيا هذا تجهز لـ

ـفراق الأهل والمال

فلا بد من الموت

على حال من الحال

قال مصعب: هذا كلم سهل لا حشو فيه ولا نقصان يعرفه العاقل ويقر به الجاهل، وعن عبدالله بن عبد العزيز العمري أشعر الناس أبو العتاهية حيث يقول:

ما ضر من جعل التراب مهاده

أن لا ينام على الحرير إذا قنع

صدق والله وأحسن.

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء مولى عمرو بن حريث صاحب المهدي وكان ممدحاً فأمر له بسبعين ألف درهم فقال بعض الشعراء كيف فعل هذا بهذا الكوفي وأي شيء مقدار شعره فبلغه فأحضره فقال إن الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه ويتعاطاه فلا يحسنه وهذا كأن المعاني تجمع له مدحني فقصر الشيب وقال:

إني أمنت من الزمان وريبه

لما علقت من الأمير حبالا

لو يستطيع الناس من إجلاله

لحذوا له حر الوجوه نعالا

إن المطايا تشتكيك لأنها

قطعت إليك سباسبا ورمالا

فإذا وردن بنا وردن مخفة

وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وعن المعلى بن عثمان قيل لأبي العتاهية كيف تقول الشعر قال ما أردته قط إلا مثل لي فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد.

وعن روح بن الفرج الحرمازي سمعت أبا العتاهية يقول: لو شئت إن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت.

وقال محمد بن أبي العتاهية سئل أبي هل تعرف العروض قال أنا أكبر من العروض وله أوزان لا تدخل في العروض.

وقيل لأبي العتاهية: أما يصعب عليك شيء من الألفاظ فتحتاج فيه إلى استعمال الغريب كما يحتاج إليه سائر من يقول الشعر قال لا فقال: إني لأحسب ذلك من ركوبك القوافي السهلة قال: فاعرض علي ما شئت من القوافي الصعبة فقال قل على مثل البلاغ فقال من ساعته:

أي عيش يكون أبلغ من عيـ

ـش كفاف قوت بقدر البلاغ

صاحب البغي ليس يسلم منه

وعلى نفسه بغى كل باغي

رب ذي نعمة تعرض منها

حائل بينه وبين المساغ

أبلغ الدهر في مواعظه بل

زاد فيهن لي على الإبلاغ

غبنتني الأيام عقلي ومالي

وشبابي وصحتي وفراغي

واجتمعت الشعراء على باب الرشيد فأذن لهم فدخلوا وأنشدوا فأنشد أبو العتاهية:

يا من تبغي زمناً صالحاً

صلاح هارون صلاح الزمن

كل لسان هو في ملكه

بالشكر في إحسانه مرتهن

فأدهش له الرشيد وقال أحسنت والله وما خرج في ذلك اليوم أحد من الشعراء بصلة غيره.

وأجرى الرشيد الخيل فجاء فرس يقال له المشمر سابقاً وكان الرشيد معجباً به فأمر أن يقولوا فيه فبدرهم أبو العتاهية فقال:

جاء المشمر والأفراس يقدمها

هوناً على رسله منا وما انبهرا

وخلف الريح حسرى وهي جاهدة

ومر يختطف الأبصار والنظرا

فأجزل صلته وما جسر أحد بعد أبي العتاهية أن يقول فيه شيئاً.

المقايسة بينه وبين أبي نواس :

في الأغاني قال الحرمازي: شهدت أبا العتاهية وأبا نواس في مجلس وكان أبو العتاهية أسرع الرجلين جواباً عند البديهية وأبو نواس أسرعهما في قول الشعر فإذا تعاطيا جميعاً السرعة فضله أبو العتاهية وإذا تمهلا فضله أبو نواس.

مذهبه :

كان يتشيع بمذهب الزيدية ولعله أخذ التشيع من الكوفة التي كان أهلها شيعة إلا ما ندر ولكنه مع تشيعه كان يقول بالجبر كما ستعرف وقد مر في ترجمة أبي سهل إسماعيل بن علي بن إسحاق بن أبي سهل النوبختي أن له كتاباً في الصفات للرد على أبي العتاهية في التوحيد في شعره ولعل المراد الرد عليه في قوله بالجبر وفي إثبات صفات له تعالى زائدة على الذات قديمة كما يقوله الأشاعرة ويتفرع عليه قدم القرآن كما تأتي الإشارة إليه، كان قوم من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث ويحتجون بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد (انتهى) وهذه الحجة واهية جداً فالواعظ بالشعر أو النثر يخوف الناس بالموت ليزيدهم في الدنيا ولا يخوفهم بالبعث.

ويظهر من الأغاني أن منصور بن عمار استاء من أبي العتاهية لأن منصوراً تكلم فقال أبو العتاهية إنه سرقه من رجل كوفي فنسبه منصور إلى الزندقة واحتج بهذه الحجة الواهية، وروى في الأغاني أن جارة له رأته ليلة يقنت في صلاته فروت عنه أنه يكلم القمر واتصل الخبر بحمدويه صاحب الزنادقة فترقبه فرآه يصلي ثم رآه يقنت فانصرف خاسئاً، وهكذا يكون نصيب العالم من الجهال يصلي ويقنت في صلاته ويناجي ربه فتراه امرأة سخيفة العقل لم تر من يقنت قبل هذا مقابل القمر رافعاً يديه فتظن أنه يكلم القمر ويعبد الكواكب ولولا أن حمدويه عرف أن هذا قنوت لالتصقت به الزندقة بشهادة هذه المرأة الجاهلة.

وفي الأغاني بسنده عن أحمد بن حرب كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد وإن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء ثم بنى العالم منهما وأن العالم حديث العين والصنعة لا محدث له إلا الله وان يزعم أن الله سيرد كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعاً وكان يذهب إلى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعاً وكان يقول بالوعيد وبتحريم المكاسب (كذا) ويتشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة لا ينتقص أحداً ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان وكان مجبّراً قال الصولي فحدثني يموت بن المزرع حدثني الجاحظ قال أبو العتاهية لثامة (ابن أشرس) بين يدي المأمون أسألك عن مسألة فقال له المأمون عليك بشعرك فقال إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في مسألته ويأمره بإجابتي فقال له أجبه إذا سألك فقال أنا أقول كلما فعله العباد من خير وشر فهو من الله وأنت تأبى ذلك فمن حرك يدي هذه وجعل أبو العتاهية يحركها فقال ثمامة حركها من أمه زانية فقال شتمني والله يا أمير المؤمنين فقال ثمامة ناقض الماص بظر أمه والله يا أمير المؤمنين فضحك المأمون وقال ألم أقل لك أن تشتغل بشعرك وتدع ما ليس من عملك قال ثمامة فلقيني بعد ذلك فقال لي يا أبا معن ما أغناك الجواب عن السفه؟ فقلت: إن من أتم الكلام ما قطع الحجة وعاقب على الإساءة وشفى من الغيظ وانتصر من الجاهل، وبسنده عن العباس بن رستم: كان أبو العتاهية مذبذباً في مذهبه يعتقد شيئاً فإذا سمع طاعنا عليه ترك اعتقاده إياه وأخذ غيره (انتهى) وهذا يمكن أن يكون مدحاً بأنه إذا ظهر له الحق أخذ به ولم يتعصب، وفي الأغاني: حدثني أبو شعيب صاحب أبي داود قلت لأبي العتاهية القرآن عندك مخلوق أم غير مخلوق قال سألتني عن الله أم عن غير الله قلت عن غير الله فأمسك وأعدت عليه فأجابني هذا الجواب حتى فعل ذلك مراراً فقلت ما لك لا تجيبني قال قد أجبتك ولكنك حمار (انتهى) وأراد بجوابه هذا أن القرآن كلام الله فهو قديم بقدم الله فلو كان القرآن مخلوقاً لكان الله مخلوقاً، قال وحدث خليل بن أسد التوشجاني قال أتانا أبو العتاهية إلى منزلنا فقال: زعم الناس أني زنديق والله ما ديني إلا التوحيد فقلنا فقل شيئاً نتحدث به عنك فقال:

ألا إننا كلنا بائد
وأي بني آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم
وكل إلى ربهم عائد
فيا عجباً كيف يُعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له شاهد
يدل على أنه واحد

وفي تاريخ بسنده قال الرشيد لأبي العتاهية الناس يزعمون أنك زنديق فقال يا سيدي كيف أكون زنديقاً وأنا القائل:

أيا عجبي كيف يعصي الإلـ
ـه أم كيف يجحده جاحد[1]

(١) مر أنه كان يقول أنا أكبر من العروض ومعناه كما في لسان الميزان أنه نظم ...

ولله فـــي كـــل تحريكـــة
وفـــي كـــل تـــسكينة شـــاهد
وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة
تـــدل علـــى أنّـــه واحـــد

أحواله :

في الأغاني كان في أول أمره يتخنث ويحمل زاملة[1]. وبسنده عن أبي الشمقمق أنه رأى ابا العتاهية يحمل زاملة المخنثين فقلت له أمثلك يضع نفسه هذا الموضع مع سنك وشعرك وقدرك فقال أريد أن أتعلم كيادهم وأتحفظ كلامهم (انتهى) ثم روى بسنده عن خيار الكاتب: كان أبو العتاهية وإبراهيم الموصلي من أهل المذار جميعاً وكان أبو العتاهية وأهله يعملون الجرار الخضر فقدما إلى بغداد ثم افترقا فنزل إبراهيم الموصلي ببغداد ونزل أبو العتاهية الحيرة وذكر عن الرياشي مثله وإن أبا العتاهية نقله إلى الكوفة. وبسنده عن الخليل بن أسد: كان أبو العتاهية يأتينا فيستأذن ويقول أبو إسحاق الخزاف وكان أبوه حجاماً ولذلك يقول أبو العتاهية:

إلا إنمـــا التقـــوى هـــو العـــز والكـــرم
وحبـــك للـــدنيا هـــو الفقـــر والعـــدم
ولـــيس علـــى عبـــد تقـــي نقيـــصة
إذا صـــح التقـــوى وإن حـــاك أو حجـــم

ثم روى أبو الفرج إنه كان لأبي العتاهية عبيد من السودان ولأخيه زيد عبيد يعملون الخزف في أتون لهم ويدفعونه إلى أجير لهم أسمه أبو عباد اليزيدي بالكوفة فيبيعه لهم وقيل بل كان يفعل ذلك أخوه لا هو وسئل عن ذلك فقال أنا جرار القوافي وأخي جرار التجارة. وقال عبد الحميد بن سرع: أنا رأيت أبا العتاهية وهو جرار يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره فيكتبونها على ما تكسر من الخزف (انتهى) ومر قول الخطيب أنه كان يقول الشعر في الغزل والمديح والهجاء قديماً ثم تنسك وعدل عن ذلك إلى الشعر في الزهد والوعظ وروي في الأغاني أنه تنسك ولبس الصوف وإنه لما فعل ذلك أمره الرشيد أن يقول شعراً في الغزل فامتنع فضرب ستين عصا وحلف أن لا يخرج من حبسه حتى يقول شعراً في الغزل فحلف أبا العتاهية بعتق كل مملوك له وطلاق امرأته أن تكلم سنة إلا بالقرآن أو الذكر فكان الرشيد تحزن مما فعله فأمر أن يحبس في داره ويوسع عليه فمكث هكذا سنة فقال الرشيد لمسروق الخادم كم ضربنا أبا العتاهية قال ستين فأمر له بستين ألف درهم وخلع عليه وأطلقه. وقال محمد بن أبي العتاهية: كان أبي لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر إلا في الحج وكان يجري عليه في كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعاون فلما قدم الرشيد الرقة لبس أبي الصوف وتزهد وترك حضور المنادمة والقول في الغزل فأمر الرشيد بحبسه فحبس فكتب إليه من وقته:

أنـــا اليـــوم والحمـــد لله أشـــهر
يـــروح علـــي الهـــم مـــنكم ويبكـــر
تـــذكر أمـــين الله حقـــي وحرمتـــي
ومـــا كنـــت تـــوليني لـــذلك يـــذكر
ليـــالي تـــدني منـــك بـــالقرب مجلـــسي
ووجهـــك مـــن مـــاء البـــشاشة يقطـــر
فمـــن لـــي بـــالعين التـــي كنـــت مـــرة
إلـــي بهـــا فـــي ســـالف الـــدهر تنظـــر

قال فلما قرأ الرشيد الأبيات قال قولوا لا بأس عليك فكتب إليه:

أرقـــت وطـــار عـــن عينـــي النعـــاس
ونـــام الـــسامرون ولـــم يواســـوا
أمـــين الله أمنـــك خيـــر آمـــن
عليـــك مـــن التقـــى فيـــه لبـــاس
تـــساس مـــن الـــسماء بكـــل بـــر
وأنـــت بـــه تـــسوس كمـــا تـــساس
كـــأن الخلـــق ركـــب فيـــه روح
لـــه جـــسد وأنـــت عليـــه راس
أمـــين الله إن الحـــبس بـــأس
وقـــد أرسـلت لـــيس عليـــك بـــاس

فأمر بإطلاقه. وقال محمد بن أبي العتاهية أيضاً: إن أباه لبس كساء صوف ودراعة صوف وآلى على نفسه أن لا يقول شعراً في الغزل فأمر الرشيد بحبسه والتضييق عليه فقال:

يـــا ابـــن عـــم النبـــي ســـمعا وطاعـــة
قـــد خلعنـــا الكـــساء والدراعـــه
ورجعنـــا إلـــى الـــصناعة لمـــا
كـــان ســـخط الإمـــام تـــرك الـــصناعه

نظم الشعر قبل أن يصنف الخليل كتاب العروض.

(١) في المغرب الزاملة البعير يحمل عليه المسافر متاعه وطعامه ثم سمي به العدل الذي فيه زاد الحاج (١هـ) وكان زامله المخنثين ما يجعل فيه متاعهم. -المؤلف-

وتوانى الرشيد في إخراجه إلى أن قال الأبيات التي في أولها:

أمـــا والله إن الظلـــم لـــوم

ومـــا زال المـــسيء هـــو الظلـــوم

إلـــى ديـــان يـــوم الـــدين نمـــضي

وعنـــد الله تجتمـــع الخـــصوم

فرق له وأمر بإطلاقه. وفي رواية للأغاني أن الرشيد حبسه وضيق عليه حتى يقول الشعر الرقيق في الغزل كما كان يقول فحبسه في بيت خمسة أشبار في مثلها فصاح الموت أخرجوني فأنا أقول كلما شئتم فقيل له قل فقال حتى أتنفس فأخرج وأعطي دواة وقرطاساً فقال أبياتاً في الغزل ولعل حبسه وإطلاقه قد تكرر. وله في الرشيد لما حبسه أشعار كثيرة ذكر جملة منها في الأغاني. ولما مات موسى الهادي قال أبو العتاهية: لا أقول شعراً بعد أبداً. وقال إبراهيم الموصلي لا أغني بعده أبداً وكان محسناً إليهما فحبسهما الرشيد. وشرب الرشيد مع جعفر وغنت جارية صوتاً ببيت واحد فاستحسناه فقال الرشيد ما أحوجه إلى بيت ثان فأرسل إلى أبي العتاهية فكتب إليه أبو العتاهية:

شـــغل المـــسكين عـــن تلـــك المحـــن

فـــارق الـــروح وأخلـــي مـــن بـــدن

ولقـــد كلفـــت أمـــراً عجبـــاً

أســـال التفـــريج مـــن بيـــت الحـــزن

ثم قال أبو العتاهية لإبراهيم إلى كم هذا تلاح الخلفاء هلم اقل شعراً وتغني فيه فقال أبو العتاهية:

بـــأبي مـــن كـــان فـــي قلبـــي لـــه

مـــرة حـــب قليـــل فـــسرق

يـــا بنـــي العبـــاس فـــيكم ملـــك

شـــعب الإحـــسان منـــه تفتـــرق

إنمـــا هـــارون خيـــر كلـــه

مـــات كـــل الـــشر مـــذ يـــوم خلـــق

فدعا بهما الرشيد فأنشده أبو العتاهية وغناه إبراهيم فأعطى كل واحد مائة ألف درهم ومائة ثوب. وفي لسان الميزان جمع أبو عمر بن عبد البر زهديات أبي العتاهية في مجلد كبير[1].

البهلول

هو أبو وهيب بهلول بن عمر الصيرفي أو الصوفي الكوفي، توفي سنة ١٩٠ وقبره في بغداد.

هكذا ترجم في هامش كتاب عقلاء المجانين المطبوع في مصر ووصف بالصيرفي وفي روضات الجنات: بهلول ابن عمرو الصوفي اسمه وهب (انتهى) وفي مجالس المؤمنين: بهلول بن عمرو هو وهيب بن عمرو (انتهى) وقد يظن أن الصواب الصوفي والصيرفي تصحيف، كما انه قد وقع الاشتباه بين أن يكون اسمه وهيب أو كنيته أبو وهيب، وحكي في مجالس المؤمنين عن تاريخ كزيده- لحمد الله المستوفي- أن أباه عمراً عم الرشيد العباسي وأن بهلولاً كان من أصحاب الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) وأنه كان يستعمل التقية، وإن الرشيد كان يسعى في قتل الإمام الكاظم(عليه السلام) ويحتال في ذلك، فأرسل إلى حملة الفتوى يستفتيهم في إباحة دمه متهماً إياه بإرادة الخروج عليه ومنهم البهلول. فخاف من هذا واستشار الكاظم(عليه السلام) فأمره بإظهار الجنون ليسلم فإن صح هذا فيكون معاصراً للصادق والكاظم(عليهما السلام) ولسنا نعلم مبلغ تاريخ كزيده من الاعتبار، وفي روضات الجنات: يؤيد ذلك ما في كتاب غرائب الأخبار للسيد نعمة الله التستري قال روي أن الرشيد أراد أن يولي رجلاً القضاء فشاور أصحابه فأشاروا ببهلول فاستدعاه وقال له: أعنا على عملنا هذا قال بأي شيء أعينك قال بعمل القضاء قال أنا لا أصلح لذلك قال أطبق أهل بغداد أنك صالح له فقال سبحان الله أنا اعرف بنفسي منهم فإن كنت في إخباري بأني لا أصلح للقضاء صادقاً فهو ما أقول وإن كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح لهذا العمل، فألحوا عليه وشددوا وقالوا: لا ندعك أو تقبل قال إن كان ولابد فأمهلوني الليلة حتى أفكر في أمري، فلما أصبح تجانن وركب قصبة ودخل السوق وكان يقول أفرقوا خلوا الطريق لا يطأكم فرسي فقال الناس جن بهلول فقال هارون ما جن ولكن فر بدينه منا، وبقي على ذلك إلى أن مات (انتهى) وكيف كان الأمر فما يأتي من أخبار البهلول يدل على عقل وافر وأنه ليس فيه شيء من الجنون وأنه كان يظهره لمصلحة من المصالح وأنه كان معاصراً للرشيد. ثم إن صاحب المجالس ذكر نقلاً عن تاريخ كزيده حكايات البهلول مع الإمام أبي حنيفة وإنها كانت في عصر الرشيد مع أن بين وفاة البهلول ووفاة أبي حنيفة نحو أربعين سنة لأن أبا حنيفة توفي سنة ١٥٠ والبهلول سنة ١٩٠ وإدراكه له وإن كان ممكناً إلا أن جعله ذلك في عصر الرشيد يبطل الخبر من أصله لأن ابا حنيفة لم يعاصر الرشيد بل المنصور،

(٣) أنظر أعيان الشيعة – محسن الأمين، م ٥، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٠، ص٢٠٤ وما بعدها.

والبهلول إن كان عاصر الصادق(عليه السلام) فقد عاصر المنصور، ثم إن كونه من بني العباس أيضاً موضع شك لأنه لو كان كذلك لوصف بالهاشمي أ العباسي ولم يقتصر في وصفه على الصيرفي أو الصوفي ويأتي بهلول ابن محمد الكوفي وإن ابن حجر وصفه بالصيرفي فلعل الاشتباه نشأ من هنا وهو غير هذا لاختلاف الأب وعدم الإشارة إلى ما أشتهر به هذا من إظهار الجنون.

وقال في الوفيات: حدث عن إيمان بن وائل وعمرو بن دينار وعاصم بن أبي النجود وكان من عقلاء المجانين وله كلام مليح ونوادر أشعار واستقدمه الرشيد وغيره من الخلفاء ليسمع كلامه، قال الأصمعي: رأيت بهلولاً قائماً ومعه خبيص فقلت له إيش معك؟ فقال خبيص! قلت أطعمني، فقال ليس هو لي، قلت لمن هو؟ قال لحمدونة ابنة الرشيد بعثته لي آكله لها. وقال عبدالله بن عبد: فارقه صديقه فبينما بهلول يمشي في بعض طرقات البصرة إذ رأى صديقه فلما رآه صديقه عدل عنه فقال بهلول:

أدن منـــي ولا تخـــافن غـــدري

ليس يخشى الخليل غدر الخليل

أربـــي الـــذي ينالـــك منـــي

ســـتر مـــا يتقـــي وبـــث الجميـــل

(قال) الفضل بن سليمان: كان بهلول يأتي سليمان بن علي فيضحك منه ساعة ثم ينصرف، فجاءه فضحك منه ساعة ثم قال عندك شيء نأكله؟ فقال لغلامه هات لبهلول خبزاً وزيتوناً، فأكل ثم قام لينصرف وقال لسليمان: يا صاحب إن جئنا إلى بيتكم يوم العيد يكون عندكم لحم؟ فخجل سليمان. وجاء إلى بعض أشراف الكوفة وقال له أشتهي آكل عسلاً بسرقين! فدعا بهما، فأكل من العسل وأمعن فيه، فقال له الرجل لم لا تأكل السرقين كما قلت؟ قال العسل وحده أطيب. وعبث به الصبيان يوماً فنفر منهم والتجأ إلى دار بابها مفتوح فدخلها وصاحب الدار قائم له ضفيرتان فصاح به ما أدخلك داري؟ فقال يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض. وسأله يوماً علي بن الصمد البغدادي: هل قلت شيئاً في ورقة البشرة؟ فقال أكتب:

اضـــمر إن أضـــمر حبـــي لـــه

فيـــشتكي إضـــمار إضـــماري

رق فلـــو مـــرت بـــه ذرة

لخـــضبته بـــدم جـــاري

فقال أريد ارق من هذا! فقال:

اضـــمر إن يأخـــذ المـــرآة لكـــي

يبـــصر وجهـــاً لـــه، فأدناهـــا

فجـــاز وهـــم الـــضمير منـــه إلـــى

وجنتـــه فـــي الهـــوى فأدماهـــا

فقال أريد أرق من هذا أيها الأستاذ! قال نعم وما أظنه أكتب:

شـــبهته قمـــراً إذ مـــر مبتـــسماً

فكـــاد يجرحـــه التـــشبيه أو كلمـــا

ومـــر فـــي خـــاطري تقبيـــل وجنتـــه

فـــسيلت فكرتـــي فـــي وجنتيـــه دمـــاً

فقال أريد أرق من هذا! فقال: ابن الفاعلة ارق من هذا كيف يكون؟ رويدك لأنظر إن كان طبخ في المنزل حريرة أرق من هذا (انتهى).

تشيعه :

عن محاضرات الراغب أنه قال: كان بهلول يتشيع فقال له إسحاق الكندي: أكثر الله في الشيعة مثلك، فقال بل أكثر الله في المرجئة مثلي وفي الشيعة (انتهى) وأخباره الآتية تدل على انه كان من أهل الموالاة والتشيع لأهل البيت(عليهم السلام) عن بصيرة نافذة. ومرّ قول المستوفي أنه كان من أصحاب الإمامين الصادق وابنه الكاظم(عليهما السلام) وإن إظهاره الجنون كان بأمر الكاظم(عليه السلام) وقاية لنفسه. وقال صاحب مجالس المؤمنين: روي أن البهلول جاء يوماً إلى باب بعض أئمة المذاهب فسمعه يقول لتلامذته أن أشياء يقولها جعفر بن محمد الصادق لا تعجبني، يقول إن الشيطان يعذب بالنار وكيف يعذب بالنار وهو مخلوق من نار ويقول الله تعالى لا يمكن أن يرى مع أنه موجود وكل موجود يمكن رؤيته ويقول أن العبد هو الفاعل لأفعاله مع أن الله تعالى هو خالق كل شيء. فأخذ بهلول مدرة وضربه بها فشجه وهرب فتبعوه وقبضوا عليه ورفعوا أمره إلى الخليفة فقال بهلول إنه يقول أن إبليس مخلوق من النار فلا يمكن أن تؤثر فيه وهو مخلوق من التراب فكيف أثر فيه؟ ويقول أن كل موجود يرى فليرني الألم الذي برأسه ويقول إن الله هو الفاعل لأفعال العبا فإذن الله هو الذي ضربه لا أنا. ثم حكى صاحب المجالس عن الشيخ الأجل المتكلم محمد بن جرير بن رستم الطبري أنه روي في كتاب الإيضاح أن البهلول كان ماراً في بعض أزقة البصرة فرأى جماعة يسرعون في المشي أمامه فقال لرجل منهم: هؤلاء البهائم الشاردون بلا راع إلى أين يذهبون؟ فقال له ذلك الرجل من باب المزاح: يطلبون الماء

والكلأ فقال له البهلول: كيف ذلك مع قلة الحمى والمنع الشديد والله لقد كان العلف كثيراً رخيصاً ولكنهم أحرقوه بالنار ثم أنشد هذه الأبيات:

برئت إلى الله من ظالم
لسبط النبي أبي القاسم
ودنت الهي بحب الوصي
وحب النبي أبي فاطم[1]
وذلك حرز من النائبات
ومن كل متهم غاشم
بهم أرتجي الفوز يوم المعاد
وأنجو غداً من لظى ضارم[2]

فلما سمعوا كلامه رجعوا إليه وقالوا له: إنهم ذاهبون إلى مجلس والي البصرة محمد بن سليمان ابن عم الرشيد، فقال لأي شيء تذهبون إليه؟ فقالوا إن عمر بن عطاء العدوي من أولاد عمر بن الخطاب ومن علماء الزمان حضر مجلسه ونريد تحقيق حاله ومعرفة مبلغ فضله وكماله وإن كنت تذهب معه لتناظره كان ذلك حسناً، فقال لهم بهلول: ويلكم مجادلة العاصي توجب زيادة جرأته على الصعيدان ويمكن أن توقع أصحاب البصيرة في الشبهة ولاشك في وجود الله تعالى ولا شبهة في الحق ولا التباس فإذا كنتم من أهل المعرفة تقنعون بما أخذتم من أهل العرفان فلما يئسوا منه ذهبوا إلى مجلس محمد بن سليمان وحكوا له ما جرى لهم مع البهلول فأمر غلمانه بإحضاره فأحضروه فما وصل إلى قرب دار محمد بن سليمان قام عمرو بن عطاء العدوي واستأذن محمد بن سليمان في مناظرة بهلول فأذن له ولما وصل بهلول إلى الدار قال: السلام على من اتبع الهدى وتجنب الضلالة والغوى، فقال عمرو بن عطاء السلام على المسلمين إجلس يا بهلول فقال بهلول: أتأمرني بشيء لا مدخل لك فيه وتتقدم فيه على رجل فضله عليك ظاهر، ومثلك أن يمتن على الناس ويعطيهم من هذا الخوان، فبقي عمرو بن عطاء مبهوتاً لا يحير جواباً، فحينئذ قال محمد بن سليمان لعمر بن عطاء كنت تريد أن تناظره، وهو في حديث الورود جعلك ساكناً مبهوتاً، فقال بهلول: أيها الأمير هذا الأمر ليس صعباً عند الله تعالى أما قرأت قوله تعالى: ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾. ثم قال محمد بن سليمان للبهلول: المجلس مجلسي وقد أذنت لك في الجلوس. فدعا له بهلول فقال: عمر الله مجلسك وأسبغ نعمه عليك وأوضح برهان الحق لديك وأراك الحق حقاً وأعانك على إتباعه واراك الباطل باطلاً وأعانك على اجتنابه، فقال عمرو بن عطاء: يا بهلول التزم طريق الحق وابتعد عن الهزل وتكلم كلاماً حسناً فقال بهلول: ويلك هل يوجد كلام أحسن من هذا الكلام الإلهي وهل يوجد كلام جدي غيره، في عيب نفسك،فقال عمرو بن عطاء: يا بهلول أنت ترى نفسك من مشهوري زمانك وتدعي الاطلاع على المعارف فأريد إما أن تسألني أو أسألك، فقال بهلول: لا أحب أن أكون سائلاً ولا مسؤولاً فقال العدوي لماذا؟ قال لأني إذا سألتك عن شيء لا تعلمه لا تقدر أن تجيبني عنه، وإذا سألتني تسألني بطريق أهل التعنت والعناد فيختلط الحق بالباطل، والذين هم كذلك نهى الله تعالى عن مجالستهم بقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾. فقال العدوي: إن كنت من أهل الإيمان فقل لي ما هو الإيمان، فقال بهلول: قال مولاي جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام): الإيمان عقد بالقلب وقول باللسان وعمل الجوارح والأركان، فقال العدوي: تقول أن إمامك الصادق فيظهر من هذا أنه في زمانه لم يكن صادق غيره؟ فقال بهلول: هو كذلك ومع ذلك فهذا يجري عليك فإن جدك سمي أبا بكر الصدّيق، فهل في زمانه لم يكن صدّيق غيره، فقال العدوي: بلى لم يكن غيره، فقال بهلول: كلامك هذا رد على الكتاب والسنة، أما الكتاب: فلأن الله تعالى جعل من آمن بالله ورسوله صديقاً فقال: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ**﴾، أما السنة فلأن الرسول(صلى الله عليه وآله) قال لبعض أصحابه: إذ فعلت الخير كنت صديقاً، فقال العدوي: إن أبا بكر سمي صديقاً لأنه أول رجل صدق الرسول(صلى الله عليه وآله). فقال بهلول: مع أن الأولية ممنوعة تخصيصه بذلك خطأ في اللغة ورد على الآية المذكورة، فترك العدوي هذه الجهة وجعل ينتقل معه من غصن إلى غصن إلى أن قال لبهلول: من إمامك؟ قال إمامي من أوجب الرسول له على الخلق الولاء وتكاملت فيه الخيرات وتنزه عن الأخلاق الدنيات، ذلك إمامي وإمام البريات، فقال له العدوي: ويلك إذا لا ترى أن إمامك هارون الرشيد، فقال البهلول: أنت لأي شيء ترى أن أمير المؤمنين خال من هذه الصفات والمحامد والله إني لا أظن إلا أنك عدو لأمير المؤمنين مخالف له في الباطن وتظهر الاعتقاد بخلافته وأقسم بالله لو بلغه هذا الخبر لأدبك تأديباً بليغاً، فضحك عند ذلك محمد بن سليمان وقال لعمرو بن عطاء: والله لقد ضيعك بهلول وجعلك لا شيء وأوقعك في الورطة التي أردت أن توقعه فيها وما أحسن بالإنسان أن يبتعد عما لا يحسنه وما أقبح به أن يدخل في شيء يعلم أنه ليس من أهله، ثم أمر بعض غلمانه

(١) إمام الورى من بني هاشم خ ل.
(٢) وآمن من نقمة الحاكم خ ل.

فأخذ بيد عمرو ابن عطاء وأخرجه من المجلس وقال لبهلول: ما الفضل إلا فيك وما العقل إلا عندك والمجنون من سماك مجنوناً، يا بهلول أخبرني أيهما أفضل علي بن أبي طالب أو أبو بكر، فقال بهلول أصلح الله الأمير: إن علياً من النبي(ﷺ) كالصنو من الصنو والعضد من الذراع، وأبو بكر ليس منه ولا يوازيه في فضله إلا مثله ولكل فاضل فضله، ثم قال محمد بن سليمان لبهلول: أخبرني أولاد علي أحق بالخلافة أو أولاد العباس فرأى بهلول أن المقام حرج فسكت خوفاً من محمد، فقال له محمد: لم لا تتكلم؟ فقال بهلول: أين للمجانين قوة تمييز وتحقيق هذه الأمور، دع عنك ذكر ما مضى وأصلح ما نحن فيه الآن فإنني جائع، قال محمد بن سليمان: ما تشتهي؟ قال ما يسد باب الجوع، فأمر محمد أن يحضروا له عدة ألوان من الطعام مع شيء من الخبز، فأحضروا ذلك فقال: كل فقال بهلول: أصلح الله الأمير ما طاب طعام المخشى ولا المغشى – يعني لا ينبغي الأكل في الظلمة ولا بين جماعة- فائذن لي أن آخذ هذا الطعام وأخرج إلى خارج المجلس، فأذن له، فألقى تلك الأطعمة على الأرض وفر هارباً وهو يقول هذه الأبيات:

إن كنت تهواهم حقاً بلا كذب

فالزم جنونك في جد وفي لعب

إياك من أن يقولوا عاقل فطن

فتبلى بطويل الكد والنصب

مولاك يعلم ما تطويه من خلق

فما يضرّك أن سبوك بالكذب

فاجتمع الأطفال الذين كانوا حوله وأخذوا ذلك الطعام وهرب منهم ودخل مسجداً كان قريباً من ذلك المكان وأغلق بابه ووقف خلف الباب وجعل يقرأ هذه الآية: ﴿**فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾. فلما رأى محمد بن سليمان ما جرى لبهلول مع الأطفال ضحك وأمر بطرد الأطفال وقال لا إله إلا الله لقد رزق علي بن أبي طالب لبَّ كل ذي لبٍّ. ونقل أن جماعة من الظرفاء يعرفون عقيدة بهلول، قالوا له: ورد في الأخبار أنه لو وزن إيمان الشيخين بإيمان جميع الأمة لرجح أيمانهما على أيمان جميع الأمة، فقال بهلول على البديهية: إن كان هذا الخبر صحيحاً فلابد أن يكون الميزان غير مضبوط وذكروا أن بهلولاً حضر مجلس جماعة يتذاكرون الحديث فرووا في أثناء ذلك عن أم المؤمنين أنها قالت: لو أدركت ليلة القدر ما سألت ربي إلا العفو والعافية، فقال بهلول: تركتم نصف الدعاء، قالوا وما هو؟ فقال: والظفر بعلي بن أبي طالب.

أخباره :

في الروضات: حكي أن الوزير قال له يوماً: يا بهلول طب نفساً فإن الخليفة ولاك على الخنازير والذئاب، فقال إذا عرفت ذلك فالزم نفسك كي لا تخرج عن طاعتي وولايتي، فضحك الحاضرون وخجل الوزير، وقيل له يوماً وهو في البصرة عدَّ لنا مجانين البلد فقال كيف وهم لا يحصون فإن شئتم أعد لكم العقلاء (انتهى).

وسئل بهلول عن رجل مات وخلف أما وابنا وابنة وزوجة ولم يخلف مالاً فقال لأمه الثكل ولابنه وابنته اليتم وللزوجة خراب البيت وما بقي من الهم فللعصبة، وفي كتاب عقلاء المجانين[1] تأليف الحسين ابن محمد النيسابوري صاحب التفسير المشهور قال الحسن ابن سهل بن منصور: سمعت بهلولاً وقد رماه الصبيان بالحصى وقد أمته حصاه فقال:

حسبي الله توكلت عليه

ونواصي الخلق طراً بيديه

ليس للهارب في مهربه

أبداً من روحه إلا إليه

رب رام لي بأحجار الأذى

لم أجد بداً من العطف عليه

فقلت له تعطف عليهم وهم يرمونك، قال اسكت لعل الله سبحانه وتعالى يطلع على غمي ووجعي وشدة فرح هؤلاء فيهب بعضنا لبعض، وفيه قال عمر بن جابر الكوفي: مر بهلول بصبيان كتاب فجعلوا يضربونه فدنوت منه فقلت لم لا تشكوهم لآبائهم؟ فقال لي اسكت فلعل إذا مت يذكرون هذا الفرح فيقولون رحم الله ذلك المجنون! وفيه قال علي السيرافي: حمل الصبيان يوماً على بهلول، فانهزم منهم فدخل دار بعض القرشيين ورد الباب، فخرج صاحب الدار فأحضر له طبقاً فيه طعام فجعل يأكل ويقول " فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ".

وفيه قال بعض أهل الكوفة ولد لبعض أمراء الكوفة ابنة فساءه ذلك فاحتجب وامتنع من الطعام والشراب فأتى بهلول حاجبه فقال ائذن لي على الأمير هذا وقت دخولي عليه، فلما وقف بين يديه قال: أيها الأمير ما هذا الحزن أجزعت لذات سوى هيأته رب العالمين، أيسرك أنّ لك مكانها ابناً مثلي؟ فقال ويحك فرجت عني فدعا بالطعام وأذن للناس.

---

(١) لو صنف رجل كتاباً وسماه مجانين العقلاء وهم من عند الناس أنهم عقلاء وأفعالهم أفعال مجانين وهم من يقول المؤرخون عنهم كان فلان يضعف لوجد من هذا النوع شيئاً كثيراً.

وعن محاضرات الراغب: كتب بهلول يوماً إلى عيناوة: كتابي إليك ليلة الميلاد لثلاث ساعات من النهار ودجلة تطفح بالماء والموصل ها هنا والحجارة لا تزداد إلا كثرة والصبيان بترهم الله لا يزدادون إلا خبثاً ولعنة فإن قدرت أن لا تبيت إلا وحولك حجارة فافعل واستعمل قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

قال وعدا يوماً بين أيدي الصبيان فدخل داراً وصعد سطحها واطلع عليهم وقال يا بني الفجار من أين بلاني الله بكم؟! فقال له رجل: ويلك تناول الحجارة وأرجمهم بها وفرقهم عنك، فقال يا مجنون أنا إن فعلت شيئاً من هذا رجعوا إلى التيوس آبائهم فقالوا لهم هذا المجنون بدأ يحرك يديه فيجب أن يغل ويقيد فإن في ذلك أجراً عظيماً فلا يكفيني ما ألقاه منهم حتى أغل وأقيد. (انتهى).

وفي كتاب عقلاء المجانين: قال محمد بن عبدالله بينما أنا في مسجد الكوفة يوم الجمعة والخطيب يخطب إذ قام رجل به لمم وجنون فقال أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً فقام بهلول وقال: ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً (انتهى).

وحكي أن بعض الخلفاء قال لبهلول أتريد أن أحيل أمر معاشك إلى الخزانة حتى لا تكون في تعب منه طول حياتك، فقال أرضى به ما إن خلا من معايب أولها: إنك لا تدري إلى ما احتاج حتى تهيأه لي، ثانيهما: إنك لا تدري إلى ما احتاج حتى لا تتجاوزه، ثالثها: إنك لا تدري مقدار حاجتي حتى لا تزيد عنه ولا تنقص فتبتليني، والله الذي ضمن رزقي يدري جميع هذه الثلاثة مني، مع أنك ربما غضبت علي فحرمتني والله سبحانه وتعالى لا يمنعني فضله ورزقه وإن كنت عاصياً له بجميع أعضائي وجوارحي (انتهى).

خبره مع موسى الهادي :

عن محاضرات الراغب: أُحضر بهلول وعيناوة عند موسى الهادي فقال موسى لم سميت بهلولاً؟ فقال أنت لم سُميت موسى؟ فقال يا ابن الفاعلة؟ فالتفت بهلول إلى عيناوة وقال كنا اثنين فصرنا ثلاثة، ثم قال موسى لعيناوة، ما هذا الستر؟ قال: أرمني. قال: وهذا؟ قال: طبري. فصفعه بهلول وقال: اسكت فإن الساعة يقول هم أصحاب أنماط لا مجانين فضحك موسى حتى استلقى.

أخباره مع الرشيد :

في كتاب عقلاء المجانين عن علي بن ربيعة الكندي، قال خرج الرشيد إلى الحج فلما كان بظاهر الكوفة أبصر بهلولاً على قصبة وخلفه الصبيان وهو يعدو فقال من هذا؟

قالوا: بهلول المجنون. قال: كنت أشتهي أن أراه فادعوه من غير ترويع فقالوا أجب أمير المؤمنين فعدا على قصبته فقال الرشيد السلام عليك يا بهلول فقال عليكم السلام يا أمير المؤمنين فقال كنت إليك مشتاقاً قال لكني لم أشتق إليك فقال عظني قال وبم أعظك؟ هذه قصورهم وهذه قبورهم. فقال زدني فقد أحسنت! فقال: من أعطاه الله مالاً وجمالاً فعف في جماله وواسى في ماله كتب في ديوان الأبرار. فظن الرشيد أنه يريد منه شيئاً فقال: أمرنا بقضاء دينك، فقال بهلول: لا، إنه لا يقضي دين بدين، أردد الحق على أهله واقض دين نفسك فقال قد أمرنا أن يجري عليك قال أترى الله يعطيك وينساني ثم ولى هارباً. قال: وروي بإسناد آخر أنه قال للرشيد يا أمير المؤمنين فكيف لو أقامك الله بين يديه فسألك عن النقير والفتيل والقطمير، قال فخنقته العبرة فقال الحاجب حسبك يا بهلول قد أوجعت أمير المؤمنين، فقال الرشيد أريد أن أصلك بصلة فقال بهلول ردها على من أخذت منه فقال الرشيد فحاجة، قال أن لا تراني ولا أراك، ثم قال يا أمير المؤمنين حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله الكلابي قال رأيت رسول الله(ﷺ) يرمي جمرة العقبة على ناقة له صهباء لا ضرب ولا طرد، ثم ولى بقصبته وأنشأ يقول:

هب أنك قد ملكت الأرض طراً
ودان لك العباد فكان ماذا
ألست تموت في قبر ويحوي
ثراءَك بعد هذا ثم هذا

وأورده في المجالس نحوه وفي آخره، فقال له الرشيد أطلب مني فقال بهلول حاجتي أن لا تراني ولا أراك بعد هذا وحرك قصبته ومشى وقال ابتعد لا يرمحك الفرس (انتهى). وفي كشكول البهائي: لما وصل الرشيد الكوفة قاصداً الحج خرج أهل الكوفة للنظر إليه وهو في هودج عال، فناداه البهلول. يا هارون، يا هارون، فقال من المجتري علينا؟ فقيل هو البهلول. فرفع السجف فقال البهلول: يا أمير المؤمنين: روينا بالإسناد عن قدامة بن عبد الله العامري قال: رأيت رسول الله(ﷺ) يرمي جمرة العقبة لا ضرب ولا طرد ولا قال إليك إليك، وتواضعك يا أمير المؤمنين في سفرك هذا خير من تكبرك. فبكى الرشيد حتى جرت دموعه على الأرض وقال أحسنت يا بهلول زدنا، فقال: أيما رجل أتاه الله مالاً وجمالاً وسلطاناً فأنفق ماله وعف جماله وعدل في سلطانه كتب في ديوان الله من الأبرار، فقال له الرشيد أحسنت وأمر له بجائزة فقال لا حاجة لي فيها ردها إلى من أخذتها منه، قال فنجري عليك رزقاً يقوم بك، فرفع البهلول طرفه إلى السماء وقال: يا أمير المؤمنين أنا وأنت عيال الله فمحال أن يذكرك وينساني (انتهى).

وذكر صاحب الروضات ذلك الخبر بما فيه زيادة وبعض تغيير، فأوردناه وإن لزم التكرير، قال حكي عن الفضل بن الربيع قال: حججت مع هارون الرشيد فلما صرنا بالكوفة وكنا في طاق المحامل إذا نحن ببهلول قاعداً يلعب بالتراب فابتدر إليه الخدم فطردوه فأسرعت إليه وقلت هذا أمير المؤمنين حدثني أيمن بن نايل قال حدثني قدامة بن عبد الله قال رأيت النبي(ﷺ) بمنى على جمل أحمر تحته رحل رث ولم يكن ضرب ولا طرد. فقلت يا أمير المؤمنين إنه بهلول المجنون قال قد عرفت، قال: قل وأوجز فقال:

هب إنك قد ملكت الأرض طراً
ودان لك العباد فكان ماذا
ألست تصير في قبر ويحثو
عليك ترابه هذا وهذا

فقال: أجدت، قال: وأوجز قال: يا أمير المؤمنين من رزقه الله مالاً وجمالاً فعف جماله وواسى من مال كتب عند الله في ديوان الأبرار فظن هارون أن عليه ديناً فقال، قد يقضي عندك دينك، قال لا تفعل يا أمير المؤمنين لا يقضي دين بدين أردد الحق إلى أهله فجميع ما في يديك دين عليك، فقال قد أمرنا أن يجري عليك نفقة، قال لا تفعل أتراه أجرى عليك ونسيني، ثم ولى وأنشأ يقول:

توكلت على الله
وما أرجو سوى الله
وما الرزق من الناس
بل الرزق من الله

وفي كتاب عقلاء المجانين عن بعض الكوفيين قال: حج الرشيد فذكر بهلولاً حين دخل الكوفة فأمر بإحضاره فقال ألبسوه سواداً وضعوا على رأسه قلنسوه طويلة وأوقفوه في مكان كذا ففعلوا به ذلك. وقالوا أذا جاء أمير المؤمنين فادع له، فلما حاذاه الرشيد رفع رأسه إليه وقال يا أمير المؤمنين اسأل الله أن يرزقك ويوسع عليك من فضله، فضحك الرشيد وقال آمين، فلما جاوزه الرشيد دفعه صاحب الكوفة في قفاه وقال أهكذا تدعو لأمير المؤمنين يا مجنون، قال بهلول اسكت ويلك يا مجنون فما في الدنيا أحب إلى أمير المؤمنين من الدراهم، فبلغ ذلك الرشيد فضحك. وقال بهلول بهارون الرشيد وقد بنى قصراً جديداً فقال لبهلول: أكتب شيئاً على هذا القصر فأخذ بهلول قطعة من الفحم كتب. رفعت الطين ووضعت الدين ورفعت الجص ووضعت النص، فإن كان من مال غيرك فقد ظلمت والله لا يحب الظالمين (انتهى) وفي الكشكول: دخل بهلول وعليان المجنون على الرشيد فكلمهما فأغلظا له في الجواب فأمر بنطع وسيف فقال عليان كنا مجنونين، في البلد فصرنا الآن ثلاثة.

ما أثر عنه من المواعظ والحكم زيادة على ما مر :

في كتاب عقلاء المجانين قال عبد الرحمن الكوفي: لقيني بهلول المجنون فقال لي أسألك قلت أسأل، قال أي شيء السخاء؟ قلت البذل والعطاء، قال هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين؟ قلت المسارعة إلى طاعة الله، قال أفيريدون منه الجزاء؟ قلت نعم بالواحد عشرة، قال ليس هذا سخاء هذه متاجرة ومرابحة، قلت فما هو عندك؟ قال لا يطلع على قلبك وأنت تريد منه شيئاً بشيء، وفيه قال عباس البناء: نظر بهلول إلي وأنا أبني داراً لبعض أبناء الدنيا، فقال لي لمن هذه الدار؟ فقلت لرجل من نبلاء الكوفة، فقال أرنيه فأريته إياه فناداه يا هذا لقد تعجلت الحماية قبل العناية اسمع إلى صفة دار كونها العزيز أساسها المسك وبلاطها العنبر اشتراها عبد قد أزعج للرحيل كتب على نفسه كتاباً وأشهد على ضمائره شهوداً، هذا ما اشترى العبد الجافي من الرب الوافي اشترى منه هذه الدار بالخروج من ذل الطمع إلى عز الورع فما أدرك المستحق فيما اشتراه من درك فعلى المولى خلاص ذلك وإقبال الآخرة أحد حدودها ينتهي إلى ميادين الصفا والحد الثاني ينتهي إلى ترك الجفا والحد الثالث ينتهي إلى لزوم الوفا والحد الرابع ينتهي إلى سكون الرضا في جوار من على العرش استوى، لها شارع ينتهي إلى دار السلام وخيام قد ملئت بالخدام، وانتقال الأسقام وزوال الضر والآلام، يا لها من دار لا ينقضي نعيمها ولا يبيد. دار أسست من الدر والياقوت شرف تلك الخدور وجعل بلاطها من البهاء والنور. قال فترك الرجل قصره وهام على وجهه وأنشأ بهلول يصيح خلفه ويقول:

يا ذا الذي طلب الجنان لنفسه
لا تهربن فإنه يعطيكا

(أقول) أين هذا إن صح من الكتاب الذي كتبه أمير المؤمنين(عليه السلام) لمن اشترى داراً وهو موجود في نهج البلاغة، وفيه قال الحسين الصقلي نظرت وقد زار سعدون بهلولاً ورأيتهما فسمعت سعدون يقول لبهلول أوصني وإلا أوصيك فناداه بهلول أوصني يا أخي فقال سعدون أوصيك بحفظ نفسك ومكنها من حبك فإن هذه الدنيا ليست لك بدار، قال بهلول أنا أوصيك يا أخي فقال قل، فقال: اجعل جوارحك مطيتك واحمل عليها زاد معرفتك واسلك بها طريق مبغاك فإن ذكرتك ثقل الحمل فذكرها عاقبة البلوغ. فلم يزالا يبكيان جميعاً حتى خشيت عليهما الفناء. وفيه قال محمد بن إسماعيل بن أبي فديك رأيت بهلولاً في بعض المقابر وقد دلى رجليه في قبر

وهو يلعب بالتراب فقلت ما تصنع ها هنا فقال أجالس أقواماً لا يؤذونني وإن غبت عنهم لا يغتابونني فقلت قد غلا السعر فهلا تدعو الله فيكشف فقال والله لا أبالي ولو حبة بدينار أن الله تعالى أخذ علينا أن نعبده كما أمرنا عليه أن يرزقنا كما وعدنا ثم صفق بيديه وأنشأ يقول:

يا من تمتع بالدنيا وزينتها
ولا تنام عن اللّذات عيناه
شغلت نفسك فيما لست تدركه
تقول لله ماذا حين تلقاه

وفي الروضات عن الفضيل قال: دخلت الكوفة وأنا أريد الحج إلى بيت الله الحرام وإذا بهلول جالس بين قبرين قديمين، فقلت له يا بهلول ما جلوسك ها هنا؟ قال يا فضيل أما ترى هذه الأعين السائلة والمحاسن البالية والشعور المتمعطة والجلود المتمزقة والجماجم الخاوية والعظام النخرة لا يتقاربون بالأنساب ولا يتواصلون تواصل الأحباب وكيف يتواصل من قد طحنتهم كلاكل البلى وأكلت لحومهم الجنادل في الثرى وخلت منهم المنازل والقرى، قد صارت الوجوه عابسة بعد نضرتها والعظام نخرة بعد قوتها تجر عليهم الرياح ذيولها وتصب عليهم السماء سيولها ثم بكى وجعل يقول:

تناديك أحداث وهن صموت
وأربابها تحت التراب خفوت
فيا جامع الدنيا حريصاً لغيره
لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

قال الفضيل: وإذا بهاتف وهو يقول:

مل الأحبة زورتي فجفيت
وسكنت في دال البلى ونسيت
وكذاك ينسى كل من سكن الثرى
وتملّه الزوار حين يموت

قال الفضيل: فوقع بهلول مغشياً عليه فتركته وانصرفت.

وفي كتاب عقلاء المجانين عن عبد الرحمن الأسلمي قال قال أبي البهلول أي شيء أولى بك؟ قال العمل الصالح. (وفيه) عن علي بن الحسين قال. لما مات أبو بهلول خلف ستمائة درهم، فأخذها القاضي وحجز عليها، فأتاه بهلول فقال أصلح الله القاضي أو تزعم أني مصاب في عقلي فأنا جائع فادع لي بمائتي ردهم حتى أنفذها، ثم جاء إلى القاضي وهو في مجلس الحكم فقال يا بهلول ما صنعت؟ فقال اعز الله القاضي أنفقتها فإن رأى القاضي أن يزن من ماله مائتي درهم ويردها إلى الكيس حتى يرجع الكيس إلى ما كان، قال القاضي فتجحد لي ما أخذت؟ قال كلاً ولكني أقمت عندك شاهدين بأني موضع لها، قال صدقت،ودعا بمائتي درهم وردها إلى الكيس (انتهى).

وعن محاضرات الراغب مثله (أقول) أظن هذه الحكاية موضوعة على لسانه فإن من يمتنع من جائزة الرشيد ويكون بهذا الزهد لا يحتال على القاضي بأخذ المال ولكن الناس تضع على كل أحد ما يناسب حاله كما وضعوا على جحا كل ما فيه سخف، وأظن أن من هذا القبيل ما رأيته في بعض المواضع من أن البهلول مر بقوم عشرة في أصل شجرة فقالوا تصعد هذه الشجرة وتأخذ عشرة دراهم قال نعم فأعطوه إياها فجعلها في كمه ثم قال هاتوا سلماً، فقالوا لم يكن هذا في الشرط فقال: كان في شرطي دون شرطكم، فإذا كانت صفاته ما مر كيف يحتال لأخذ المال.

كتبه إلى الخلفاء والقضاة والأمراء :

ذكر صاحب كتاب عقلاء المجانين إنه كتب إلى الواثق وابن أبي داود والخلعي صاحب شرطة بغداد وفي هذه الكتب إنكار خلق القرآن وذم معتقده، وفي كتابه للواثق: من الخائف الذليل إلى المخالف لكلام ربه تعالى، وفي كلامه لابن أبي داود: من الصادق المتواضع إلى الكاذب المتكبر، وأنا أظن أن هذه الكتب موضوعة عليه، أولاً: لأن الواثق بويع بالخلافة سنة ٢٢٧ وتوفي سنة ٢٣٢ وبهلول توفي سنة ١٩٠ وكان في عصر الرشيد كما مر، ثانياً: أنه لم يكن ليكتب إلى الواثق – وهو الخليفة – بأنه مخالف لكلام ربه تعالى وقد مر توقيه من الكلام على التفضيل بين العلويين والعباسيين ولم يكن ليكتب إلى القاضي ابن أبي داود ويصفه بالكاذب المتجبر وهو قاضي قضاة الواثق، وكذلك ما حكاه في الكتاب المذكور عن صباح الوزان الكوفي أنه قال: لقيت بهلول يوماً فقال لي: أنت الذي يزعم أهل الكوفة أنك تقول في الشيخين؟ فقلت معاذ الله أن أكون من الجاهلين الخ.. والله أعلم.

ما قاله بهلول من الشعر أو أنشده زيادة على ما مر :

في كتاب عقلاء المجانين لبهلول في الترقيق:

أضمر من أضمر حبي له
فيشتكي أضمار أضمار
رق فلو مرت به ذرة
لخضبته بدم جاري

وله أيضاً في أرق منه:

أضمر أن يأخذ المرآة لكي
ينظر تمثاله فأدناها
فجاء وهم الضمير منه إلى
وجنته في الهوى فأدماها

وله أيضاً:

شبهته قمراً إذ مر مبتسماً
فكان يجرحه التشبيه أو كلما
ومر في خاطري تقبيل وجنته
فسيلت فكري من عارضيه دما

وله:

إذا خان الأمير وكاتباه
وقاضي الأرض داهن في القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل
لأهل الأرض من أهل السماء

وفيه قال عبد الواحد بن زيد: مر بهلول برجل قد وقف على جدار رجل يكلم امرأة فأنشأ يقول:

كن حبيباً إذا خلوت بذنب
دون ذي العرش من حكيم مجيد
أتهاونت بالإله بديا
وتواريت عن عيون العبيد
أقرأت القرآن أم لست تدري
إن ذا العرش دون حبل الوريد

ثم ولى وهو يقول من نوقش في الحساب غفر له، فقلت له من نوقش في الحساب عذب، فقال اسكت يا بطال إن الكريم إذا قدر غفر، وفيه قال عبد الخالق سمعت أبي يقول: سمعت بهلولاً يقول من كانت الآخرة أكبر همه أتته الدنيا وهي راغمة، ثم أنشأ يقول:

يا خاطب الدنيا إلى نفسه
تنح عن خطبتها تسلم
إن التي تخطب غدارة
قريبة العرس من المأتم

قال لبهلول:

حقيق بالتواضع من يموت
وحسب المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا اهتمام
وشغل لا تقوم له النعوت
صنيع ملكينا حسن جميل
وما أرزاقنا مما يفوت
فيا هذا سترحل عن قريب
إلى قوم كلامهم السكوت

وفيه قال علي بن خالد: بتُّ ليلة على سور طرطوس فمر بهلول فلكزني برجله ثم أنشأ يقول:

يا طالب الحور ألا تستحي
بحملك النور على السور
وخاطب الحور طويل البكا
مقيد الأعضاء محصور
لا يطعم الغمض وما إن له
راحة جسم أو يرى الحور
في جنة زخرفها ذو العلى
ينعم فيها كل محبور

قال فانتبهت فزعاً ولم أنم بعد ذلك في الحرس، وفيه: قال محمد بن خالد الواسطي أنشدني بهلول يقول:

دع الحرص على الدنيا
وفي العيش فلا تطمع
ولا تجمع من المال
فما تدري لمن تجمع
فإن الرزق مقسوم
وسوء الظن لا يقنع
فقير كل ذي حرص
غني كل من يقنع

وفيه قال كثير بن روح رأيت بهلولاً ذات يوم يتمثل وهو يقول هذه الأبيات:

يا طالب الرزق في الآفاق مجتهدا
أتعبت نفسك حتى شفك الطلب
تسعى لرزق كفاك الله بغيته
اقعد فرزقك قد يأتي به السبب
كم من دنيء ضعيف العقل تعرفه
له الولاية والأرزاق والذهب

ومـــن حـــسيب لـــه عقـــل يزينـــه
بـادي الخـصاصة لا يـدري لـه سـبب
فاســـترزق الله ممـــا فـــي خزائنـــه
فـــالله يـــرزق لا عقـــل ولا حـــسب[1]

ثعـــــلب (*)

هو أبو العباس أحمد بن يحيى بـن زيـد سـيار الـشيباني، ويعرف بثعلب.

ولقد كان هؤلاء لمعن بن زائدة الشيباني[2]، من أجـل هـذا عرف بالشيباني، فهو ليس من شيبان وإنما نـسبته إلـيهم لهـذا الولاء لمعن بن زائدة.

وشيبان: حي من بكر بن وائل، وهما شيبانان:

١- شيبان بن ثعلبة بن عكابه.

٢- وشيبان ين ذهل بن ثعلبة بن عكابة.

وشيبان الأعلى عم شيبان الأسفل، ومعن الذي ولاء ثعلب إليه من شيبان الأسفل.

المعروف بهذا اللقب (ثعلب) رجـلان نحويـان، وهمـا أبـو العباس هذا وهو المشهور بهذا اللقب، وثانيهما محمـد بـن عبـد الرحمن المصري[3].

وكان أبو العباس ثعلب امام الكوفيين في النحو واللغة.

ويحدث المرزباني عن احمد بن محمـد العروضـي يقـول: انما فضل أبو العباس ثعلب أهل عـصره بـالحفظ للعلـوم التـي تضيق عنها الصدور، وكان أبو سعيد الـسكري[4] كثيـر الكتـب جداً، فكتب بيده ما لم يكتبه احـد، فكانـا فـي الطـرفين، لأن أبـا سعيد كان غير مفارق للكتاب عند ملاقاة الرجال، وأبو العبـاس لا يمس بيده كتاباً اتكالاً على حفظه وثقة بصفاء ذهنه.

ومما يعزى إلى أبي العباس ثعلب أنه كـان يقـول: ابتـدأت النظر في العربية – النحو – والشعر واللغة وسني ست عـشرة سنة.

ومما يعزى إليه أيضاً قوله: حذقت العربية وحفظـت كتـب الفراء كلها حتى لم يشذ عني حرف منها ولى خمس وعـشرون سنة، وكنت أعنى بالنحو أكثر مـن عنـايتي بغيـره، فلمـا أتقنتـه أكببت على الشعر والمعاني والغريـب ولزمـت أبـا عبـدالله ابـن الاعرابي[5] بضع عشرة سنة.

ثم يقول: وأذكر يوماً وقد صار إلى أحمـد بـن سـعيد بـن سلم[6] وأنا عنده، وجماعة منهم أبو الأعرابي، فأقاموا وتـذكروا شعر الشماخ[7]، وأخذوا في البحث عن معايبـه والمـسألة عنـه، فجعلت أجيب ولا أتوقف، وابـن الإعرابـي يـسمع، فالتفـت إلـى أحمد بن سعيد بن سلم يعجبه منى.

ويقول أبـو العبـاس ثعلـب: كنـت أصـير إلـى الرياشـي[8] لأسمع منه، وكان نقي العلم، فقال لي يوماً، وقد قرئ عليه:

مـــا تـــنقم الحـــرب العـــوان منـــي
بـــازل عـــامين حـــديث ســـنّي
لمثـــل هـــذا ولدتنـــي أمـــي

كيف تقول: بازل – بالنصب- أو- بـازل- بـالرفع؟ فقلـت: أتقول لي هذا في العربية!!، إنما أقصدك لغير هذا، يروي بازل-

(١) أنظر: أعيان الشيعة، محسن الأمين، م ٥، دار التعاريف للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٠، ص ٥٢٨ وما بعدها.

(*) إشارة التعيين (و ١١)
انباه الرواة (١: ١٣٨)
بغية الوعاة (١: ٢٩٦)
البلغة (٣٤)
تاريخ ابن كثير (١١: ٩٨)
تاريخ ابن الفدا (٢: ٦٠)
تاريخ بغداد (٥: ٢٠٤)
تذكرة الحفاظ(٢: ٢١٤)
تلخيص ابن مكتوم (٢٤)
تهذيب الاسماء واللغات للنووي(٢: ٢٧٥)
سلم الوصول(١٥٨)
شذرات الذهب (٢: ٢٠٧)
طبقات ابن قاضي شهبه (١: ٢٥٢)
طبقات الزبيدي(١٤١)
طبقات القراء لابن الجزري(١: ١٤٨)
العنبر الذهبي (٢: ٨٨)
مرآة الجنان (٢: ٢١٩)
مراتب النحويين(١٥٦)
المزهر (٢: ٤١٢)
معجم الأدباء (٥: ١٠٢)
النجوم الزاهرة (٣: ١٣٣)
نزهة الألبا(٢٩٣)
نور القبس (٢٣٤)
هدية العارفين (٥: ٥٤)
وفيات الأعيان (١: ١٠٢)

(٢) وفيات الأعيان (٥: ٢٤٤)

(٣) البغية (١: ١٥٩)

(٤) من رجال القرن الثالث.

(٥) من رجال القرن الثالث.

(٦) انباه الرواة (١: ١٤٦)

(٧) هو الشماخ بن ضرار الشاعر المعروف.

(٨) من رجال القرن الثالث.

الرفع- بازل- بالخفض- بازل - بالنصب - فالرفع على الاستئناف والخفض على الإتباع، والنصب على الحال، فاستحيا وامسك.

ودخل أبو العباس يوماً على محمد بن عبدالله بن طاهر[1] فاذا عنده المبرد، وجماعة من أصحابه وكتابه، فلما قعدت قال لي محمد بن عبدالله ما تقول في قول امرئ القيس:

لـــه متنتـــان خظاتـــا كمـــا

أكـــب علـــى ســـاعديه النمـــر[2]

قال ثعلب: فقلت: يقال: خظاتا، اذا كان صلباً مكتنزاً، وصف فرسا،وقوله (كما اكب)، أي في صلابة ساعد النمر اذا اعتمد على يده. والمتن: الطريقة - الخط الممتدة عن يمين الصلب وشماله. والذي فيه من العربية أنه قال: خظتا فلما تحركت التاء أعاد الألف من أجل الحركة والفتحة.

فأجل محمد بن عبدالله على المبرد. فقال له المبرد: أعز الله الأمير، إنما أراد: خظاتا، بالإضافة، أضاف خظاتا إلى كما. فقلت: فما قال هذا أحد. قال المبرد: بلى، سيبويه، بقوله. فقلت لمحمد بن عبدالله: لا والله ما قال سيبويه هذا قط وهذا كتابه فليحضر ثم أقبلت على محمد بن عبدالله وقلت: ما حاجتنا إلى كتاب سيبويه!! أيقال: مررت بالزيدين صديقي عمرو فيضاف نعت الشيء إلى غيره؟ فقال محمد بن عبدالله- بصحة طبعه- لا والله ما يقال هذا، ونظر إلى المبرد، فأمسك ولم يقل شيئاً.

ويقول القفطي ويعقب البصريون فيقولون: والقول ما قاله المبرد، وإنما ترك الجواب أدباً مع محمد بن عبدالله بن طاهر، لما تعجل اليمين وحلف، وهذا مما يدلك على أن المبرد كان خبيراً بمجالسة الأجلاء والخلفاء والملوك وآداب صحبتهم.

ويقول ثعلب: لما شاهدني المازني وجاراني النحو، وخرج إلى سر من رأى، كان يذكرني ويوجه إلي: أخوك يقرئك السلام.

ويقول ثعلب: قال لي أبو عبدالله محمد بن عيسى[3]، بحضرة محمد بن عبدالله بن طاهر: نحن نقدمك لتقدمة الأمير، فقلت له: يا شيخ؟ أني لم أتعلم العلم ليقدمني الأمراء، وإنما تعلمته ليقدمني العلماء.

ويقول ثعلب: كان محمد بن عبدالله يكتب: ألف درهم واحدة، فإذا مر به ألف درهم واحد أصلحه:واحدة، فكان كتابه

(١) هو ابو العباس محمد بن طاهر الخزاعي، من تولى نيابة بغداد أيام المتوكل العباسي، وكانت وفاته سنة ٢٥٣هـ (تاريخ بغداد ٥: ٤١٨)

(٢) ديوان امرئ القيس (ص ١٦٤٤)

(٣) من رجال القرن الثالث.

ينكرون ذلك ويغلط عليهم ويهابونه فلا يبتدأونه فيه بشيء، فقال يوماً: أتدري لم عمل الفراء كتاب البهي؟ فقلت له: أنه قد عمل له كتباً منها: كتاب المذكر والمؤنث. قال: وما فيه مثل: ألف درهم واحد، ولا يجوز واحدة. ففتح عينيه وتنبه واقلع.

ويقول ثعلب: بعث إليّ عبدالله رقعة فيها خط المبرد: ضربه بلا سيف، وقال: أيجوز هذا؟ فوجهت إليه: لا والله ما سمعت بهذا، يقول ثعلب: هذا خطأ البتة، لأن لا التبرئة لا يقع عليها خافض ولا غيره، لأنها أداة، وما تقع أداة على أداة.

ويقول العجوزي[4]: صرت إلى المبرد مع القاسم والحسن، ابني عبدالله بن سليمان بن وهب[5] فقال لي القاسم: سله عن شيء من الشعر. فقلت: ما تقول - أعزك الله- في قول أوس:

وغيّرهـــا عـــن وصـــلها الـــشّيبِ إنّـــه

شـــفيع إلـــى بـــيض الخـــدور مـــدرب[6]

فقال بعد تمكث: يريد أن النساء أنسن به فصرن لا يستنزن منه ثم صرنا إلى أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، فلما غص المجلس سألته عن البيت، فقال: قال لنا ابن الأعرابي: ان الهاء في (انه للشباب) وان لم يجر له ذكر، لأنه علم. فالتفت إلى الحسن والقاسم فقلت: أين صاحبنا من صاحبكم.

ويقال ان لما مات المازني خلفه أبو العباس المبرد، وبقي ذكره ببغداد وسامراء لا يغض أحد منه، إلى أن ذكره ابن الانباري في بعض مصنفاته، وأراد أن يضع منه، ويرفع من صاحبه أبي العباس ثعلب. جارياً على عادته في العصبية للكوفيين على البصريين، فقال: سمعت ابا العباس- يعني ثعلباً- يقول: عزمت على المضي إلى المازني لأناظره، فأنكر ذلك على أصحابنا، وقالوا: مثلك لا يصلح أن يمضي إلى بصرى، فيقال غدا: انه تلميذه. فكرهت الخلاف عليهم.

ويعقب ياقوت وهكذا أراد ابن الانباري أن يرفع من ثعلب فوضع منه.

ويقال عن ثعلب: انه كان لا يتكلف الإعراب في كلامه، كان يدخل المجلس فيقوم له تلاميذه فيقول: أقعدوا، بفتح الألف.

ويقول أبو الطيب في كتابه مراتب النحويين: كان ثعلب يعتمد على ابن الأعرابي في اللغة، وعلى سلمة بن عاصم في النحو، ويروي عن ابن نجدة كتب أبي زيد، وعن الاثرم[7] كتب

(٤) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن بشار العجوزي، وكانت وفاته سنة ٣١١هـ (تاريخ بغداد ٤: ٤٠٠).

(٥) الفخري (ص٢٢٦)

(٦) ديوان اوس بن حجر (ص: ٥ طبعة دار صادر بيروت)

(٧) من رجال القرن الثالث.

أبي عبيدة، وعن أبي نصر كتب الأصمعي، وعن عمرو بن أبي عمرو كتب أبيه، وكان ثقة متقناً يستغنى بشهرته عن نعته.

ويقول ابو الطيب أيضاً: وكان ثعلب حجة دينا ورعا، مشهوراً بالحفظ والصدق، وإكثار الرواية وحسن الدراسة.

ويقال: ان ابن الأعرابي كان إذا شك في شيء يقوله له: ما عندك يا ابا العباس في هذا؟ ثقة منه بغزارة حفظته.

ويحكى عن أنه طلب اللغة والعربية في سنة ست عشرة ومائتين، وكان سنه اذ ذاك، كما قدمنا، يكاد يبلغ ستة عشر عاماً، إذ أن مولده كان سنة مائتين، ثم ابتدأ بالنظر في حدود الفراء وسنه ثماني عشرة سنة، حتى اذا ما بلغ خمساً وعشرين سنة لم تكن بقيت عليه مسالة للفراء إلا وهو يحفظها، ويحفظ موضعها من الكتاب، ولم يبق من كتب الفراء في هذا الوقت إلا وقد حفظته.

وينقل المرزباني عن عبدالله بن حسين بن سعد القطربلي[1] في تاريخه، يقول: كان أبو العباس احمد بن يحيى ثعلب من الحفظ والعلم وصدق اللهجة والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم، ومعرفة النحو على مذهب الكوفيين، على ما ليس عليه احد، وكان يدرس كتب الفراء والكسائي درساً، وكان متبحراً في مذهب الكوفيين، لا مستخرجاً للقياس ولا طالبا له، وكان يقول: قال الفراء والكسائي، فإذا سئل عن الحجة والحقيقة في ذلك لم يعرف النظر.

ويقال: انه كان متقدماً على العلماء منذ أيام حداثته.

ويقول ياقوت: ونقلت من كتاب محمد بن عبد الملك التاريخي[2] في أخبار النحويين، فقال: أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب فاروق النحويين والمغاير على اللغويين من الكوفيين والبصريين، اصدقهم لسانا، وأعظمهم شأنا، وأبدعهم ذكراً، وأرفعهم قدرا واصحبهم علما، وأوسعهم حلما، وأتقنهم حفظا، وأوفرهم حظا من الدين والدنيا.

ويقول المفضل بن سلمة[3]: رأس أبو العباس بن يحيى ثعلب النحوي، واختلف الناس إليه في سنة خمس وعشرين ومائتين.

إذا علمنا أن مولده كان سنة مائتين- كما مر- علمنا كم كانت سنّه عند اختلاف الناس إليه.

ويقول إبراهيم الحربي[4]، وقد سمع الناس يتكلون في الاسم والمسمى: كرهت لكم ولنفسي كره أحمد بن يحيى ورضيت لكم ولنفسي ما رضي أحمد بن يحيى.

(١) انظر ترجمته: الأنساب للسمعاني (و ٤٥٧ ب)
(٢) انظر ترجمته: اللباب(١: ١٦٦)
(٣) من رجال القرن الثالث.
(٤) مر جال القرن الثالث.

ولقد أحس مكانة ثعلب الوزير الشيباني أبو الصفر إسماعيل بن بلبل[5] فذكره للناصر لدين الله الموفق بالله[6] فأخرج له رزقاً سنيا سلطانياً، فحسن موقع ذلك من أهل العلم والأدب فقال قائلهم لأبي الصقر وابي العباس:

في جبلي سيبان لا زلتما لها
حليفي فخار في الورى وتفضل
فهذا ليوم الجود والسيف والقنا
وأنت لبسط العلم غير مبخل
عليك ابا العباس كل معول
لأنك بعد الله خير معول
فككت حدود النحو بعد انغلاقه
وأوضحته شرحاً وتبيان مشكل

ويقول أهل الكوفة: لنا ثلاثة فقهاء في نسق، لم ير الناس مثلهم: أبو حنيفة[7]، وأبو يوسف[8] ومحمد بن الحسن[9]، ولنا ثلاثة نحويين كذلك، وهم: أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي، وأبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب.

ثم هو إلى هذا لم يكن موصوفاً بالبلاغة، وكان إذا كتب كتاباً إلى بعض أخوانه من أصحاب السلطان لا يخرج عن طبع العامة، ولكنه إذا أخذ في الشعر والغريب ومذهب الفراء والكسائي لا يفي به أحد ولا يتهيأ له الطعن عليه.

وفي الحق كان هو والمبرد عالمين ختم بهما تاريخ الأدب، وفي ذلك يقول بعض المحدثين:

يا طالب العلم لا تجهلن
وعُدْ به لمبرد أو ثعلب
تجد عند هذين علم الورى
فلاتك كالجمل الاجرب
علوم الخلائق معروفة
بهذين في الشرق والمغرب

(٥) انظر ترجمته في النجوم الزاهرة (٣: ٤٠)
(٦) انظر ترجمته في النجوم الزاهرة (٢: ٧٩)
(٧) هو النعمان بن ثابت الإمام المعروف.
(٨) هو ابو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري وكانت وفاته ١٨٢هـ(وفيات الأعيان ٦: ٣٧٨)
(٩) هو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن واقد الشيباني، وإليه يعزى نشر علم أبي حنيفة، وكانت وفاته سنة ١٨٩هـ (وفيات الأعيان ٤: ١٨٤)

ويقول أبو الطيب اللغوي: انتهى علم الكوفيين إلى ابن السكيت وثعلب، وكانا ثقتين أمينين، ويعقوب أسن، وأقدم موتا، وأحسن الرجلين تأليفا، وكان ثعلب أعلمهما بالنحو، وكان يعقوب يضيف فيه.

ويقول الخطيب البغدادي: قال ثعلب: كنت أحب أن أرى ابن حنبل[1] فلما دخلت عليه، قال لي: فيم تنظر؟ قلت: في النحو والعربية.

ومما يدلنا على سعة علم ثعلب ما يحيه هو، يقول: قدم الرياشي بغداد سنة ثلاثين ومائتين، فصرت إليه لآخذ عنه، فقال لي: أسألك عن مسألة فقلت نعم. فقال: تجيز «نعم الرجل يقوم»؟ فقلت: نعم، هي جائزة عند الجميع[2].

أما الكسائي فيضمر، والتقدير عنده، نعم الرجل رجل يقوم، لأن «نعم» عنده فعل، والفراء لا يضمر، لأن «نعم» عنده اسم، فيرفع «الرجل» بنعم، و«يقوم» صلة للرجل، وأما صاحبك – يعني سيبويه فانه لا يضمر شيئاً، ونعم «عنده أيضاً فعل»، ولكنه يجعل «يقوم» مترجما، وهو الذي يسمونه البدل، فسكت.

فقلت له: فاسألك عن مسألة؟ فقال: نعم. فقلت: أيجوز: يقوم نعم الرجل؟ فقال: جائز؟ فقلت: هذه خطأ عند الجميع، أما على مذهب الكسائي فانه لا يولي الفعل فعلاً، وأما على مذهب الفراء فان «يقوم» عنده صلة للرجل، والصلة لا تتقدم على الموصول، وأما على مذهب سيبويه صاحبك فانه لا يجوز لأنه ترجمة، والترجمة ايضاح وتبيين للجملة التي تتقدمها، ولا يجوز تقديمها عليها. فقال: أنا تارك للعربية، فخذ فيما قصدت له، ففاتحته أيام الناس والاخبار والأشعار، ففتحت به ثبج بحر،

ويقول الأخفش علي بن سليمان: كنت يوما بحضرة ثعلب، فاسرعت القيام قبل انقضاء المجلس، فقال: إلى أين؟ ما أراك تبصر مجلس المبرد فقلت له: لي حاجة. فقال لي: أني أراه يقدم البحتري على أبي تمام، فإذا أتيته فقل له ما معنى قول أبي تمام:

أ آلفه النحيب كم افتراق
أظل فكان داعية اجتماع[3]

قال علي الأخفش: فلما صرت إلى أبي العباس سألته عنه، فقال: معنى هذا: أن المتحابين العاشقين قد يتصارمان ويتهاجران، ادلالا لا عزما على القطيعة، فإذا حان الرحيل وأحسا بالفراق تراجعا إلى الود، وتلاقيا خوف الفراق، فيكون الفراق حينئذ سببا للاجتماع.

(١) هو الإمام أحمد بن حنبل.
(٢) الانصاف (المسألة: ١٤، ج١: ٦٦).
(٣) ديوان ابي تمام (٢: ٣٣٦).

يقول علي الأخفش: فلما عدت إلى ثعلب سألني عنه، فأعدت عليه الجواب، فقال: ما أشد تمويهه!! ما صنع شيئاً!! إنما معنى البيت: أن الإنسان قد يفارق محبوبه رجاء أن يغنم في سفره فيعود إلى محبوبه مستغنياً عن التصرف، فيطول اجتماعه معه، ألا تراه يقول في البيت الثاني:

وليست فرحة الاوبات الا
لوقوف على طرح الوداع

وهذا نظير قول الآخر، بل منه أخذ أبو تمام:

وأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا
وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

هذا هو ذلك بعينه.

وفي هذا الخلاف بين ثعلب والمبرد، أيهما كان أعلم، يقول أبو عمر الزاهد[4] سألت أبا بكر بن السراج[5] فقلت: أي الرجلين أعلم: ثعلب أم المبرد؟ فقال: ما أقول في رجلين العالم بينهما.

وهذا الخلاف بين ثعلب والمبرد، كما شغلهما شغل الناس من حولهما، إذ كان الناس ينقلون لهما ويزيدون، فقد جاء رجل إلى ثعلب، فقال له: يا أبا العباس، قد هجاك المبرد، فقال بماذا؟ فانشده:

أقسم بالمبتسم العذب
ومشتكى الصب إلى الصب
لو أخذ النحو عن الرب
ما زاده إلاّ عمى القلب

فقال له ثعلب: أنشدني من أنشده أبو عمرو بن العلاء:

يشتمني عبد بني مسمع
فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقاري له
من ذا يعض الكلب ان عضا

وعلى هذا فلقد كان أبو العباس ثعلب ضائق النفس لاشتغاله بالنحو دون سواه، من العلوم الأخرى، التي حقق بها أصحابها فوزا.

يحكي أبو بكر مجاهد يقول: كنت عند أبي العباس ثعلب، فقال لي يا أبا بكر، اشتغل أصحاب القرآن ففازوا، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو، فليت شعري ما يكون حالي في الآخرة.

(٤) من رجال القرن الرابع.
(٥) من رجال هذا القرن.

يقول أبو بكر مجاهد: فانصرفت من عنده، فرأيت في تلك الليلة النبي(ﷺ) في المنام، فقال لي: اقرئ أبا العباس عني السلام وقل له: انك صاحب العلم المستطيل.

ويقول الروذباري[1]: أراد الكلام به يكمل والخطاب به يجمل، وأن جميع العلوم مفتقرة إليه، وهذا دليل أراه ينضم إلى أدلتي من قبل في فضل علم النحو.

ولثعلب شعر كثير، منه:

اذا كنت قوت النفس ثم هجرتها
فلم تلبث النفس التي أنت قوتها
ستبقى بقاء الضب في الماء أنّه
يعيش لدى ديمومة البيد حوتها

وله، وقد بلغ الثمانين من عمره:

بلغت من عمري ثمانينا
وكنت لا آمل خمسينا
فالحمد لله وشكرا له
اذ زادني عمري ثلاثينا
وأسأل الله بلوغا الى
مرضاته آمين آمينا

وشيوخ ثعلب كما أحصتهم المراجع:

١- أبو اسحاق الحربي إبراهيم بن بشير، وهو من رجال هذا القرن.

٢- أبو اسحاق الحزامي إبراهيم بن المنذر، محدث، وكانت وفاته سنة ٢٣٦هـ[2].

٣- أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود بن حمدون النديم، شيخ أهل اللغة ووجههم وأستاذ أبي العباس ثعلب، قرأ عليه قبل ابن الاعرابي وتخرج من يده، وهو من رجال هذا القرن هو مجهول سنة الوفاة.

٤- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، إمام المذهب الحنبلي.

٥- أبو عبد الله الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب، محدث وكانت وفاته سنة ٢٥٦هـ[3].

٦- أبو محمد النحوي سلمة بن عاصم، وهو من رجال هذا القرن.

٧- أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي، وهو من رجال هذا القرن.

٨- عبيد الله بن عمر القواريري، وتذكر المراجع أن ثعلبا سمع منه مائة ألف حديث.

٩- أبو الحسن بن المغيرة الأثرم، وهو من رجال هذا القرن.

١٠- أبو جعفر محمد بن حبيب، وفيه يقول ثعلب: حضرت مجلسه فلم يمل، وكان والله حافظاً صدوقا، وهو من رجال هذا القرن.

١١- أبو عبدالله بن الاعرابي محمد بن زياد، وهو من رجال هذا القرن.

١٢- أبو عبدالله الجمحي محمد بن سلام بن عبيد الله بن سلام، ومن أهل اللغة والأدب، وكانت وفاته سنة ٢٣٢هـ[4].

١٣- أبو جعفر النحوي محمد بن عبدالله بن قادم، وهو من رجال هذا القرن.

١٤- أبو محلم محمد بن هشام الشيباني، كان اماما في اللغة وعلم الشعر وأيام الناس[5].

أما عن تلامذة ثعلب، ومن رووا عنه، فهم كما أحصتهم المراجع:

١- إبراهيم بن حمويه المروزي الحراني، ذكره صاحب تاريخ بغداد فيمن أخذوا عن ثعلب.

٢- إبراهيم بن محمد بن عرفة الازدي، المعروف بنفطويه، من نحاة القرن الرابع الهجري، إذ كانت وفاته سنة ٣٢٣هـ[6].

٣- أبو عبيد الله الحكيمي، ذكره صاحب تاريخ بغداد فيمن رووا عن ثعلب.

٤- أبو بكر أحمد بن العباس بن عبدالله بن عثمان، ذكره صاحب البغية وهو يترجم لمحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن حمدان أبي الحسين الخزاعي النحوي على انه من شيوخه، وقال عنه صاحب ثعلب، وقال كان حيا سنة تسع وأربعين وثلاثمائة[7].

٥- أحمد بن عبدالله المعبدي الكوفي، وهو من رجال هذا القرن.

---

(١) هو أبو عبدالله أحمد بن عطاء أحمد الروذباري، متصوف وكانت وفاته سنة ٣٦٩هـ(تاريخ ابن كثير ١١: ٢٩٦).

(٢) تهذيب التهذيب (١: ١٦٦).

(٣) تهذيب التهذيب (٣: ٣١٢).

(٤) انباه الرواة (٣: ١٤٣).

(٥) انباه الرواة (١: ١٦٧)، والبغية (١: ٢٥٧).

(٦) انباه الرواة (١: ١٧٦).

(٧) البغية (١: ٢١٨).

٦- أبو الضوء النحوي أحمد بن الفضل بن شبانة الهمداني[١].

٧- أبو بكر القاضي أحمد بن كامل بن خلف، من العلماء باحكام وعلوم القرآن والنحو والشعر، وكانت وفاته سنة ٣٥٠هـ[٢].

٨- أبو سعد التنوخي الانباري الكوفي داود بن الهيثم بن اسحاق، من نحاة القرن الرابع الهجري، وكانت وفاته سنة ٣١٦هـ[٣].

٩- أبو موسى الحامض سليمان بن محمد بن احمد، من رجال هذا القرن.

١٠- عبد الرحمن بن محمد الزهري، ذكره صاحب تاريخ بغداد فيمن رووا عن ثعلب.

١١- أبو الحسن عبدالله بن محمد بن سفيان الخراز، من نحاة القرن الرابع الهجري، إذ كانت وفاته سنة ٣٢٥هـ[٤].

١٢- أبو الحسن الأخفش الأصغر علي بن سليمان، من نحاة القرن الرابع الهجري، كانت سنة وفاته سنة ٣١٥هـ[٥]

١٣- أبو الحسن النحوي محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان، من نحاة القرن الرابع الهجري وفاته سنة ٣٢٠هـ[٦].

١٤- محمد بن الحسن بن مقسم، ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه فيمن رووا عن ثعلب.

١٥- أبو عبدالله محمد بن العباس بن يحيى بن المبارك اليزيدي، من نحاة القرن الرابع الهجري، اذا كانت وفاته ٣١٠هـ[٧].

١٦- أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن موسى الكرماني، من نحاة القرن الرابع الهجري، وكانت سنة٣٢٩هـ[٨].

١٧- أبو عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم من رجال القرن الرابع الهجري، إذ كانت وفاته سنة ٣٤٥هـ[٩].

١٨- أبو طالب محمد بن الحسين، ذكره الخطيب البغدادي فيمن رووا عن ثعلب.

١٩- أبو بكر الأنباري محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، من رجال القرن الرابع الهجري، إذ كانت وفاته سنة ٣٢٨هـ[١٠].

٢٠- ابو الحسن محمد بن ولاد- الوليد- التميمي، من نحاة هذا القرن.

٢١- أبو الحسن محمد بن يعقوب بن ناصح الأصبهاني، من رجال القرن الرابع الهجري، وكانت وفاته سنة ٣٤٣هـ[١١].

٢٢- هارون بن الحائك الضرير النحوي، من رجال هذا القرن.

وهذه مصنفات ثعلب كما جاءت في المراجع المختلفة:

١- الأبيات – ذكره الآمدي في كتابه المؤتلف والمختلف[١٢].

٢- اختلاف النحويين- كذا ذكره ابن النديم والقفطي، وذكره صاحب الكشف باسم: اختلاف النحاة[١٣].

٣- استخراج الألفاظ من الأخبار – ذكره ابن النديم والقفطي.

٤- اعراب القرآن – ذكره ابن خلكان والقفطي ذكره صاحب الكشف[١٤].

٥- الامالي- (انظر: المجالس)

٦- الأمثال – ذكره ابن النديم والقفطي، وكذا ذكره صاحب الكشف[١٥].

٧- الأوسط- ذكره ابن النديم والقفطي، قال ابن النديم: رأيته، وذكره صاحب الكشف باسم: الأوسط في النحو[١٦].

٨- الايمان- كذا ذكره القفطي، وذكره ابن النديم باسم الايمان والدواهي.

٩- التصغير- ذكره ابن النديم والقفطي، كما ذكره صاحب الكشف[١٧].

---

(١) المصدر نفسه (١: ٣٥٣).
(٢) انباه الرواة (١: ٩٧).
(٣) البغية (١: ٥٦٣)
(٤) المصدر نفسه (٢: ٥٥)
(٥) انباه الرواة(٢: ٢٧٦)
(٦) البغية (١: ٨١)
(٧) ابناه الرواة(٣: ١٩٨)
(٨) المصدر نفسه (٣: ١٥٥)
(٩) المصدر نفسه (٣: ١٧١)
(١٠) المصدر نفسه (٣: ٢٠١)
(١١)المصدر نفسه (٣: ٢٥٣)
(١٢) المؤتلف والمختلف (ص١٥٤) ترجمة عامر بن الطفيل.
(١٣) كشف الظنون (ص٢٣)
(١٤) م.ن(ص١٢٣)
(١٥) م.ن (ص١٦٧)
(١٦) م.ن (٢٠١)
(١٧) م.ن (ص١٤٠٥)

١٠-تفسير كلام ابنة الخس- ذكره ابن النديم والقفطي، وقد أورد ثعلب جملة منه في كتابه المجالس وفسره[١].

١١- حد النحو - ذكره ابن النديم والقفطي كما ذكره صاحب الكشف[٢].

١٢- ديوان الأعشى- وهو مطبوع.

١٣- ديوان أعشى بأهله- ذكره البغدادي في كتابه الخزانة، وقال: ديوان أعشى برواية ثعلب[٣].

١٤- ديوان رافع بن هزيم اليربوعي - ذكره صاحب خزانة الأدب[٤].

١٥- ديوان- وهو مطبوع.

١٦- ديوان الطرماح- وهو مطبوع.

١٧- ديوان طفيل- وهو مطبوع.

١٨- ديوان عروة بن حزام - ذكره البغدادي في خزانته[٥].

١٩- ديوان النابغة الجعدي- وهو مطبوع.

٢٠- ديوان الذبياني- وهو مطبوع.

٢١- شرح بانت سعاد- ذكره بروكلمان[٦].

٢٢- شرح قصيدة لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير- قالها في مدح خالد بم يزيد الشيباني، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية برقم ١٦٦ مجاميع م.

٢٣- شرح لامية الشنفرى- ومنه نسخه بالمكتبة الآصفية[٧]، وقد ذكره صاحب الكشف[٨].

٢٤- الشواذ- ذكره ابن النديم والقفطي، كما ذكره صاحب الكشف وعبارة الكشف تدل على انه في القراءات.

٢٥- غريب بالحديث- ذكره ابن الأثير في مقدمة كتابه النهاية[٩] كما ذكره صاحب الكشف[١٠].

٢٦- غري بالقرآن - ذكره ابن النديم وقال لطيف، وقد ذكره القفي باسم: معاني القرآن.

(١) انظر فهرست المجالس لثعلب.
(٢) كشف الظنون(ص٦٣٥)
(٣) خزانة الأدب (١: ٩ و ١٩)
(٤) المصدر نفسه (٢: ٢٧٨)
(٥) خزانة الأدب (١: ١٠)
(٦) تاريخ الأدب العربي (٢: ١١١)
(٧) فهرست المكتبة الآصفية (٢: ١٢٤٤)
(٨) كشف الظنون(١٥٣٩)
(٩) النهاية في غريب الحديث(١: ٥)
(١٠) كشف الظنون (١٢٠٥).

٢٧- الفصيح - وهو مطبوع، وانظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان[١١].

٢٨- القراءات- ذكره ابن النديم والقفطي.

٢٩- قصيدة في معنى الخال- ومنها نسخة بمكتبة برلين[١٢].

٣٠- قواعد الشعر- ومنه نسخة بمكتبة الفاتيكان[١٣]، وهو من رواية أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني المتوفى سنة ٣٨٤هـ وقد نشره المستشرق الإيطالي سيكابا ريللي بلايدن سنة ١٨٩٠م، بين أعمال المؤتمر الثامن الدولي للمستشرقين[١٤]

٣١- ما تلحن فيه العامة - ذكره ابن خلكان والقفطي وصاحب الكشف[١٥].

٣٢- ما يجري وما لا يجري- ذكره ابن النديم والقفطي وصاحب الكشف[١٦].

٣٣- ما ينصرف وما لا ينصرف - ذكره ابن النديم والقفطي، كما ذكره صاحب الكشف[١٧]. وظاهر أنه هو الكتاب السابق فالإجراء هو الصرف[١٨]

٣٤- مجاز الكلام وتصاريفه- ذكره السيوطي في المزهر[١٩]، قال ثعلب في كتاب مجاز الكلام وتصاريفه: من الأضداد: مفازه، من فوز الرجل اذا مات، ومفازه من الفوز، على جنس التفاؤل.

٣٥- المجلس-وهو مطبوع.

٣٦- المجالسات- (انظر: المجلس).

٣٧- المسائل - ذكره ابن النديم والقفطي

٣٨- المصون - ذكره ابن النديم والقفطي، كما ذكره صاحب الكشف[٢٠] وقال المصون في النحو.

٣٩- معاني الذعر- ذكره ابن النديم والقفطي وصاحب الكشف[٢١].

(١١) تاريخ الأدب العربي (٢: ٢١١)
(١٢) فهرست مكتبة برلين (رقم ٧٠٦٦) وانظر بروكلمان (٢: ١)
(١٣) فهرست مكتبة الفاتيكان (رقم ٢٨٤)
(١٤) تاريخ الأدب العربي(٢: ٢١٢)
(١٥) كشف الظنون(١٥٧٧)
(١٦) م.ن (١٤٥٥)
(١٧) م.ن (١٤٥٥)
(١٨) ففي فتح الباري لابن حجر: وبعضهم لم يجردها، أي لم يصرفها وهذا اصطلاح قديم يقولون للاسم المصروف: مجرى.
(١٩) المزهر (١: ٢٩٣).
(٢٠) كشف الظنون (١٧١٢).
(٢١) م.ن (١٧٢٩).

٤٠- معاني القرآن- ذكره ابن النديم والقفطي كما ذكره صاحب الكشف[١] ولعله هو غريب القرآن.

٤١- الموفقي- ذكره ابن النديم والقفطي، وقال ابن النديم وهو مختصر في النحو، وقال القفطي: في مختصر النحو، والموفقي نسبة إلى الموفق الذي ألف له هذا الكتاب، وهو أبو أحمد طلحة- وقيل محمد بن المتوكل بن المعتصم، وكان لقبه الموفق، ثم لقب بعد قتل الزنج له: الناصر لدين الله[٢].

٤٢- النوادر- ذكره المرتضى في شرح الاحياء[٣]، كما ذكره صاحب الذيل على[٤] الكشف.

٤٣- الهجاء- ذكره ابن النديم والقفطي، كما ذكره صاحب الكشف[٥].

٤٤- الوقف والابتداء- ذكره ابن النديم والقفطي، كما ذكره صاحب الكشف[٦].

ولقد كان مولد أبي العباس ثعلب، كما ذكر المرزباني سنة ٢٠٠هـ في السنة الثانية من خلافة المأمون.

ويقول أبو العباس: ورأيت المأمون لما قدم من خراسان في سنة أربع ومائتين، وقد خرج من باب الحديد، وهو قصر الرصافة، والناس صفان، وكان أبي قد حملني على يده، فلما مر المأمون رفعني قال لي: هذا المأمون، وهذه سنة أربع، فحفظت ذلك عنه إلى الساعة، كان سني يومئذ أربع سنين.

ومات أبو العباس ثعلب لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادي الأولى سنة احدى وتسعين ومائتين، لا خلاف في ذلك بين من أرخوا له.

وكان موته في خلافة المكتفي بن المعتضد، وقد بلغ سنة وأشهرا وكان رأى أحد عشر خليفة، أولهم المأمون وآخرهم المكتفي، وكان ثقل قبل موته، ودفن في مقابر باب الشام في حجرة اشتريت له وبنيت بعد ذلك.

ويقول ياقوت نقلا عن عبدالله بن الحسين القطربلي في تاريخه: وقبره هناك معروف، ورد ماله على ابنته، وكان واحداً وعشرين ألف دينار وألفي دينار، ودكاكين بباب الشام، قيمتها ثلاثة آلاف دينار، ويقال انه ضاع له عند بعض الناس ألف دينار كانوا يتجرون له بها.

(١) كشف الظنون (١٧٣٠).
(٢) النجوم الزاهرة (٢: ٧٩).
(٣) شرح الاحياء (٣: ٢٠٨).
(٤) الذيل على الكشف (٢: ٢٤٥).
(٥) كشف الظنون (١٤٧٢).
(٦) المصدر نفسه (١٤٧٠).

وللشعراء فيه مراث كثيرة، منها لبعضهم:

مات ابن يحيى فماتت دولة الأدب
ومات أحمد أنحى العجم والعرب
فان تولى أبو العباس مفتقدا
فلم يمت ذكره في الناس والكتب

المصدر/ :

جهود علماء الحلة في القرن الثالث الهجري، تاليف: الدكتور يوسف احمد المطاوع، مطبعة الكويت – الكويت ١٩٧٦، ص٣٨٢-٣٩٢.

جابر بن حيان الأزدي

لقد احتل اسم ابن حيان مكانة مرموقة بين أسماء من اشتغل بالعلوم ولاسيما علم الكيمياء – لم يتسن لغيره الوصول إليها طوال القرون المحصورة بين الثامن عشر والسابع عشر لا في مشرق الأرض ولا مغربها، نظراً لكثرة ما ألف من رسائل وكتب في مواضيع علمية مختلفة وغيرها، وللمهارة التجريبية التي امتاز بها عن سواه. ولابد لي في هذا المجال أن أتطرق إلى مفهوم الكيمياء قديما وكيف تطور على مر السنين وانتهى إلى ما نفهمه في الوقت الحاضر.

لقد كانت الكيمياء قديما صناعة يحرص محترفوها على كتمان سرها باحاطتهم إياها بهالة من الغموض والسحر ولعل أول من ابتدأ بالعناية بالكيمياء هم المصريون والعرب والفينيقيون واليهود واليونان والرومان، وقد اختلف المؤرخون في أصل كلمة (كيمياء) فمنهم من يقول بأنها اشتقت من لفظة «شمى» ومعناها الحرق أو الأرض السوداء، وقد قرن البعض الأرض السوداء بمصر حيث عرفت مصر بالأرض السوداء قديماً واستطرد بالقول حتى عبر عن الكيمياء بأنها (الصناعة المصرية)[٧] ويرى غيرهم أن لفظة الكيمياء قد حورت عن اللغة العبرية للفظة «شامان» وتعني السر أو الغموض. ومهما يكن الاختلاف في أصل الكلمة واشتقاقها فهو لا يغير من الواقع شيئاً إذ أن مصر اشتهرت بهذه الصناعة قبل غيرها وكانت الكيمياء علماً أو صناعة سرية وقفاً على الكهنة والروحانيين القدماء حتى ان المعامل والمختبرات قد بنيت داخل المعابد وأديرة الكهنة منذ دخول الاسكندرونيين إلى مصر. وأغلب الظن ان لفظة كيمياء عربية بدلالة وجود أداة التعريف كما يذكر هولمبارد.

(٧) المقتطف، ج١، مج ٤٤، ص ٣٧.

لقد قصد بالكيمياء قديماً عمل الذهب والفضة بالصناعة كما فصل ذلك ابن خلدون في مقدمته، ولكن يظهر لنا مما كتبه الشيخ الرئيس ابن سينا ان الناس كانوا في عهده على رأيين من حيث موضوع الكيمياء، الواحد عمل الذهب والفضة بالصناعة والثاني صبغ النحاس بصبغ الفضة وصبغ الفضة بصبغ الذهب لا غير، والظاهر ان فكرة الصبغ لم تكن مألوفة في أوروبا لذا فأنهم ذهبوا إلى ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته، إلا ان آرثر جون هوبكنز[1] قد اثبت بالدلالة التاريخية والعلمية ان مراد الكيمياويين القدماء كان الصبغ لا التحويل حيث قال «ان أقدم كتابة لدينا في الكيمياء القرطاس المصري المحفوظ في مدينة ليدن وقد كتب الكتابات المنسوبة إلى ديموقريطس وزوسيموس وسنسيوس والوصفات المنسوبة إلى ديموقريطس مشمولة بمباحث فلسفية ووصفات زوسيموس وسنسيوس موضوعة بكلام مبهم يعسر فهمه[*] ويستطرد الأستاذ هوبكنز فيقول لما قام الإمبراطور ويوقلتاتوس أمر سنة ٢٩٠ للميلاد بنفي أهل الكيمياء كي لا يغتنوا بصناعتهم فيتمكنوا من الخروج عليه».

وهكذا اختلف الناس قديما في مفهوم الكيمياء فمنهم من آمن بصنع الفضة والذهب من المعادن البخسة ومنهم من ارتضى بتغيير لون النحاس إلى لون الفضة والأخيرة إلى لون الذهب. قال حاجي خليفة في كشف الظنون نقلاً عن الصفدي ان الناس في علم الكيمياء على طريقتين[2] فقال كثير ببطلانه منهم الشيخ الرئيس ابن سينا بمقدمات من كتاب الشفاء[3] وفي رسالة في علم الاكسير[*] والشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية صنف رسالة في إنكاره وصنف يعقوب الكندي أيضاً رسالة في إبطاله كذلك غيرهم ولكنهم لم يوردوا شيئاً يفيد الظن لامتناعه عن اليقين. وذهب آخرون إلى امكانه منهم الإمام فخر الدين الرازي فانه في المباحث المشرقية عقد فصلا في امكانه والشيخ نجم الدين بن البغدادي رد على الشيخ ابن تيمية وزيف ما قاله في رسالته ومؤيد الدين الطغرائي صنف فيه كتبا منها حقائق الاشهادات وبين إثباته والرد على ابن سينا.

(١) المقتطف، ج٣، مج٥٣، ص ٢٤٠.

(*) توفي ديموقريطس سنة ٢٥٧ق.م وهو فيلسوف يوناني ويلقب بالفيلسوف الضاحك وزوسيموس مؤرخ يوناني نشأ في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد وسنسيوس فيلسوف قيرواني يوناني توفى سنة ٤٣٠ للميلاد.

(٢) المقتطف، ج٢، مج ٤١، ص ١٠٥.

(٣) مجلة الكتاب، ج٤، مج ١١، ص ٤٧٦.

(*) هذه رسالة في علم الاكسير لابن سينا مخطوط آيا صوفيا اسطنبول (مجموعة رسائل).

وقال الإمام شمس الدين محمد بن إبراهيم الأنصاري: «إذا أراد المدبر ان يصنع ذهبا نظير ما صنعته الطبيعة من الزئبق والكبريت الطاهرين فيحتاج إلى أربعة أشياء كل واحد من ذينك الجزئين، وكيفيته، ومقدار الحرارة الفاعلة للطبخ، وزمانه وكل واحد منها عسر التحصيل. وأما إذا أراد ذلك بأن يدبر دواء وهو المعبر عنه بالاكسير مثلا ويلقيه على الفضة ليمتزج بها ويستقر خالدا فيها ويكسوها لون الذهب ورزانته[*] فاستخراج ذلك بالتجربة يحتاج استقرار حال جميع المعدنيات وخواصها. وان استخراجه بالقياس فمقدماته مجهولة وفي خفاء في عسر ذلك ومشتقه».

وقد كان جابر بن حيان ممن آمن بتحويل العناصر البخسة إلى ذهب ولكنه غالى في ذكاء من يتمكن من الحصول على الاكسير[4] وقد قال: «على الإنسان الطالب لهذا الأمر ان يكون ذكيا لأن هذه الصناعة تحتاج إلى حجج وبراهين على اثباتها وكونها على غايتها وآنيتها وكميتها ليكون الداخل فيها داخلا على بصيرة من حالة ويقين من امره ليعلم الفصول والآثار الظاهرة فيكون سلوكه على يقين وعلم قاطع ولا يكون كمن يسلك في ظلماء ويخبط في عشوا، فان هذه الصناعة ليست كائنة بالبحث ولا كيف جاء واتقن لكنما يكون لذي الرأي الصحيح والقياس الواجب والدرس الدائم للعلم الحق الواضح الخ»[5].

وهكذا اتسم الدور الأول للكيمياء بالمحاولات المضنية في صناعة الذهب من العناصر الزهيدة الثمن إضافة إلى صبغ المعادن وكسائها يشبه الذهب أو الفضة وبذلك قد نشطت عملية التعدين وصنع السبائك، وعرف الكثير عن خواص المعادن، وقد بدأ اليونانيون القدماء بهذه الفكرة أو الصناعة «واعتقد فلاسفتهم بأن المواد على اختلاف أنواعها تتألف من أربعة عناصر أساسية هي الماء والهواء والنار والتراب، وتختلف المادة عن غيرها في احتوائها على نسب متباينة من العناصر الأربعة وكيفية اتحاد بعضها مع البعض الآخر، وقد آمن بهذا الرأي عدد كبير من رجال الفلسفة والكيمياء آنذاك وكان حريا بمن اعتقد بهذه الفكرة ان يحاول صنع الذهب من المعادن الأخرى وذلك بالتحري عن الطرائق التي تؤدي إلى تغير نسب العناصر الأربعة في معدن ما وجعلها على ما هي عليه في الذهب. غير ان أرسطو أضاف عنصرا خامساً للعناصر الأربعة التي مر ذكرها ووصف هذا العنصر بأنه

(*) المقصود بالرزانة هو «الوزن النوعي».

(٤) " مختار رسائل جابر بن حيان، كراوس، القاهرة- ١٩٥٤.

(٥) كتاب اسطقس الاس على رأي الفلاسفة – جابر بن حيان- نشر هولمبارد ص ٧٠، باريس ١٩٢٨.

أثيري في طبيعته وربما جاء بهذا العنصر الوهمي بتأثّره بالفلسفة الهندية، ونقل الفارابي تعليل أرسطو في اثبات التحول وهو «ان الفلزات واحدة بالنوع والاختلاف الذي بينها ليس في ماهيتها وإنما هو اعراضها الذاتية وبعضه في اعراضها العرضية. وكل شيئين من نوع واحد اختلفا بعرض فانه يمكن انتقال واحد منهما إلى الآخر فان كان العرض ذاتيا عسر الانتقال وان كان مفارقا سهل الانتقال والعسر في هذه الصناعة إنما هو لاختلاف أكثر هذه الجواهر في اعراضها الذاتية ويشبه ان يكون الاختلاف بين الذهب والفضة يسيراً جدا».

وقد أعقب هذا الدور دور كانت فيه الكيمياء وقفاً على الأمور الطبية فحسب وكان غرض رجال الكيمياء تحضير العقاقير والأدوية لشفاء المرضى، هكذا نجح بعضهم في تحضير كثير من المركبات، إضافة إلى ما استخلص منها من النباتات. يعتقد البعض بأن هذا الدور قد ابتدأ في أواسط القرن السادس عشر وانتهى في منتصف القرن السابع عشر[١]، والحقيقة ان أصحاب هذا الرأي قد استقوا معلوماتهم عن طريق المصادر العربية للنهضة الأوربية دون الرجوع إلى التراث العربي والا فما قولهم في الأدوية والعقاقير التي حضرها كل من ابن سينا والرازي والبيروني وجابر بن حيان بلغ الأخير الذروة في النصف الثاني من القرن الثامن وقد اشتغل جابر في صناعة الذهب وفي تحضير الأدوية والعقاقير، وألف عددا كبيراً من الكتب وأوثق المصادر تشير إلى انه ألف أكثر من مائة وأحد عشر كتاباً[٢] وقد قيل خمسمائة[٣] وذكر ابن النديم في الفهرست أكثر من هذا العدد[٤].

ويبدأ الدور الثالث لعلم الكيمياء في النصف الثاني من القرن السابع عشر وأبرز مافي هذا الدور نظرية الفلوجستون التي تقدم بها بيخر (Becher) عام ١٦٦٧م ردا على ما أورده جابر بن حيان عام ١٧٧٦م تقريبا، إذ يكتب جابر بأن جميع المواد المشتعلة تحتوي على عنصر الاشتعال ووصف هذا العنصر بأنه صورة من صور الكبريت، بينما أشار بيخر إلى كثير من المواد القابلة للاشتعال والتي تشتعل فعلا دون أن يكون عنصر الكبريت موجوداً فيها واستبدل الكبريت بعنصر أسماه (Terra Pinging) ثم تلاه شتال (Stahl) (١٦٦٠- ١٢٧١) فطور فكرة بيخر وأسمى العنصر الموهوم «بالفلوجستون» والذي يعني في اللغة اليونانية «أنا اشعل النار». وعلى ضوء هذه النظرية يكون تحول المعدن إلى ما أسموه بالكالكس(*) (أوكسيد الفلز) نتيجة لفقدان الفلوجستون. وقد عبر عنها بهذه – المعادلة البسيطة:

«معدن – فلوجستون- كالكس» :

وهكذا اعتقد أصحاب هذه النظرية انه باستطاعتهم إعادة الكالكس إلى المعدن إذا ما أدخل في الأخير الفلوجستون. ولما كان الفحم يحترق بسهولة ولا يترك إلا قليلاً من الرماد وجب ان يكون الفحم غنيا بالفلوجستون فإذا ما عومل الكالكس بالفحم وسخنا سوية اتحد الكالكس بشيء من فلوجستون الفحم وعاد معدنا إلى أصله وبالرغم من الأخطاء الكثيرة والفرضيات الموهومة في هذه النظرية إلا أنها كانت مفتاحاً في التعدين والحصول على الفلزات (المعادن) من أكاسيدها الموجودة في الطبيعة وقد اثنى الأستاذ ميلر[٥] على هذه النظرية حيث يقول ما معناه ان السخرية من هذه النظرية أو ممن اعتقد بها أمر غير عادل إذ انها مثلت أكمل تعميم معروف في زمانها وتحت تأثيرها خطت الكيمياء خطوات كبيرة وتقدمت تقدما محسوسا. وعلى كل فقد أخفقت هذه النظرية عندما تعرضت للتجربة العملية من حيث الوزن كما ان – لافوازيه ١٧٧٤م قد اكتشف صفات الأوكسجين وأثبت بأنه ضروري للاشتعال، وقد اتضح بعد ذلك بأن المعدن لا يفقد شيئاً عندما يتحول إلى الأوكسيد (الكالكس). بل على النقيض من ذلك فانه يتحدد بالأوكسجين بنسبة معينة، ويزداد وزنا.

ويبدأ الدور الرابع لعلم الكيمياء الحديثة في أواخر القرن الثامن عشر حيث ازداد عدد المركبات الكيمياوية زيادة كبيرة، وبرز في هذا الدور العالم السويدي شيلي (١٧٤٢- ١٧٨٦م) الذي اكتشف عنصر الأوكسجين قبل الكيمياوي بريستلي بعامين الا ان تلكؤه في نشر ما وصل إليه قد خص برستلي بشرف اكتشافه. وقد اتسم هذا الدور بالتجارب العلمية العملية، ودراسة خواص المركبات بعد عزلها عن الشوائب وتعيين ثوابتها الطبيعية. ولم تمض مدة طويلة على فشل شيلي في الحصول على مركز المكتشف لغاز الأوكسجين حتى باغت معاصريه بسلسلة من المكتشفات وتحضير عدد كبير من المركبات الجدية، ومن مختلف الأنواع من بينها عنصر الكلور،

(١) المقتطف، ج١، مج ٤٤، ص ٣٨.

(٢) كتاب الخواص لجابر بن حيان (مخطوطة) في مكتبة المتحف العراقي ص ٢٤- ٢٨.

(٣) كتاب الخواص لجابر بن حيان (مخطوطة) في مكتبة المتحف العراقي ص ٢٦.

(٤) كتاب الاسطقس لجابر بن حيان الصوفي ص ١١٧، مصنفات في علم الكيمياء هولمبارد، مطبعة باريس ١٩٢٨.

(*) يعتبر الكالكس في الكيمياء حديثا أوكسيد الفلز، إذ انه ينتج من تسخين المعدن في الهواء.

(٥) كتاب الصافي أو الصفاء، فهرس الكميائيين العرب
Das Buch des Reinen. Katalog der Arabischen Alchemistischen.

وحامض الهيدروكلوريك، وحامض اللبن (اللاكتيك) والاوكساليك، وحامض الليمون (الستريك) وغيرها. وبالرغم من ان بريستلي قد اكتشف الأوكسجين واتصل بالعالم الفرنسي لافوازيه وعرف الكثير عن خواص الأوكسجين وحضر بعض المركبات والأحماض مثل كلوريد الهيدروجين وأوكسيد النتريك وحامض النتروز وغاز الأمونيا وغيرها الا انه بقي على إيمانه بنظرية الفلوجستون حتى فارق الحياة. ولم ينصرم القرن الثامن عشر حتى قيام عملاق الكيمياء في ذلك العصر لافوازيه بتحضير عدد هائل من المركبات واكتشف مكونات الهواء ودرس خواص الأوكسجين الكيمياوية وقضى بذلك نهائيا على نظرية الفلوجستون بتجاربه العلمية التي لا يتطرق إليها الشك ولا يكتنفها الغموض ودرس خواص الغازات دراسة علمية مضبوطة واخذ علم الكيمياء يسير بسرعة هائلة بعد هذه المكتشفات وازداد عدد الكيمياويين زيادة مطردة واكتشفت مكونات الذرة وقوانين اتحاد الذرات بعضها بالبعض الآخر في تكوين الجزئيات وبدأت الصناعة الكيمياوية وشيدت المعامل والمختبرات الكثيرة واستمر عهد الكيمياء الحديثة التي تناولت الاتحادات الكيمياوية وبرزت الكيمياء العضوية والتحليلية وغيرها من فروع الكيمياء الا ان جميع هذه التفاعلات تعتمد على النظام الالكتروني للذرات في الاتحاد والتحلل ولا تمس نوى الذرات من قريب أو بعيد، واستمر الحال كذلك حتى عام ١٩١١م حيث وجدت العلاقة بين الطاقة والمادة وطل عهد الكيمياء النووية.

لقد أوجد انشتاين العلاقة بين المادة والطاقة، بل وعرف ان المادة صورة من صور الطاقة كما في المعادلة الآتية:

ط = م س٢ (الطاقة = المادة × مربع سرعة الضوء) :

حيث يدل (ط) على كمية الطاقة و(م) كمية المادة و(س) سرعة الضوء، ويتضح من هذه المعادلة البسيطة ان كمية قليلة من المادة تتحول إلى كمية هائلة من الطاقة وكانت هذه المعادلة مفتاح الطاقة النووية، ونقطة تحول في نهج الكيمياء. إذ ان علم الكيمياء يبحث في دراسة المادة وتركيبها وتحليلها، وخواصها، وتفاعلاتها وتركيب الذرات والجزئيات دون الالتفات إلى الطاقة التي تركت لعلم الفيزياء فحسب، الا ان التحول الذي حصل في القرن العشرين والنظرة إلى المادة باعتبارها صورة من صور الطاقة قد قرب بين علمي الكيمياء والفيزياء بل ان المختص في الكيمياء النووية لا يختلف كثيراً عمن اختص بالفيزياء الذرية، وسيضمر الفرق بين علمي الكيمياء والفيزياء على مر الزمن وكلما تقدم العصر الذي نعيش فيه. ويمتاز هذا العصر بالنظرة إلى نوى الذرات+ والإفادة من الطاقة الهائلة الكامنة فيها، ويمكننا بحق ان نطلق على هذا الدور الكيمياء (بالعصر النووي). هذا وشارك الأستاذ رايسنباخ[١] عندما ذكر في كتابه «الكون والذرة» عام ١٩٢٤م بأن يسأل الله ان لا يتيح للبشر معرفة طرائق تحول المادة إلى طاقة إلاّ بعد ان يصلوا إلى مرحلة من الخلق تجعل استخدام الطاقة النووية الهائلة في مصلحة الإنسان وليس لدماره، ومن المؤسف ان يبدأ العصر النووي باستخدام هذه الطاقة في القنابل الذرية أول الأمر كما ان مقدار ما تحول من المادة إلى طاقة في القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا على هيروشيما ونكازاكي في أواخر الحرب العالمية الثانية لم يكن الا جزءا ضئيلاً جداً ولو تحول عشر وزن ذنيك القنبلتين إلى طاقة لكان دمارهما أكثر مما عملتا بألف مرة على الأقل. وعلينا ان نتفاءل من هذا العصر وما سيأتي به من فائدة إلى الإنسانية رغم بدايته السيئة، إذ لو استعملت القوة الكهربائية في بدء اكتشافها في الكرسي الكهربائي (كرسي الإعدام) لنظرنا إليها نظرتنا إلى الطاقة النووية.

وبعد ان استعرضنا أدوار علم الكيمياء الأربعة كما يصنفها الغربيون وأضفنا الدور الخامس «العصر النووي» فعلينا الآن ان نرى أين يقع مكان كيمياوي العرب وفي أي دور من الأدوار الأربعة الآنفة الذكر، وقبل الخوض في عباب بحث جابر وعلمه لابد وان نتبين حقيقته ونشأته.

من هو جابر بن حيان :

تذكر دائرة المعارف البريطانية[٢] انه أبو موسى جابر بن حيان ويسود الاعتقاد وفق الأدلة على انه من قبيلة ازد[٣] القبيلة العربية التي قطنت جنوب الجزيرة العربية واستوطن بعضهم الكوفة بعد أن تهدم سد مأرب، وقد أيدت دائرة المعارف الإسلامية[٤] حيث ذكرت بانه أبو موسى جابر بن حيان الأزدي صاحب كيمياء عربي مشهور. واسم أبيه عبدالله الكوفي[٥] ويذكر ميلر[٦] عند كتابته عن جابر أن العرب حاذقون في التجارب، ويشير الأستاذ سارتون في كتابه (مقدمة في تاريخ العلم) عند

---

(١) الفهرست لابن النديم – اخبار جابر بن حيان وأسماء كثيرة، ص ٣٥٥- ٣٥٧.

(٢) الكيمياء العضوية الحديثة، لميلر:
"Mellors Modern Inorganic Chemistry": By Parker & Mellor, Longmans, Green and Co, New ed, Sept. ١٩٤٣, P.٩.

(٣) الذرة والكون:١٩٢٤ ," Atom & Cosmos" by Reichenbach

(٤) دائرة المعارف البريطانية:
Encyclopedia Britannica, ١٤th ed. Vol. X, P.٨٣, ١٩٢٩.

(٥) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة – عمر رضا كحالة، الجزء الأول، ص ١٥، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٤٩.

(٦) أ- دائرة المعارف الإسلامية، ج٦، ص(٢٢٦- ٢٢٨) جابر بن حيان
ب- دائرة المعارف الإسلامية، ج٢، ص ٣٧(الازد).

التطرق إلى كيمياوي العرب (يظهر إن لجابر بن حيان خبرة تجريبية جيدة في عدد من الحقائق الكيمياوية. وذكرت الموسوعة الدولية[1] ان جابر بن حيان كيمياوي عربي مشهور في القرن الثامن للميلاد وكتبه ذات التأثير الكبير الواسع، وتعتبر من أول المؤلفات في المعادن والتي نقلت إلى أوروبا مثل نظرية تحضير المعادن من عنصري الزئبق والكبريت، ووصف لتحضير الحوامض المعدنية، وبقيت هذه الكتب نصوصا كيمياوية لاجيال عديدة، وهكذا تدل أكثر المصادر على ان جابرا عربي الأصل والثقافة ولم نجد من بين المصادر الموثوقة ما يشير إلى انه فارسي أو يوناني الأصل[2].

ولد جابر بن حيان بن عبدالله الازدي في مدينة طوس عام ٧٢١م، وكان والده من اقرباذين[*] الكوفة ومن المخلصين للدعوة العباسية فهاجر إلى طوس ليكون من دعاة العباسيين هناك فشعر به عمال الدولة الأموية فالقى القبض عليه وحكم عليه بالإعدام. أما جابر فقد أرسل إلى البلاد العربية وتتلمذ أول الأمر على يد حربي الحميري، ثم تاثر بآراء الإمام جعفر الصادق ودرس بعض العلوم الدينية عنه. ثم دخل مدخل الصوفيين ومال إلى الصوفية ولقب بها لذلك[3] و[4]. وكان صديقا مقربا للبرامكة الذين تسلموا مناصب وزارية في عهد هارون الرشيد وقد عاصر جعفر بن يحيى البرمكي، وعندما اغتاظ الرشيد من البرامكة وبطش بهم فر جابر بن حيان إلى الكوفة وعاش متسترا فيها. ولم يعثر على اثر لجابر في الكوفة إلا بعد قرنين من وفاته. على اثر عمليات بناء في إحدى مناطق الكوفة المعروفة بباب دمشق وقد ذكرت بعض المصادر انه عاصر المأمون فترة[5] و[6] ويذهب بعض المؤرخين إلى ان جابر قد قصد جعفر الصادق في كتاباته وليس جعفر البرمكي والحقيقة ان النصوص التي بين أيدينا تشير إلى انه اتصل بكليهما وكان يشير على الإمام جعفر الصادق بسيدي جعفر[7] وعندما يذكر البرمكي أو أباه يحيى فيدعوهما بجعفر ويحيى[8] و[9] فلقد ذكر جابر في كتابه الرحمة[10] الإمام جعفر الصادق أكثر من مرة حيث نعته بسيدي جعفر أو كما ذكره في كتاب المقابلة والمماثلة سيدي جعفر بن محمد(عليه السلام)[11] ولم يكن جابر بن حيان أسطورة خيالية حتى أنكر وجوده بعض الكتاب[12] والحقيقة أن جابر بن حيان قد عاش في الكوفة مدة طويلة بعد مقتل جعفر البرمكي وقد ذكر الجلدكي[13] في نهاية الطلب ان أبا الربيع سليمان بن موسى بن أبي هشام عن أبيه موسى في صدر كتاب (الرحمة) لجابر، «لما توفي جابر بطوس سنة المائتين للهجرة وجد هذا الكتاب تحت رأسه». وكتاب الرحمة من بين الكتب القلائل التي ألفها جابر وأجمعت المصادر الغربية والعربية على انها له.

لابد وان جابراً قد تستر بالعيش في مدن عديدة عرف أهلها أو بعضهم بالعطف على البرامكة وربما عاش في فترة طويلة في الكوفة بعد نكبة البرامكة ثم غادرها في أواخر أيام حياته إلى طوس مسقط رأسه حيث وافاه الأجل هناك.

مؤلفاته :

لقد كتب جابر بن حيان كتبا عديدة في مواضيع شتى شأنه في ذلك شأن فلاسفة اليونان وقد تأثر بآرائهم وأخذ ببعضها وفند البعض الآخر[14] و[15]، فكتب في اللغة والبيان[16] وكتب في السموم والأدوية[17] وفي صناعة الاكسير[18]

(١) الاعلام، قاموس تراجم- تأليف خير الدين الزركلي (الطبعة الثانية)، ج٢، ص ٩٠.

(٢) مقدمة في تاريخ العلم:
An Introduction to the History of Science, George Sarton, Vol. ١. P. ٥٢١.

(*) الاقرباذي هو الذي يبيع الأدوية يقصد به الصيدلاني في الوقت الحاضر.

(٣) الموسوعة الدولية:
Encyclopedia International, Vol, ٧, P. ٤٨٠, ١٩٦٤.

(٤) المنجد- معجم لاعلام الشرق والغرب، لفرديناند توتل مادة (ج)، ص ١٢٣.

(٥) أ- كتاب المقابلة والمماثلة لجابر بن حيان الصوفي (مخطوطات المكتبة الألمانية).
ب- جابر بن حيان الصوفي - كتاب المقابلة والمماثلة:
Katalog Der Arabischen Alchemistischen Handschrften Deutschlands, Alfred Siggel , Vol. ١١, P. ١٤٢.

(٦) الاعلام، قاموس تراجم تأليف خير الدين الزركلي- الطبعة الثانية- الجزء الثاني ص ٩٠.

(٧) دائرة المعارف البريطانية، ج١٠، الطبعة الرابعة عشرة، ص ٨٣.

(٨) الاعلام، خير الدين الزركلي، الطبعة الثانية، الجزء الثاني ص ٩١.

(٩) كتاب الخواص الكبير لجابر بن حيان (مخطوط) مكتبة المتحف العراقي، ص ٢٨.

(١٠) كتاب الخواص الكبير لجابر بن حيان - (مخطوط)- مكتبة المتحف العراقي، ص ٢٥- ٢٦.

(١١) كتاب الخواص لجابر بن حيان - (مخطوط)- مكتبة المتحف العراقي، ص ٤٦.

(١٢) كتاب الرحمة لجابر بن حيان الصوفي - تحقيق هولمبارد، ص ١٤٧ باريس ١٩٢٨.

(١٣) كتاب المقابلة والمماثلة - راجع المرجع (٢٢).

(١٤) العلم عند العرب- الدوميبلي، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى والدكتور عبد الحليم النجار ص ٩٩ سنة ١٩٦٢.

(١٥) نهاية الطلب- تأليف ايدمر بن علي الجلدكي، (مخطوط)، مكتبة المتحف العراقي ص ٢٧.

(١٦) كتاب اسطقس الاس الثاني لجابر بن حيان الصوفي، تحقيق هولمبارد، ص ٨١ باريس ١٩٢٨.

(١٧) كتاب اسقطس الاس الثالث لجابر بن حيان الصوفي، تحقيق هولمبارد، ص ١٢٣ باريس ١٩٢٨.

(١٨) كتاب البيان لجابر بن حيان الصوفي، تحقيق هولمبارد، ص ٨ باريس ١٩٢٨.

والطلسات وصناعة الذهب[١] وفي كثير من العلوم الأخرى، وقد نال شهرة كبيرة في البلاد العربية في القرن الثامن للميلاد، وعندما نقلت الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية أبان القرن الثالث عشر ذاع صيته في أوروبا حتى اعتبره بعض الكتاب المستشرقين اسطورة[٢] فانكروا وجوده أصلا. ومنهم من حقق بعض المخطوطات وبدأ بتصنيفها إلى ما هي فعلاً من تأليف جابر ومنها ما هي ليس له[٣] ولعل في مقدمة من اخذ بهذا التحقيق هو الأستاذ روسكا وتلميذه بول كراوس وقد بلغ عدد الكتب التي حملت اسم جابر عليها كمؤلف ما يربو على الخمسمائة (١٢) غير ان المصادر الموثوقة والتي أجمع عليها مؤرخو العرب والمستشرقون تشير إلى أنه قد ألف مائة وإثني عشر كتاباً[٤] وأغلب الظن ان الكتب التي ذكرها ابن النديم في الفهرست لا تعدو عن كونها رسائل أو مقالات حيث تشير المصادر التي بين أيدينا إلى أن جابر قد وضع كل كتاب في عدد من المقالات، وعلى سبيل المثال ان كتاب الخواص الكبير (مخطوط) يحتوي على إحدى وسبعين رسالة. ويبدو ان اسم جابر قد سطع منذ القرن الثامن حتى يومنا هذا في المشرق والغرب على السواء إذ قلما نجد كيمياوياً عربياً لم يذكر اسم جابر كمصدر من مصادره الأساسية[٥]، فنعته الجلدكي في كتابه (البرهان في أسرار علم الميزان) بالأستاذ الكبير جابر كما دعاه علي جلبي بن خسرو الازنيقي في كتابه (درر الأنوار في أسرار الأحجار)[٦] بالإمام جابر وأشار آلدوميلي وغيره من المستشرقين إلى أن أكثر الكتب العربية قد فقدت ولم يعثر إلا على عدد قليل منها وإنما وجدت تراجم عديدة تحمل اسم جابر بن حيان يرجع عهدها إلى القرنين الثالث والرابع عشر للميلاد بغية الحصول على ثقة المعنيين بالعلم آنذاك نظراً للشهرة التي اكتسبها جابر بن حيان في الأوساط الغربية. ويشير كراوس إلى أن أمر ارجاع هذه المخطوطات الى أصلها وتمييز ما يعود منها إلى جابر عما يعود لغيره ليس بالأمر العسير حيث ذكر في المجلد الأول من كتابه عن جابر بأنه بتثبيت الكتب الجابرية مقسم إلى طبقات ومرتبة بحسب تعاقبها التاريخي باحثاً في صحتها وقد انتهى إلى ان أغلبها منحولة وانها ترجع إلى مدرسة من الكيميائيين الشيعيين وضعت حوالي سنة ثلاثمائة للهجرة لأغراض سياسية ثم بين بان الرسائل التي حملت اسم جابر في تلك الفترة لم تكن كيميائية فحسب بل تتناول- إضافة إلى الكيمياء- علوماً أخرى كالطب والموسيقى والتنجيم والطلسمات والرياضيات والفلسفة... الخ. وعرض في المجلد الثاني دور (جابر والعلم اليوناني) الفصول الخمسة في المذهب الجابري: الكيمياء وعلم التكوين وعلم الخواص وعلم الميزان وعلم الطبيعة فيتناول كتب جابر في هذه المواضيع ويبرز النقاط الهامة ويجلو الغامض منها وبين الفروق بينهما ثم يصل إلى نتيجة مهمة هي ان المجموعة الجابرية قليلة الشبه بمجموعة كيميائي اليونان القدماء إذ انها أكثر اعتماداً على التجربة وأكثر تنظيماً وأقل رمزاً وغموضاً واعرف بالكيمياء العضوية ووصف المركبات والمواد وصفاً دقيقاً يتناول خواصها وتأثيرها بالعوامل الطبيعية كالحرارة والرطوبة وغيرها، وقد اعتمد رسكا في كتاباته عن جابر بن حيان على بعض المخطوطات العربية التي وجدت في برلين سيما كتاب السموم (٢٤). كما عثر ماكس مايرهوف على مخطوطات عربية عام ١٩٢٦م في المكتبات الخاصة لنور الدين بك مصطفى، واحمد باشا تيمور في القاهرة ومن اكثرها أهمية كتاب الخواص الكبير وكتاب العناصر الأساسية وكلاهما لجابر بن حيان وأشاد الكيمياوي الفرنسي برتلو[٧] بخبرة جابر وعلمه في الكيمياء حيث قال " لجابر في الكيمياء ما لأرسطو قبله في المنطق، فهو أول من استخرج حامض الكبريتيك من الزاج الأزرق ودعاه بزيت الزاج، وأول من اكتشف الصودا الكاوية وأول من اكتشف حامضي التتريك والهيدروليك وعمل مزيجهما ماء الذهب (الماء الملكي) وتنسب إليه تحضيرات مركبات أخرى مثل كاربونات البوتاسيوم وكاربونات الصوديوم، وقد درس خصائص مركبات الزئبق واستحضرها، وتشير المصادر الكثيرة ان لجابر موسوعة في الكتب الكيمياوية وغيرها من العلوم، ولا اود التطرق الى ما كتب عن جابر بن حيان وعمن اثنى على عمله أو عمن كتب في تفنيد عمله وبطلانه إذ ربما ضاق في ذلك مجلد كبير، لقد أقر اكثر الكتاب العرب والمستشرقين صحة بعض الكتب المنسوبة إليه وفي مقدمتها كتاب الخواص الكبير وكتاب الخواص وكتاب الرحمة واحد عشر كتاباً صنفها وحققها ونشرها الأستاذ هولمبارد عام ١٩٢٨ في باريس وسأعتمد في القول عن جابر

(١) كتاب السموم لابي موسى جابر بن حيان الصوفي، المقتطف، ج٣، مج ٥٣، ص ٤٠

(٢) كتاب الخواص الكبير لجابر بن حيان، (مخطوط)، مكتبة المتحف العراقي ص ٢٤.

(٣) كتاب الخواص الكبير لجابر بن حيان (مخطوط)، مكتبة المتحف العراقي ص ٣٨.

(٤) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، الدوميلي، ص ٩٩- ١١١.

(٥) جابر بن حيان:

Paul Kraus , Jabir Ibn Hayyan Contribution al, Histoire Des Idees Scisntifique Dans I Isham, Vol. ٢, ١- ٥٩.

(٦) كتاب الرحمة لجابر بن حيان الصوفي، تحقيق هولمبارد ن ص ١٤٨- ١٥٧ باريس ١٩٢٨.

(٧) كتاب البرهان في اسرار علم الميزان، ايدمر بن علي الجلدكي (مخطوط)، مكتبة المتحف العراقي، ص ١٤.

على هذه المصادر فحسب وهي متوفرة لدي، ولا اخرج عن نطاق محتوياتها إلا بعد الاعتماد على بعض المصادر الموثوقة للمحققين والمستشرقين أو عن المصادر الأولية نفسها، وسأحاول ما استطعت ان أضع جابر بن حيان في مكانه الحقيقي، ضمن الأدوار الخمس التي ذكرتها في مقدمة البحث، فلقد حاول بعض المؤرخين أن يضع جابر بن حيان في الدور الأول فوصف ما جاء به من معرفة علمية لا تعدو كونها مستقاة من العلوم اليونانية القديمة وذهب البعض الآخر في طريق يناقض الأول، فجعله ممن حضر العدد الكثير من المركبات التي لم يعرف بعضها إلا في مطلع القرن التاسع عشر، وهناك فريق آخر حاول المقارنة والموازنة في تقييم أعمال جابر بغية وضعه في دوره الحقيقي، غير ان أغلبهم قد أخفق في ذلك نظراً لكثرة ما كتب عنه وتباين وجهات نظر الكتاب السابقين.

لقد كتب جابر في صناعة الذهب[١] وهو بذلك اشتغل بما كان السائد في الدور الأول ودافع عن رأيه في هذه الصناعة ووضع في ذلك نظرية في تكوين المعادن حيث قال" إن الأجساد كلها في الجواهر زئبق انعقد بكبريت المعدن المرتفع غليه في بخار الأرض وإنما اختلفت لاختلاف أعراضها، واختلاف أعراضها لاختلاف نسبه" وسنأتي على شرح هذه النظرية فيما بعد إذ أنها كانت مقبولة حتى ظهرت نظرية الفلوجستون في القرن السابع عشر كما اشرنا سابقاً. ثم ان جابر قد اشتغل في صنع الاكسير وقد زعم بأنه قد حصل عليه وشفى الكثير من المرضى بوساطته، وقد ذكر في كتابه (كتاب الخواص الكبير)٢٧ حيث قال"وكان معي من هذا الاكسير شيء فسقيتها منه حبتين وعادت إلى أكمل ما كانت عليه في اقل من نصف ساعة زمانية فانكب يحيى على رجلي مقبلاً لها..." وقد ألف كتباً عديدة واذكر ما حقق منها كتاب السموم إذ صنفها إلى أصلها وذكر عدداً كبيراً من السموم المستخرجة من النبات وأخر من الحيوان وثالثاً من الحجر ثم وصف كلا منها ومقدار ما يعطى للمريض. وبذلك قد اشترك جابر في الدور الثاني للعلوم وقد أشار في كتابيه الخواص الكبير وكتاب الخواص إلى تفاعلات كيمياوية وعمليات فنية منها التقطير والتبلور والتصعيد ودرس خواص المواد دراسة علمية دقيقة كما انه تعرف على آيون الفضة النشادري المعقد وقد ذكر ذلك في كتاب الخواص الكبير حيث قال " والفضة اذا شمت رائحة الكبريت اسودت فإذا أصابها الملح ابيضت وصفت وزاد حسنها ومنها النوشادر" وهذا يدل دلالة واضحة على ذوبان أملاح الفضة في هيدروكسيد الامونيوم لتكوينها آيوناً معقداً يذوب في الماء، وقد قصد جابر برائحة الكبريت- بلا شك- كبريتيد الهيدروجين. وتشير المصادر إلى أنه قد حصل على زيت الزاج وهو المادة المعروفة بحامض الكبريتيك في الوقت الحاضر، من تقطير الزاج الأزرق وقد وصف هذا الحامض بأنه الزيت المذيب وأشار إلى ذلك كل من برتيلو[٢] وهوداس[٣] وقد أنكره هولمبارد[٤] حيث عزا ذلك إلى مكتشفين آخرين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كما انه استغل الخطأة العلمية التي وقع فيها الدكتور فيليب حتي في كتابه (تاريخ العرب) حيث أخطأ من الناحية العلمية في تكوين ماء الذهب ولا غرابة في ذلك إذ أن الدكتور حتي مؤرخ وليس كيمياوياً[٥]. وليس من البعيد على من يحضّر زيت الزاج (حامض الكبريتيك) وهو في العراق، من أن يحضّر حامض التتريك وحامض الهيدروكلوريك سيما وان تحضير هذين الحامضين لا يعدو عن تفاعل زيت الزاج مع ملح الطعام في تحضير حامض الهيدركلوريك وعن تفاعل الشورة (نترات البوتاسيوم) مع حامض الكبريتيك (زيت الزاج) في تحضير الحامض الآخر وقد ذكرت العراق خاصة لان الاجر (الطابوق) يؤلف الجزء الكبير من المواد البنائية وتكثر مادة الشورة في البنايات التي تبنى بالاجر وتتعرض للرطوبة وعرفت الشورة منذ زمن بعيد في العراق وربما عرفت في مطلع عهد الدولة العباسية وقد استعملها العامة أخيراً في صنع الألاعيب النارية بعد تصفيتها ومزجها مع مسحوق الفحم دون أن يعرفوا تركيبها ولا أظن أن أحداً قد قرأ ما قام به جابر من العمليات الكيميائية ان يستبعد تحضيره لحامض النتريك وذلك بمزج زيت الزاج (حامض الكبريتيك) الذي اقره عدد كبير من المستشرقين مع الشورة إضافة إلى أن الكيميائيين في أوربا لم يبلغوا شأو جابر إلا في مطلع القرن الثامن عشر وربما في نصفه الثاني لذلك لا أرى مانعاً من قبول الفكرة التي تقول ان جابر قد استحضر حامض النتريك والماء الملكي إلا أنني لم أجد ما يشير إلى هذا في النصوص المحققة والموثوقة والمتفق عليها وأغلب الظن ان هؤلاء المستشرقين لم يعرفوا طبيعة العراق أو كمية الشورة المتراكمة على جدران المباني التي تتعرض للرطوبة، هذا وسأحاول جاهداً في التفتيش عن مصادر موثوقة أخرى لأظهر صحة ما تقدمت به أو بطلانه. ان هذه العمليات الكيمياوية التي ذكرها جابر في الكتب والمخطوطات

(١) درر الانوار في اسرار الاحجار، علي جلبي بن خسرو الازنيقي (مخطوط) مكتبة المتحف العراقي، ص ٧.

(٢) الكيمياء في القرون الوسطى:
M. Berthelot , La Chimie Moyen Age Col. ٢, Paris ١٨٨٥.

(٣) كتاب الايضاح لجابر بن حيان الصوفي، تحقيق هولمبارد، ص ٥٤- ٥٨.

(٤) هوداس، العلم عند العرب – الدومييلي، ص ١٠٦، عام ١٩٦٢.

(٥) العلم عند العرب، الدومييلي، ص ١٠٧- ١١١، عام ١٩٦٢.

المتوافرة لدينا والتي ذكرتها آنفاً تشير دون شك إلى براعته في عمليات الكيمياء وإبداعه في تصميم الأفران والبوتقات تلك العمليات الكيمياوية والدراسة العلمية المضبوطة التي لم تصل إليها أوربا إلا في مطلع القرن الثامن عشر وهو بذلك يدخل الدور الثالث من العلم.

وهكذا نرى جابر قد أحاط بما ألفه اليونان من فلسفة ونظرة إلى الكون والمادة وفي صناعة الذهب ثم تطرق إلى استخراج العقاقير والأدوية والسموم ودرس خواصها وكذلك صمم الأجهزة الكيمياوية ودرس المواد وتفاعلاتها دراسة علمية تكاد توصله إلى مرتبة العلم الحديث.

إن النظرية التي أتى بها جابر بن حيان من أن العناصر جميعها تتألف من الزئبق والكبريت الطاهر وتختلف العناصر عن بعضها بنسب اتحاد الزئبق والكبريت وتفاوتهما لها أساساً ودلائلها، وقد مثل جابر تكوين العناصر في باطن الأرض- كتكوين الجنين في الرحم حيث أشار إلى المادة التي يتفاعل خلالها الزئبق بالكبريت في باطن الأرض ونقاوتهما ونسبتهما الأمر الذي جعله يبتدع الفرن والبودقة ليعيد ما يجري في الطبيعة وقد أشار في أكثر من مصدر على طلبته ان يتبنوا الأمر ولا يتعجلوا ويقتفوا أثر الطبيعة في صناعة الذهب. والحقيقة ان هذه النظرية التي اعتبرها مايرهوف مفتاح نظرية الفلوجستون هي أعظم فكراً وأعمق تأملاً من نظرية الفلوجستون التي جاءت بعد نظرية جابر بعدة قرون تقريباً. فنظرية الفلوجستون تتضمن خروج روح الاشتعال من العنصر عندما يتحول إلى الكالكس (الاكسيد). أي ان العنصر يخسر روحا (ولها وزن) عندما يتحول على الاوكسيد والدليل واضح على ذلك إذ اعتبر أنصار هذه النظرية ان عنصر الكاربون يحتوي على كمية كبيرة من هذه الروح حيث لا يتخلف بعد خروجها إلا قليلاً من الرماد وهم بذلك قد اغفلوا بل جهلوا تكوين الغازات مثل ثاني اوكسيد الكاربون والحقيقة أن الكاربون (الفحم) عند احتراقه يزدد وزناً الزيادة كبيرة ولكن الناتج يكون على هيئة غاز ثاني أوكسيد الكاربون، فكل اثني عشر غراماً من الكاربون يتحد باثنين وثلاثين غراماً من الأوكسجين لتكوين غاز ثاني اوكسيد الكاربون ولو فطن أنصار نظرية الفلوجستون إلى تكوين الغازات سيما غاز ثاني اوكسيد الكاربون في هذه الحالة لأدركوا أن هناك زيادة في الوزن ولم ينتبه الفلوجستونيون الى ذلك حتى أدركها الكيمياوي الفرنسي لافوازيه فاثبت خطأ هذه النظرية. أما جابر فقد اعتبر العناصر كلها مؤلفة من عنصري الكبريت والزئبق للأسباب الآتية:

١- إن أغلب العناصر التي عرفت في عهده قد استخرجت من كبريتيداتها بالتحميض أو (بالتشويه) كما ذكرها هو حيث تنبعث غازات الكبريت كثاني أوكسيد الكبريت وغيره أثناء تعدينها.

٢- ان أكثر العناصر التي حضرت في ذلك الوقت قد عانت من كبريتيداتها الأمر الذي يدعو المنتبه لهذه الحقيقة إلى الإيمان بوجود الكبريت في جميع ما استخرج من المعادن آنذاك كما كتب جابر في الكبريت كثيراً ووصف جميع صوره المعروفة في الوقت الحاضر من الكبريت الذهبي (زهر الكبريت) والكبريت العمود والكبريت المطاط.. الخ.

٣- ان اعتبار الزئبق من الأساسين الرئيسين في تكوين المعادن جميعها يرجع إلى ان الزئبق يكون أكثر المعادن ملائماً فهو يتحد ببعضها اتحاداً كيمياويا عن طريق تكوين (الاصرة المعدنية) والتي لم تعرف الا في القرن العشرين[١] فيغير من صفات المعادن نفسها ويظهرها بمظهر آخر الا انه يتحد ببعض المعادن البخسة التي عرفت آنذاك والتي لم يعرف منها سوى الحديد وقد أشار جابر بن حيان إلى ذلك في أكثر من موضع في كتابه (كتاب الخواص الكبير). ونتيجة لما قام به جابر من الدراسات فقد تعرف على كثير من مركبات الزئبق كالسليماني وأوكسيد الزئبق الأحمر ولا أظن ان كيمياويا يشك في ان نظرية جابر في تكوين المعادن أكثر عمقا من نظرية الفلوجستون التي أوضحناها آنفا، وبهذا يكون جابر قد وضع قدما في الدور الأول للعلم وآخر في الدور الرابع له.

ولابد لي ان اقول لمن استكثر على جابر تحضير المركبات كالكحول وحامض الخليك وزيت الزاج والماء الملكي ان الاستكثار ليس في موضعه، هذا وسأواصل البحث في الحصول على مصادر أصيلة لجابر لأتمكن من اثبات ما تقدمت به او تعديله.

وعجبت كثيراً لمن أدعى أن أوربا في القرن الثاني عشر والثالث عشر قد اتت بما لم يأت به جابر بن حيان الذي جاء في أواخر القرن السابع عشر اعتمد عليه كثيراً وأثني على عمله ثناءً عاطرا كما ان أوربا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر لم تكن لتعرف العلوم ومن ضمنها الكيمياء الا عما نقله العرب من اليونانيين وما أضافوا إليه.

ولا اتفق مع ما ذهب إليه آلدوميلي[٢] من ان حامض النتريك وبعض الحوامض المعدنية الأخرى قد عرفها بعض الأوروبيين خلال القرنين المذكورين (الثاني عشر والثالث

---

(١) العلم عند العرب، الدوميلي، ص ١٠٧- ٢١١، عام ١٩٦٢.

(٢) طبيعة الأواصر الكيمياوية:

The Nature of The Chemical Bonds, L. Pauling ١٩٤٨, Cornell Univ. Press.

عشر) ولو انه ذكر ذلك في القرنين السابع عشر والثامن عشر لكان الأمر أكثر وجاهة.

على ان ما جاء عن جابر بن حيان بحد ذاته في القرن الحادي عشر والثاني عشر من المخطوطات العربية لا يخلو من كثير من الالتباس حيث تدخلت السياسة والفرق الباطنية في ذلك فمنهم من جعل جابرا بمصاف الأئمة ومنهم من اعتبره تلميذا روحانيا للإمام جعفر الصادق. الا ان الكتاب الذي اقره المستشرقون والعرب على حد سواء من انه لجابر وهو كتاب الرحمة يكفي للرد على التقولات التي ذكرتها سابقا إضافة إلى المخطوطة التي حققها المستشرقون وهو كتاب الخواص الكبير والذي لا يدع مجالا لأحد ان يسبقه في اوربا قبل القرن الثامن عشر.

وهنالك أدلة كثيرة تشير إلى معرفة جابر للميزان المضبوط سيما في صنع العملة الذهبية في عهده وقد علمت من أحد زملائي الذين حصلوا على درجاتهم العلمية في أمريكا انه اشتغل على تحليل العملات الذهبية في عصر هارون الرشيد والذي هاله كما كان موضع أعجاب أستاذه عندما ما وجد ان تلك العملات الذهبية لا يختلف وزن بعضها عن البعض الآخر الا بما يقل عن واحد بالمائة من المثقال[1] الأمر الذي يدل دلالة واضحة على ان جابر بن حيان قد توصل إلى وجدان الميزان التحليلي أو ما يشابهه من حيث الكفاءة في الوزن.

حمّاد الراويـــــة

شخصيته :

هو حمّاد بن سابور بن المبارك بن عبيد المكنى بأبي القاسم[2]، فيما قال ياقوتُ الحموي[3]: (إنهُ حمّاد بن ميسرة بن المبارك بن عبيد الديلمي مولى بني بكر بن وائل، وقيل مولى مكنف بن زيد الخيل)، لذلك قيل هو: حمّادُ بن أبي ليلى[4] فيما قال ابن قتيبة: إنَهُ حمّاد بن هرمزان، وإنَّ والده من سبي مكنف بن زيد الخيل، أو من سبي أخيه عروة بن زيد الخيل[5]، وقال أبو بكر محمدُ بن الحسن الزبيدي: هو حمّادُ بن هرمز ويكنى أبا ليلى، وهو رأسُ الطبقة الأولى من اللغويين الكوفيين[6] يلقبُ بالراوية، لُقب بذلك لكثرة ما كان يروي من الشعر العربي، وقد سأله الوليد بن يزيد الخليفة الأموي عن اللقب قائلاً[7]: بم استحققت هذا اللقب؟ فقيل لك: حمّاد الراوية؟ قال: لأني أروي لكل شاعر يعرفهُ أمير المؤمنين أو سمع به، ثم اروي لمن تعترفُ بأنك لا تعرفهم ولا سمعت بهم، ثم لا أُنْشَدُ شعراً لقديم أو محدث إلا ميزتُ القديم منه من المحدث.

قال: إنَ هذا لعلمٌ، وأبيك، كثير، فكم مقدارُ ما تحفظ؟

قال كثيرٌ ولكني أنشدك على أي حرف من حروف المعجم مئةَ قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية.

قال: سأمتحنك، وأمرهُ بالإنشاد، وأنشدهُ حتى ضجر الوليد.

وفي رواية أخرى أنه قال الوليد بن يزيد[8]: (اروِ سبعمائة قصيدة أول كلٍّ واحدة منها بانت سعاد)، ثم استخلف على الاستماع منه خليفةً حتى وافاه ما قال) إذ أنشدهُ ألفين وتسعمائة قصيدة لجاهليين، فأمر بمائة ألف درهم[9]، لذلك كان حمّاد هو الراوية المقدُم من بين الرواة عند الوليد بن يزيد[10]، وحمّادُ الراوية ينحدرُ من أصل غير عربي، إذ كان أبوهُ سابور، المكنى بأبي ليلى من سبي الديلم، وسباه مكنف بن زيد الخيل الطائي، ووهبه إلى ابنته ليلى[11]، ومن هنا أرجحُ أنه اكتسب الكنية (أبو ليلى)، وخدم سابور ليلى خمسين سنة، وبعد وفاتها اشتراهُ عامرُ بن مطر الشيباني بمئتي دينار وأعتقه[12]، وقد ولد حمّاد الراوية سنة ٧٥هـ في الكوفة[13]، وقيل سنة ٩٥هـ[14] وهو الأرجح، وأنا أرجّحُ هذا الرأي.

في مسجد الكوفة نشأ وتعلم، قال يصف مسجد الكوفة[15]: (شاهدنا في هذا المسجد قوماً، كانوا إذا خلعوا الحذاءَ، وعقدوا الحُباءَ وقاسوا أطرافَ الحديثِ، حيروا السامعِ، وأخرسوا الناطق)، وحمّاد الراوية، هو من رواة الكوفة، فقد ذكر جرجي زيدان، أنَّ رواة الكوفة هم: حمّاد الرواية، ولقبه الحرجوبي، وجناد، وابن الجصاص والمفضل الضبّي[16] قال ابن البطاح[17]: (كان حمّادُ الراوية في أول أمره يتشطر

(١) العلم عند العرب، الدوميلي، ١٩٦٢، ص ١٠٧.
(٢)ينظر الفهرست: ١٠٤.
(٣) ينظر معجم الأدباء: ١٠/ ٢٥٨.
(٤) ينظر الفهرست: ١٠٤.
(٥) ينظر المعارف: ٣٣٣.
(٦) ينظر طبقات النحويين واللغويين: ١٩١ إلا أن ترجمته سقطت من الكتاب ووضعت بدلاً عنها نقاط.
(٧) ينظر الأغاني: ٦/ ٨٧.
(٨) م. ن: ٦/ ٨٩.
(٩) ينظر معجم الأدباء: ١٠/ ٢٦.
(١٠) ينظر الأغاني: ٦/ ٨٦.
(١١) ينظر الفهرست: ١٠٤.
(١٢) ينظر: م..ن: ١٠٤.
(١٣) ينظر: م. ن: ١٠٤.
(١٤) ينظر الفهرست:١٠٤، وفيات الأعيان: ٢/ ٢٠٩.
(١٥) البصائر والذخائر: ٨/ ٢٤.
(١٦) تاريخ آداب اللغة العربية: ٢٦٩.
(١٧) خزانة الأدب: ٩/ ٤٥١، وينظر الأغاني: ٦/ ٨٧.

(كان حمّادُ الراوية في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك، فنقب ليلة على رجل، وأخذ ماله فكان فيه جزءٌ من شعر الأنصار، فقرأهُ حمّادٌ، فاستحلاه وتحفظهُ، ثم طلبَ الأدبَ، والشعرَ، وأيام العربِ، ولغاتها بعد ذلك ترك ما كان عليه، فبلغ في العلم ما بلغ)، وكان ذلك الشعرُ يمثلُ نقطة التحول في حياته الشخصية ؛ إذ تحول من اللصوصية والصعلكة إلى رواية الشعر وإنشاده، وذلك بعد ان ثاب إلى رشده، وتاب إلى ربه سبحانه وتعالى، فاختار المعلقات السبع، أكد ذلك ابن النحاس في قوله[1]: (إنّ حمّاداً هو الذي جمع السبع الطوال)، وبدأ ذكرهُ يشيعُ في عالم رواية الشعر ونقده وإنشاده، ويزدادُ ألقاً وبريقاً ولمعاناً يوماً بعد يومٍ، حتى صار أعلمَ الناس، في أخبار العرب، وأنسابها وأشعارها، وأيامها[2]، حتى قيل له[3]: أما تشبع من هذه العلوم؟ فقال: استفرغنا المجهود، فلما بلغنا المحدود، كنا كما قال الشاعر[من الرجز] :

إذا قطعنا عَلَماً بدا عَلَمُ

ولابد لتلك الشهرة من ثمن يدفعه حمّاد الراوية الذي فاق اسمهُ كبار علماء العربية، ورواة أشعارها المعاصرين له، فبدأ تلاميذهم، وأنصارهم يبغضونه، ويحسدونه على ما وصل إليه من مرتبة علمية عالية، فأخذوا يتهمونه بالكذب، والنحل واللحن، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، ولعل أبرز خصوم حمّاد الراوية المباشرين هم: المفضل الضبي (ت١٦٨هـ) ويونس بن حبيب الضبي بالولاء (ت١٨٣هـ) وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) وأبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت٢١٦هـ) وتلاميذهم، ومحمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي (ت٢٣١هـ)، ومحمد ابن سلاّم الجمحي (ت٤٣٦هـ) وابو حاتم السجستاني (ت٢٥٠هـ)، وابن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ) والشريف الرضي (ت٤هـ) وياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ).

وعندما نسلطُ الضوء على أسماء خصوم حمّاد الراوية نجدُ أولهم المفضل الضبي يمثل الند والمنافس لحمّاد على زعامة الرواية والشعر في الكوفة، وأن ذكره وصيته بدأ بالخفوت، بعد ظهور نجم حمّاد، وكان لابد له من اتخاذ إجراء يوقف به حالة التداعي في مكانته الأدبية، فاتهم حمّاداً، سواء بشكل مباشر، أم بشكل غير مباشر، وأما الآخرون فهم من مدرسة البصرة المنافسة لمدرسة الكوفة، وهدفهم شق صفوف مدرسة الكوفة، لإضعاف موقفها، وذلك من خلال الطعن في شخصية زعيمها حمّاد الراوية، باستثناء ابن الأعرابي الذي كان كوفياً، وابن عبد ربه الأندلسي، ويمكن القول[4]: (إنّ ما نلقاه من اتهامات وتجريحات بين الرواة من البلدين، إنما شاع في القرن الثالث الهجري، هذا القرن الذي شهد تأجج الخصومات بين العلماء البصريين والكوفيين، فتلاميذ الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبي عمرو بن العلاء، وحمّاد الراوية هم المسؤولون عن إشاعة ما كتب من القوال والأحكام التي تنبئ عن تعصب أعمى وتحامل وبغض)، وكان الدكتور ناصر الدين الأسد رجلاً عالماً، عادلاً ومنصفاً، يعرف حق الله وحق التراث العربي ورواته عليه، فقال مفنداً مزاعم أهل البصرة وافتراءاتهم، ممن يتهمون حمّاداً الرواية فقال[5]: (لو كان حمّاد الراوية كما يصفون، لما اعترف أبو عمرو إبن العلاء رأس المدرسة البصرية بفضله وتقديمه على نفسه)، وهذه الشهادة كما تقول الأعراف والتقاليد، هي شهادة رجل من أهلها، وأبو عمرو هو زعيم مدرسة البصرة وكبير رواتها، وأحد القراء السبعة المشهود لهم بالصدق والأمانة، أما أبرز المؤيدين لصحة مرويات حمّاد الرواية وتوثيقها من غير أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ)، فهم: الهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ)، وأبو الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢١٥هـ)، وأبو الطيب اللغوي (ت ٢٥١هـ) وهم بصريون باستثناء الهيثم بن عدي فهو كوفي، وابن الشجري (ت ٥٤٢هـ) فيما كانت آراء أبي حاتم السجستاني تتأرجحُ بين الرفض والتأييد، وسوف نناقش المواقف والآراء كافة، لنصل من خلالها إلى الحقيقة التي يبحث عنها الجميع.

كان حمّاد الراوية شاعراً من الطبقة الوسطى، ولكن لا يرقى شعره إلى مستوى الشعراء الفحول، فقد أكد أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري ذلك في قوله[6]: (لم يكن نقادنا يحسنون قول الشعر كالخليل بن أحمد، وحمّاد الراوية والأصمعي)، وهذا يعني أن حمّاداً الراوية لا يستطيع أن ينظم قصيدة جيدة، فكيف به ينظم قصائد على مستوى الشعراء الفحول وينحلها إياهم؟ ألا ترى معي أنّ ما قاله أبو أحمد العسكري يفندُ كل تلك المقولات ويبطلها، ويبرئ حمّاداً الراوية من تلك التهمة الساذجة الملصقة به، والتي لا تصمدُ أمام الحقيقة والمنطق، ومع ذلك فقد ضاع شعرُ حمّاد الراوية، لم يحفظه الرواة، لضعفه وركاكته، ولأنه لا قيمة فنية له، لذا لم يصل إلينا منه سوى بضعة أبيات، منها هذه القطعة التي تعبر عن حالته المادية المتردية، التي وصل إليها في العصر العباسي، فقد ساقتهُ الحاجة إلى أن يمدح أحد الأشراف من

(١) ينظر معجم الأدباء: ١٠، ٢٦٦.
(٢) ينظر م.ن: ١٠/ ٢٦٥.
(٣) البصائر والذخائر: ٩/ ١٣٧.
(٤) جهود أبي علي المرزوقي في الرواية والنقد واللغة: ٨.
(٥) مصادر الشعر الجاهلي: ٤٤٧.
(٦) المصون في الأدب: ٥.

أجل الحصول على جبة يستر بها بدنه، فقال[1]:

[من الخفيف]

إنّ لي حاجةً فرأيكَ فيها
لكَ نفسي فدىً من الأوصابِ
وهي ليستُ مما يبلغها غيـ
ري ولا يستطيعها في كتابِ
غير أنّي أقولها حينَ ألقا
كَ رويداً أسرُها في حجابِ

إلى أن يقول:

إنّني عاشقٌ الدكـ
ناء عشقاً قدْ حالَ دونَ الشرابِ
ألبِسَنْها فدتكَ نفسي وأهلي
أتباهى بها على الأصحابِ
ولكَ الله والأمانة أنْ أجـ
علها عمرها أميرَ ثيابي

فالذي يريقُ ماء وجهه، ويمدح رجلاً من أجل جبة يلبسها ليستر بها جسمه من العراء، هو رجلٌ بائسٌ، فقيرٌ، معدمٌ، لا حول له ولا قوة، ولو كان وضاعاً ونحالاً، لكانت له ثروة تكفيه شر الحاجة وسؤال الناس، ولكن ذلك لم يحصل، فقد مات حمّاد الرواية فقيراً معدماً لا يملك شيئاً.

توفي حمّاد الراوية في سنة ١٥٥هـ[2]، فيما قال أبو الفرج الأصفهاني: إنّه توفي في سنة ١٥٦هـ[3]، بعد أنْ عاش ستين سنة، ودُفن في ماسبذان بالقرب من قبر المهدي العباسي[4] الذي رثاه مروان بن أبي حفصة في قوله [من الطويل]:

وأكرمُ قبرٍ بعدَ قبرِ محمدٍ
نبي الهدى قبرٌ بماسبذانِ

في هذا الرثاء مبالغة لا يقبلها العقل، فالمهدي العباسي ليس أفضل من آل بيت رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم)، ولم يكن أفضل من الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين (رضوان الله عليهم أجمعين)، فالمهدي رجلٌ حكم الدولة العباسية، مدة من الزمن، فحسب ليس أكثر، وإذا كان مروان بن أبي حفصة، منحرفاً عن العلويين، مظاهراً عليهم، ومنحازاً للعباسيين، فضلاً عن كونه رجلاً ضعيف الدين، ومن أصحاب النفوس المريضة، والضمائر الميتة، فلا نعجب بعد ذلك من قول هذا.

وحمّاد الرواية هو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وبعد وفاته رثاهُ عدد من الشعراء، منهم محمد بن كناسة، في قوله[5] [من المنسرح]:

أبعدت من نومك الغرار فما
جاورت حيثُ انتهى بك القدرُ
لو كان ينجي من الردى حذرٌ
نجاك مما أصابكَ الحذرُ
يرحمُك اللهُ من أخٍ يا أبا
القاسم ما في صفائه كدرُ
فهكذا يفسدُ الزمانُ ويفنى
العلم منهُ ويدرسُ الأثرُ

صنع حمّاد الراوية كتاباً، جمع فيه كلّ ما كان يحفظ ويروي من أشعار العرب، والكتاب كان قيد التداول بين الرواة والنقاد والعلماء، فقد كانت نسخةٌ منه عند أبي العباس ثعلب، دل عليها روايته لقصيدة زهير بن أبي سلمى ذات المطلع:

[من الطويل]

ويومَ تلاقَيْتُ الصَّبَا أنْ يفوتني
برحبِ الفروجِ ذي محالٍ مُوَتَّقِ

فقد قال محققُ الديوان: هذه القصيدة رواها ثعلب نقلاً عن كتاب حمّاد[6] وكذلك كانت نسخةٌ من الكتاب عند الراوية هشام بن محمد الكلبي حين أورد قصيدة لعامر ابن الطفيل فقال:[7] أصبتها في كتاب حمّاد خلاف روايتنا.

وكذلك رآهُ أبو حاتم السجستاني ونقل منه، كما أشار إلى ذلك ابن الشجري[8]، لكن المؤسف له حقاً هو ضياع الكتاب وفقدانه، ولو قدر لهذا الكتاب أن يصل إلينا، لوصلنا شعرٌ غزيرٌ، ولحمّاد الراوية آراءٌ نقديةٌ كثيرةٌ مبثوثة في أثناء المصادر القديمة، يعرفها العلماء الرواة والنقاد ويتداولونها، فقد نقل الرواة والنقاد عن حمّاد الرواية قوله:[9] (أحسنُ الجاهلية تشبيهاً امرؤ القيس، وذو الرمة أحسنُ أهل الإسلام تشبيهاً)

(١) ينظر الأغاني: ٦/ ٨٣.
(٢) ينظر معجم الأدباء: ١٠/ ٢٦٦.
(٣) ينظر الأغاني: ٦/ ٨٣.
(٤) وفيات الأعيان: ١/ ٤٥١.
(٥) ينظر معجم الأدباء: ١٠/ ٢٦٦، الفهرست: ١٠٤.
(٦) ينظر شرح ديوان زهير: ٣١١.
(٧) ينظر ديوان المفضليات بشرح ابن الانباري:٣٣.
(٨) مختارات أشعار العرب: ٤٤١، ٤٥٦.
(٩) الأغاني: ١٨/ ٩، وينظر خزانة الأدب: ١/ ١٠٧.

وقد أجمع العلماء البصريون والكوفيون على صحة ذلك، ولكن الشيء اللافت للنظر، هو أنّ محمد بن سلام الجمحي ينقلُ الرأي في طبقاته، ولا يعزوه لقائله، لعلة في نفسه، فقد قال:[1] (كان علماؤنا يقولون: أحسنُ الجاهلية تشبيهاً امرؤ القيس وأحسنُ أهل الإسلام ذو الرمة) والعلماءُ هم في حقيقة الأمر، قالوا برأي حمّاد الراوية، ألا ترى أنّ ابن سلام يكابر ولا يريد أن يعترف بفضل حمّاد الراوية على الرواية والنقد، لمجرد أنه رأس ما يسمى بمدرسة الكوفة، المنافسة لمدرسة البصرة، التي ينتمي إليها، كما قال حمّاد الرواية:[2] (كانت العربُ تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردوه كان مردوداً، فقدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها [من البسيط]:

هلْ ما علمتَ وما استودعتَ مكتومُ

أمْ حبلها إنْ نأتكَ اليومَ مصرومُ

قالوا: هذه سمطُ الدهر، ثم عاد إليهم في العام المقبل فأنشدهم [من الطويل]:

طحا بكَ قلبٌ في الحسانِ طروبُ

بُعيدَ الشبابِ عصر حانَ مشيبُ

فقالوا هاتان سمطا الدهر والعلماء والرواة والنقاد يتفقون على صحة تلك الرواية، وحينما أراد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، معرفة أشعر شعراء عصر ما قبل الإسلام، بعث يحيى بن سليم إلى حمّاد الرواية يسأله عن أشعر الشعراء، فأجاب ذلك الأعشى صناجتها[3]، وقال عمرُ بن شبة:[4] (قال معاوية بن بكر الباهلي: قلت لحمّاد الرواية: بم تقدم النابغة؟ ذال: باكتفائك بالبيت الواحد من شعره، لا بل بنصف بيت، لا بل ربع بيت مثل قوله:

حلفتُ فلمْ أتركْ لنفسكَ ريبةٌ

وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ

والعلماء والرواة والنقاد من أهل البصرة والكوفة يؤكدون ذلك ويتفقون على صحته وقال حمّاد الراوية:[5] (نظر النابغة الذبياني إلى لبيد بن ربيعة، وهو صبيٌ مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر، فسأل عنه فنسب إليه، فقال له: ياغلام إن عينيك لعينا شاعر، أتقرضُ من الشعر شيئاً؟ قال: نعم. فأنشدني شيئاً مما قلت، فأنشده قوله [من الوافر]:

ألم تريعْ على الدمنِ الخوالي

فقال لهُ: يا غلام أنت أشعر بني عامر يا بني فأنشده [من الكامل]:

طللٌ لخولة بالرسيسِ قديمُ

فضرب بيديه إلى جنبيه وقال: اذهب فأنت أشعر من قيس كلها)، وما قاله حمّاد الرواية، يتفق مع مستوى شاعرية لبيد بن ربيعة، فهو من شعراء الطبقة الثالثة الجاهلية، عند أبي عبيدة، وابن سلام.

وآراؤه النقدية كثيرة، لا يخلو منها كتاب نقد، أو ديوان شاعر، أو كتب المجاميع الشعرية، مثل الحماسات وغيرها.

موارده الثقافية :

حمّاد الراوية وبعد أن وقع بين يديه كتاب أشعار الأنصار واطلاعه عليه، حدثت في حياته نقطة التحول الحاسمة، فتحول مسار خط حياته من الصعلكة واللصوصية إلى حلقات العلم والأدب ورواية الشعر ونقده، فحفظ القرآن الكريم من المصحف[6]، فتكونت لديه ثقافة عالية، ومعرفة واسعة، حتى أصبح علماً بارزاً بين علماء العربية في حقل رواية الأشعار والأخبار والنقد، وقبل الشروع بمحاكمة حماد الراوية، لابد من معرفة موارده الثقافية، وهي كما يأتي:

١-خروجه إلى البادية والتقائه برواة القبائل، ورواة الشعراء، وأولادهم وأحفادهم، فضلاً عن الشعراء الذين كان يستقبلهم في الكوفة، فيسمع منهم ويتبادل معهم رواية الأشعار والأخبار والأيام، ويستمع إلى آرائهم النقدية ويناقشهم فيها، فكان يحفظ ويدون كل ما كان يسمع، فضلاً عن أنه كانت له حلقات درس في مسجد الكوفة، وهي حلقة درس مشهورة، كان لها مريدون كثيرون، كما كان يعقد مجلساً خاصاً في بيته يحضره عدد من علماء اللغة والأدب والنقد والأنساب، وبعض الأعراب الوافدين إلى الكوفة، فيستشهدهم ما يحفظون ويدونه في رقوق وقراطيس[7].

٢- كل ما كان يحفظه حمّاد الراوية، ويرويه كان مدونا عنده في رقيق وقراطيس، وذلك خوفاً عليه من الضياع والنسيان، فالوليد بن يزيد بن عبد الملك حينما أراد جمع أشعار العرب، وأخبارهم، وأنسابها، ولغاتها في ديوان موحد، استعار من حمّاد الرواية ما كان بحوزته من الرقوق

(١) طبقات فحول الشعراء: ١/ ٥.
(٢) الأغاني: ٢١/ ٢٠١.
(٣) م.ن: ٩/ ١١.
(٤) م.ن: ١١/ ٧- ٨.
(٥) م.ن: ٣٧٦- ٣٧٧.
(٦) وفيات الأعيان: ٢١/٢.
(٧) مراتب النحويين: ٧٢.

والقراطيس، فنسخها ودونها عنده، ومن ثم أعادها إليه[1]، وهذا يعني أن مكتبة حمّاد الراوية كانت معروفة عند الخلفاء والولاة، فضلاً عن العلماء والنقاد والرواة.

٣- كانت لدى حمّاد الرواية مكتبة عامرة بكتب الأدب، ولاسيما أشعار القبائل، وكتب الأنساب وأيام العرب، ولغاتها، فقد قال حمّاد الراوية[2]: (أرسل الوليد بن يزيد إلي بمئتي دينار، وأمر يوسف بن عمر بحملي إليه على البريد، قال: فقلت: لا يسألني إلا عن طرفيه: قريش وثقيف «أعمامه وأخواله» فنظرت في كتاب قريش وثقيف، فلما قدمت عليه سألني عن أشعار بلي، فأنشدته منها ما استحسنه)، وهذا يؤكد بما لا يقبل الشك، أنّ دواوين القبائل كانت ضمن موجودات مكتبته.

٤- مناظراته الأدبية والثقافية في حلقات الدرس المختلفة، مع علماء ورواة عصره، فهو يتبادل معهم الرواية، والأخبار الثقافية، والآراء النقدية، فيأخذ منهم ويعطيهم، فضلاً عن علاقاته الجيدة والوطيدة مع زعيم مدرسة البصرة العالم، أبي عمر بن العلاء الذي قال عن حماد الراوية[3]: (ما سمع حمّاد الراوية حرفاً إلا سمعته) وهذه شهادة رجل من أهلها، كما كانت له علاقة جيدة مع المفضل الضبي، وخلف الأحمر، والأصمعي، وأبي نؤاس وغيرهم سيطلع عليها القارئ الكريم من خلال البحث، فضلاً عن زياراته المتكررة والمتواصلة لمدينة البصرة، والتقائه بأعلامها من الولاة والرواة والنقاد ولاسيما أبو عمرو بن العلاء، وخلف الأحمر، وبلال بن أبي بردة المهلبي والي البصرة[4].

دعبل بن علي الخزاعي

ولد سنة ١٤٨، أوفي لسان الميزان ١٤٢، وتوفي سنة ٢٤٦ في تاريخ بغداد بالطيب (وهي بلدة بين واسط العراق وكور الأهواز) وعاش ٩٧ سنة وشهوراً من سنة ثمان وفي عقد الجمان للشيخ مفلح بن حسين الصميري مختصر مرآة الجنان لليافعي إنه توفي سنة ٢٤٤ وقيل ٢٤٦ هـ وفي رسالة ما اشتهر من العلوم والعلماء المجهولة المؤلف أنه توفي سنة ٢٤٤ وفي الأغاني توفي بقرية من نواحي السوس ودفن بتلك القرية وقيل: بل حمل إلى السوس فدفن فيها.

(١) الفهرست: ١٠٣.

(٢) الأغاني: ٦/ ٨٩.

(٣) مراتب النحويين: ٧١.

(٤) حمّاد الراوية كبير رواة الشعر العربي المقرئ عليه، جمع وتحقيق وشرح الدكتور عبد اللطيف محمد بن الطائي، دار الهلال، دمشق ٢٠١٠، ص١٣ وما بعدها.

سبب موته :

في تاريخ دمشق اختلف في سبب موته فقيل: هجا المعتصم فقتله وقيل: هجا ابن طوق التغلبي فأرسل إليه من سمه بالسوس وفي الأغاني أنه لما هجا مالك بن طوق بعث مالك رجلاً حصيفاً مقداماً وأعطاه سما وأمره أن يغتاله كيف شاء وأعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم فلم يزل يطلبه حتى وجده في قرية من نواحي السوس فاغتاله بعد صلاة العتمة فضرب ظهر قدمه بعكاز لهازج مسموم فمات من الغد ودفن بتلك القرية وقيل: بل حمل إلى السوس فدفن فيها.

ولما مات وكان صديق البحتري وكان أبو تمام قد مات قبله رثاهما البحتري بقوله:

قد زاد في كلفي وأوقد لوعتي
مثوى حبيب يوم مات ودعبل
أخوي لا تنزل السماء مخيلة
تغشاكما بسماء مزن مسبل
جدت على الأهواز يبعد دونه
مسرى النعي ورمة بالموصل

نسبه :

في الأغاني هو دعبل بن علي بن رزين بن سليمان بن تميم بن نهشل بن خداش بن خالد بن عبد بن دعبل بن أنس ابن حزيمة بن سلامان بن أسلم بن أقصى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن مزيقا، وفي تاريخ بغداد دعبل بن علي إبن رزين بن عثمان بن عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي الشاعر ومثله في تاريخ دمشق وزاد نسبه بمضر الشاعر المشهور، وفي معجم الأدباء والأكثر على الثاني.

هو خزاعي بالولاء أم بالنسب :

في لسان الميزان بالولاء، كان جده رزين مولى عبدالله بن خلف الخزاعي والد طلحة الطلحات وقيل: إنه من ولد بديل بن ورقاء الصحابي، وعلى القول الثاني فهو خزاعي بالنسب لا بالولاء ويأتي في أخباره مع المطلب بن عبدالله الخزاعي شهادة أبي دلف له أمام المأمون بأنه من خزاعة أنفسهم لا من مواليهم.

كنيته :

في الأغاني وتاريخ بغداد وتاريخ دمشق وغيرها إن كنيته أبو علي وعن محمد بن أيوب أن كنيته أبو جعفر، والمشهور في كنيته هو الأول ولعله يكنى بهما.

الخلاف في اسمه :

في تاريخ بغداد زعم أحمد بن القاسم أخو أبي الليث الفرائضي أن اسمه الحسن وقال ابن أخيه علي بن إسماعيل ابن علي اسمه عبد الرحمن وقال غيرهما اسمه محمد، ولوقوع الاختلاف في اسمه ذكرناه بلقبه مع أنه مشهور به لا باسمه.

ما هي كلمة دعبل :

في تاريخ بغداد زعم أحمد بن القاسم أخو أبي الليث الفرائضي أن دعبلاً لقب وبسنده عن إسماعيل بن علي الخزاعي إنما لقبته دايته دعبلاً لدعابة كانت فارادت ذعبلاً فقلبت الذال دالاً، وفي الأغاني بسنده عن محمد بن أيوب أن دعبلاً لقب لقب به، وبسنده عن أبي هفان عن دعبل قال لي أبو زيد الأنصاري ممن اشتق دعبل قلت: لا أدري قال: الدعبل الناقة التي معها ولدها، وعن أبي عمرو الشيباني الدعبل البعير المسن أو الناقة المسنة وفي لسان الميزان هو اسم الناقة الشارف ويقال أيضاً للشيء القديم وعن حذيفة بن محمد الطائي الدعبل الشيء القديم، وفي القاموس: الدعبل كزبرج بيض الضفادع والناقة القوية والشارف وشاعر خزاعي رافضي، وفي الأغاني عن الأخفش عن المبرد عن دعبل: كنت جالساً مع بعض أصحابنا فلما قمت سأل رجل عنه فقالوا: هذا دعبل فقال: قولوا في جليسكم خيراً كأنه ظن اللقب شتماً وبهذا السند عن دعبل قال: صرع مجنون مرة بحضرتي فصحت في أذنه دعبل ثلاث مرات فأفاق، وفي رواية أفاق من جنونه، فهل ذلك من بركة هذا اللقب أو من عدم أطاقة المصروع لسماعه.

أبوه :

في الأغاني بسنده عن دعبل قال لي أبي علي بن رزين ما قلت شعراً قط إلا هذين البيتين:

خليلي ماذا أرتجي من غد امرئ
طوى الكشح عني اليوم وهو مكين
وإن امرءاً قد ضن منه بمنطق
يسد به فقر امرئ لضنين

وبيتين آخرين وهما:

أقول لما الموت يطلبني
يا ليتني درهم في كيس مياح
فيا له درهماً طالت صيانته
لا هالك ضيعة يوماً ولا ضاحي

يظهر أن مياحاً هذا كان من البخلاء.

صفته :

في تاريخ بغداد بسنده عن أبي بكر أحمد بن القاسم أخي أبي الليث الفرائضي كان دعبل بن علي أطروشاً وكان في قفاه سلعة وفي رواية في عنفقته، في الأغاني بسنده: نظر دعبل يوماً في المرآة فجعل يضحك وكن في عنفقته سلعة فقلت له: من أي شيء تضحك قال: نظرت إلى وجهي في المرآة ورأيت هذه السلعة التي في عنفقتي فذكرت قول الفاجر أبي سعد:

وسلعة سوء به سلعة
ظلمت أباه فلم ينتصر

مجمل القول فيه :

كان شاعراً مفلقاً فصيحاً شهد له بذلك أشعر شعراء عصره ونقله حسن شعره من الفقر والخمول إلى الغنى والظهور وكان سبباً في منادمة الرشيد له وكان متفنناً في فنون الشعر مادحاً هجاء لاذع الهجاء يستميح بشعره على عادة أكثر الشعراء فيمدح الخلفاء والملوك والأمراء ويهجو من لم يرض عطاءه منهم جريئاً على الملوك والأمراء شجاع القلب قوي النفس فطناً ذكياً عالماً مؤلفاً متشيعاً لأهل البيت ذاباً عنهم وتائيته فيهم أشهر من (قفا نبك) وروى الأخبار ورويت عنه أصله من الكوفة أو قرقيسيا وسكن بغداد وجاب البلاد خراسان والشام ومصر وبلاد المغرب وحكى صاحب الأغاني أنه كان يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى وإنه أنشد لنفسه في بعض أسفاره قوله:

حللت محلاً يقصر البرق دونه
ويعجز عنه الطيف أن يتجشما

ومدح الملوك والأمراء وأخذ جوائزهم وهجا جملة منهم ويلوح من كلام ابن طاهر فيما حكاه عنه صاحب تاريخ دمشق أن هجاءه لهم بعد إحسانهم إليه كان قلة وفاء منه والحق أنه ليس كذلك وإنما كان هجاؤه لهم لسوء عقيدته فيهم بإساءتهم إلى أهل البيت الذين أخلص بالتشيع لهم وبلغ الغاية في ذلك فهو كوفي المنبت والكوفة منبع التشيع خزاعي المنسب وخزاعة كانت حلفاء هاشم في الجاهلية وعرفت بالتشيع لأهل البيت في الإسلام أو يهجوهم لابتدائهم بالإساءة كما ستعرف عند الكلام على شعره.

أقوال أصحابنا فيه :

في الخلاصة دعبل بكسر الدال وإسكان العين المهملتين وكسر الباء الموحدة وبعدها لام ابن علي الخزاعي أبو علي الشاعر مشهور في أصحابنا حاله المشهور في الإيمان وعلو المنزلة عظيم الشأن (رحمه الله تعالى) وقال النجاشي دعبل بن علي بن رزين بن عثمان بن عبد الرحمن بن عبدالله بن بديل بن

ورقاء الخزاعي أبو علي الشاعر مشهور في أصحابنا صنف كتاب طبقات الشعراء كتاب الواحد في مثالب العرب ومناقبها أخبرنا القاضي أبو اسحاق إبراهيم بن مخلد بن جعفر حدثنا أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة حدثنا موسى بن حماد اليزيدي حدثنا دعبل وقال الشيخ في رجاله في أصحاب الرضا(عليه السلام) دعبل بن علي وقال الكشي في رجاله دعبل بن علي الخزاعي الشاعر من أصحاب الرضا(عليه السلام) وقال النجاشي في ترجمة أخيه علي بن إسماعيل بن علي قال: ولد عمي دعبل سنة ١٤٨ في خلافة المنصور ورأى موسى ولقي الرضا(عليهما السلام) ومات سنة ٢٤٥ أيام المتوكل وروى الكليني في الكافي ما يدل على أنه لقي الجواد(عليه السلام) أيضاً فروى أنه دخل على الرضا فأعطاه شيئاً فلم يحمد الله فقال: لم لم تحمد الله ثم دخل على الجواد فأعطاه فقال: الحمد لله فقال: تأدبت. وفي روضات الجنات أدرك أربعة من أئمة أهل البيت(عليهم السلام) وولد سنة وفاة الصادق(عليه السلام) اهـ والأربعة هم الصادق والكاظم والرضا والجواد وإدراكه للصادق بمعنى أنه ولد في حياته.

وفي النبذة المختارة من كتاب تلخيص أخبار شعراء الشيعة للمرزباني كما في النسخة المخطوطة وفيها ذكر ٢٨ ترجمة لثمانية وعشرين شاعراً منهم دعبل هو الثاني والعشرون منهم قال دعبل بن علي الخزاعي كان شاعراً مجيداً وكان على غاية من الفقر ثم ذكر خبره مع الرشيد الذي كان سبباً في حسن حاله وسياتي.

وفي مجالس المؤمنين عن دولتشاه السمر قندي أنه قال في تذكرته ما تعريبه، دعبل بن علي الخزاعي له فضل وبلاغة زيادة عن الوصف وكان متكلماً أديباً عالماً وفي أيام هارون الرشيد جاء في بلاد العرب إلى بغداد الإمام الرضا(عليه السلام) وكان عديله في المحمل محمد بن أسلم الطوسي وقائد بعيره إسحاق بن راهويه الحنظلي وكان دعبل في هذا السفر مسلياً للرضا(عليه السلام) بنوادره وأمثاله وأشعاره اهـ التذكرة، وفي مجالس المؤمنين: قوله: إن دعبل في سفره إلى خراسان كان في صحبة الإمام الرضا مخالف للخبر المذكور في الكتب مثل كشف الغمة وغيره من أن دعبلاً قال: لما نظمت قصيدتي مدارس آيات قصدت بها الإمام أبا الحسن علي بن موسى الرضا في خراسان الخبر الدال على أنه ذهب إلى خراسان بعد ذهاب الرضا(عليه السلام) إليها ولم يذهب معه.

أقوال سائر العلماء المترجمين والعلماء فيه :

في ميزان الذهبي دعبل بن علي الخزاعي الشاعر المفلق رافضي بغيض هرب من المتوكل وعاش نحواً من تسعين سنة وله عن مالك مناكير ثم قال دعبل أو دغفل عن مالك مهمل في كتاب الدار قطني ضعفه أبو العباس البناني (النباتي)، قلت: هو دعبل بن علي بن رزين بن سليمان الخزاعي أبو علي الشاعر المشهور من الكوفة وتعاطى في أول أمره الأدب حتى مهر فيه وقال الشعر الفائق قال: وقال ابن خلكان كان شاعراً مجيداً إلا أنه كان بذيء اللسان مولعاً بالهجو هجا الخلفاء فمن دونهم وطال عمره فكان يقول لي: ثلاثون سنة احمل خشبتي على كتفي ما أجد من يصلبني عليها وذكر ابن المعتز عن الترمذي قيل لابن الزيات: لم لا تجيب دعبلاً عن القصيدة التي هجاك بها فقال: وكل من قال على كتفي يبالي بما قال أو قيل له؟

وفي الأغاني: شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يحسن ولا أفلت منه أحد، وكان من الشيعة المشهورين بالميل إلى علي صلوات الله عليه ولم يزل مرهوب اللسان وخائفاً من هجائه للخلفاء فهو دهره كله هارب متوار، وفيه عن القاسم بن مهرويه: ختم الشعر بدعبل.

وقد حكى جامع ديوانه حمزة بن الحسن الأصبهاني عن ابن دريد في أماليه في أثناء أوصاف خمسة وعشرين شاعراً منهم دعبل فقال له ما لفظه قلت: فدعبل؟ قال: شديد السر محكم الصنعة قليل الطلاوة مفحش الهجاء غير مقنع المديح اهـ وعلى تائيته شرح للمولى علي بن عبدالله العلياري التبريزي وأوردها بتمامها علي بن عيسى الأربلي في كشف الغمة والمجلسي في الجزء الثاني عشر من البحار.

وفي تاريخ بغداد أصله من الكوفة ويقال من قرقيسيا وكان ينتقل في البلاد وأقام ببغداد مدة ثم خرج منها هارباً من المعتصم لما هجاه وعاد إليها بعد ذلك وكان خبيث اللسان قبيح الهجاء وقد روي عنه أحاديث مسندة عن مالك بن أنس وعن غيره وكلها باطلة نراها من وضع ابن أخيه إسماعيل[1] بن علي الدعبلي فإنها لا تعرف إلا من جهته وروى عنه قصيدته التي أولها، مدارس آيات وغيرها من شعره أحمد بن القاسم أخو أبي الليث الفرائضي.

وفي لسان الميزان حديث دعبل وقع عالياً في جزء هلال الحفار، وفي معجم الأدباء شاعر مطبوع يقال إن أصله من الكوفة وقيل من قرقيسيا وكان أكثر مقامه ببغداد وسافر إلى غيرها من البلاد فدخل دمشق ومصر وكان هجاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من الوزراء ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن وكان بينه وبين الكميت بن زيد وأبي سعد المخزومي مناقضات وكان من مشاهير الشيعة، وفي تاريخ دمشق له شعر رائق وديوان مجموع وصنف كتاباً في طبقات الشعراء قدم دمشق ومدح بها

(١) إسماعيل هو أخوه لا ابن أخيه فكان لفظة إلا أن يريد أن ابن إسماعيل رواها.

نوح بن عمرو بن حوى السكسكي بعدة قصائد ذكر في بعضها قصده إليه ورحلته نحوه وخرج منها إلى مصر وامتدح بها، وفي الأغاني بسنده عن الحسين بن علي: قلت لابن الكلبي إن دعبلاً قد قطعنا فلو أخبرت الناس أنه من خزاعة فقال لي: يا فاعل مثل دعبل تنفيه خزاعة والله لو كان من غيرها لرغبت فيه حتى تدعيه، دعبل والله يا أخي خزاعة كلها (أقول) إنما طلب ذلك من ابن الكلبي لأنه نسابة يقبل الناس قوله.

شاعريته :

كان دعبل شاعراً مفلقاً متفنناً وحسبك بشاعريته أن يقول له أبو نواس أشعر شعراء زمانه: أحسنت ملء فيك وأسماعنا وأن يكون الرشيد بمجرد سماعه شعراً له يرغب فيه ويبعث إليه أسنى جائزة ويستحضره ويقول للرسول: إن أبى فلا تجبره رفقاً به وإكراماً واحتراماً له، وأن يقول فيه المأمون ومعرفته لا تنكر لله دره ما أعرفه وأنصفه وأوصفه وأن تكون بعض أبياته نصب عينيه إذا عزم على سفر ومسلية له في تاريخ دمشق أنشد المأمون أبا دلف شعراً لدعبل قال في بعض غيباته وهو:

وقائلة لما استمرت بي النوى
ومحجرها فيه دم ودموع
ألم يأن للسفر الذين تحملوا
إلى وطن قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملك سوابق عبرة
نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تأني فكم دار تفرق شملها
وشمل شتيت عاد وهو جميع
كذاك الليالي صرفهن كما ترى
لكل أناس جدبة وربيع

وفي الأغاني ثم قال المأمون: ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري وهجيري ومسليتي حتى أعود.

وفي تاريخ دمشق: يا قاسم ما عزمت على سفر قط إلا هيأت هذه الأبيات مخاطبة لي ونصباً بين عيني وعدة في أذني ومسلية لي في غربتي أن الفهم إذا فهم المعنى يستحسنه والمستغلق إذا لم يفهمه استبرمه وأن يقول فيه المبرد ومكانته في العلم والأدب مكانته، كان دعبل والله فصيحاً وأن يقول فيه القاسم بن مهرويه ختم الشعر بدعبل وصار قوله:

لا تعجبي يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى

الشغل الشاغل للعلماء والأدباء والشعراء وأن يتداوله الشعراء بينهم فأبو هفان يقول: أخذه من قول مسلم بن الوليد:

مستعبر يبكي على دمنة
ورأسه يضحك فيه المشيب

فجاء به أجود من قول مسلم فصار أحق به منه والأصمعي يستحسنه ويقول: أخذه من قول الحسين بن مطير الأسدي:

أين أهل القباب بالدهناء
أين جيراننا على الأحساء
فارقونا والأرض ملبسة نو
راً والأقاحي تجاد بالأنواء
كل يوم بأقحوان جديد
تضحك الأرض من بكاء السماء

والمبرد يقول أخذ ابن مطير قوله هذا من قول دكين الراجز:

جن النبات في ذراها وزكا
وضحك المزن به حتى بكى

وصاحب معاهد التنصيص يقول: تداول الشعراء معنى بيت دعبل فقال الراضي القرطبي:

ضحك المشيب برأسه
فبكى بأعين كاسه

وقال ابن نباتة المصري:

تبسم الشيب بذقن الفتى
يوجب سح الدمع من جفنه
حسب الفتى بعد الصبا دلة
أن يضحك الشيب على ذقنه

وفي الأغاني عن الحمدوني الشاعر سمعت دعبل بن علي يقول: أنا ابن قولي أي به أعرف.

لا تعجبي يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى

وسمعت أبا تمام يقول أنا ابن قولي:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول

قال الحمدوني وأنا ابن قولي في الطيلسان:

طال ترداده إلى الرفو حتى
لو بعثناه وحده لتهدى[1]

(١) أي لاهتدى.

وفي تاريخ بغداد بسنده عن أبي طالب الدعبلي أنشدنا علي بن الجهم – وليست له – وظاهره أنهما لغير دعبل وكان ابن عساكر في تاريخ دمشق صرح بأنهما له فقال وله – أي لدعبل – وكان علي بن الجهم يستحسنها:

لما رأت شيبا يلوح بمفرقي
صدت صدود مفارق متجمل
فظلت أطلب وصلها بتذلل
والشيب يغمزها بأن لا تفعلي

قال أبو طالب ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول جدي (دعبل):

أين الشباب وأية سلكا
لا أين يطلب ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى
يا سلم ما بالشيب منقصة
لا سوقة يُبقي ولا ملكا
قصر الغواية عن هوى قمر
أجد السبيل إليه مشتركا
وعدا بأخرى عز مطلبها
صبا يطامن دونها الحسكا
يا ليت شعري كيف نومكما
يا صاحبي إذا دمي سفكا
لا تأخذا بظلامتي أحدا
طرفي وقلبي في دمي اشتركا

وكان لهذه الأبيات قسط عظيم من الشهرة والتداول بين الأدباء والشعراء والملوك والأمراء شاعت وحفظها الناس حتى أن أبا نواس أشعر شعراء عصره قال فيها ما لا يقال إلا في أحسن الشعر إعجاباً بها. في تاريخ بغداد بسنده عمن سمع دعبلاً يقول: أنشدت ابا نواس (أين الشباب) البيت (لا تعجبي) البيت فقال: أحسنت ملء فيك وأسماعنا قال: وكان والله فصيحاً وحتى أن مسلم بن الوليد أستاذه لم يأذن له في إظهار شعره حتى سمعها. في الأغاني بسنده قال دعبل: ما زلت أقول الشعر وأعرضه على مسلم فيقول لي: اكتم هذا حتى قلت (أين الشباب وأية سلكا) فلما أنشدته هذه القصيدة قال: اذهب الآن فأظهر شعرك كيف شئت لمن شئت وحتى غنى به المغنون الجواري والرجال ففي الأغاني عن عمه عن أحمد بن الطيب السرخسي حضرت مجلس محمد بن علي بن طاهر فغنت مغنية:

لا تعجبي يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى

ثم غنت بعده:

لقد عجبت سلمى وذاك عجيب
رأت بي شيباً عجلته خطوب
وما شيبتي كبرة غير إنني
بدهر به رأس الفطيم يشيب

فقلت لها ما أكثر تعجب سلمى هذه فعلمت إني أعبث بها لأسمع جوابها فقالت: متمثلة غير متوقفة ولا متنكرة:

فهلك الفتى أن لا يراح إلى ندى
وأن لا يَرى شيئاً عجيباً فيعجبا

فعجبت والله من جوابها وحدته وسرعته وقلت لمن حضر والله لو أجاب الجاحظ هذا الجواب لكان كثيراً منه مستظرفاً (وبسنده) قال دعبل خرجت إلى الجبل هارباً من المعتصم والمكاري يسوق بي بغلاً وقد أتعبني كثيراً فتغنى بقوله:

لا تعجبي يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى

فقلت له – وأنا أريد أن أتقرب إليه ليكف عن حث البغل – تعرف لمن هذا الشعر قال لمن فعل كذا – وأفحش– وغرم درهمين فما أدري من أيهما أعجب من هذا الجواب أم من قلة الغرم على عظم الجناية.

(وبسنده) عن ابي ناجية كنت مع دعبل في شهرزور فدعاه رجل إلى منزله فغنت جارية بقول دعبل: (أين الشباب وأية سلكا) فارتاح دعبل لهذا الشعر وقال: قد قلته مذ سبعين سنة وحتى جعلها أبو تمام معرفاً لدعبل وقائمة مقام النسب ففي الأغاني بسنده عن الفتح غلام أبي تمام كان أبو سعيد الثغري اشتراه له بثلثمائة دينار لينشد شعره وكان غلاماً أديباً فصيحاً وكان إنشاد أبي تمام قبيحاً فكان ينشد شعره عنه فقال: سألت مولاي أبا تمام عن نسب دعبل فقال هو دعبل ابن علي الذي يقول: (ضحك المشيب برأسه فبكى). ويأتي أن الرشيد لما سمع قوله لا تعجبي البيت استحسنه وأجازه بعشرة آلاف درهم وخلعة ومركب ونادمه وأجرى عليه رزقاً سنياً.

وفي الأغاني عن أبي هفان: أنشدت يوماً بعض البصريين الحمقى قول دعبل (ضحك المشيب برأسه فبكى) فجاءني بعد أيام فقال: قد قلت أحسن من هذا (قهقه في رأسك القتير) ونوادر المتشاعرين الحمقى كثيرة فمنها ما في الأغاني بسنده

عن دعبل كان لي صديق يقول شعراً فاسداً وأنا أنهاه فأنشدني يوماً:

إن ذا الحـــــــب شـــــــديد

لـــــيس ينجيـــــه الفـــــرار

ونجـــا مـــن كـــان لا يعـــــ

ـــــشق مـــــن ذل المخـــــازي

فقلت له: هذا لا يجوز البيت الأول على الراء والثاني على الزاي فقال لا تنقطه فقلت: الأول مرفوع والثاني مخفوض فقال: أنا أقول له لا تنقطه وهو يشكله. ومما ينتظم في هذا السلك ما حدثنا به بعض الصحاب عن شاعر عراقي أنه قال في موشحة له:

فاتـــت الـــدل ســـليمى يـــا يلـــوم

عريـــت يـــا ســـلم أفـــراس الـــصبا

وقال فيها (ثم حاكته تباهي قعضبا) فقلت له: ما قعضب قال: أسم حائك أما سمعت قول الحاج هاشم الكعبي في الحسين(عليه السلام) وأصحابه:

فبـــاتوا علـــى وجـــه الـــصعيد تلفهـــم

ثيـــاب علـــى مـــنهن مـــا حـــاك قعـــضب

فقلت لـه: قعضب هنا السيف لا اسم حائك. واشتهر بالهجاء اللاذع حتى أن بني مخزوم لما هاجاه رجل منهم يكنى أبا سعيد نفوا أبا سعد عن نسبهم وأشهدوا على ذلك خوفاً أن يعمهم دعبل بهجائه وهذه غاية في الخوف من هجائه ليس فوقها غاية.

من أخباره :

الأغاني بسنده: كان دعبل قد جنى جناية بالكوفة وهو غلام فأخذه العلاء بن منظور الأسدي وكان على شرطة الكوفة من قبل موسى بن عيسى فحبسه فكلمه فيه عمه سليمان بن رزين فقال: اضربه لعله يتأدب فضربه ثلثمائة سوط فخرج من الكوفة فلم يدخلها بعد ذلك إلا عزيزاً.

(وبسنده) كان دعبل يغيب سنين ويرجع وقد أفاد وأثرى وكانت الشراة والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويواكلونه ويشاربونه ويبرونه وكان إذا لقيهم وضع طعامه ودعاهم إليه فكانوا قد عرفوه وألفوه لكثرة أسفاره وكانوا يواصلونه ويصلونه قال احمد بن كامل: أنشدني دعبل لنفسه في بعض أسفاره:

حللـــت محـــلاً يقـــصر البـــرق دونـــه

ويعجـــز عنـــه الطيـــف أن يتجـــشما

ومرت عند الكلام على شاعريته أبيات عينية قالها في بعض غيباته.

(وبسنده) دخل دعبل الري في أيام الربيع فجاءهم ثلج لم يروا مثله في الشتاء فقال شاعر منهم أبياتاً وكتبها في رقعة وألقاها في دهليز دعبل وهي:

جاءنـــا دعبـــل بـــثلج مـــن الـــشعـ

ـــــر فجـــادت ســـماؤنا بـــالثلوج

نـــزل الـــري بعـــد مـــا ســـكن البـــر

د وقـــد أينعـــت ريـــاض المـــروج

فكـــسانا ببـــرد لا كـــساه الـــ

ـــلّه ثوابـــاً مـــن كرســـف محلـــوج

فلما قرأها ارتحل عن الري.

ما روي من طريقه :

أخرج في تاريخ دمشق عنه عن مالك بن أنس عن أبي الزبير جابر أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: نعم الإدام الخَلّ وبسنده عنه سمعت مالك بن انس فقيه المدينة يحدث هارون الرشيد مسنداً عن أبي هريرة: لم يزل رسول الله(صلى الله عليه وآله) يتختم في يمينه حتى قبضه الله إليه وروى دعبل بسنده إلى البراء بن عازب عن النبي(صلى الله عليه وآله) في قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾: قال في القبر إذا سئل المؤمن.

طرائفه :

(الأغاني) بسنده: أنشد رجل دعبل بن علي شعراً له ساقطاً فجعل يعيبه وينبهه على خطئه فيه بيتاً بيتاً إلى أن مر له بيت جيد فقال دعبل: أحسنت أحسنت ما شئت فقال: يا أبا علي أتقول لي هذا بعد ما مضى فقال: يا حبيبي لو أن رجلاً أسمع سبعين مرة ما كان بمنكر أن يكون فيها دستنبوية واحدة.

بعض ما حكاه من الطرائف :

(الأغاني) بسنده عن دعبل دخلت على أبي الحارث جمين وقد فلج وكان صديقي لأعوده فقلت: ما هذا قال: أخذت من شعرات ودخلت الحمام فغلط بي الفالج وظن أني قد احتجمت فقلت له: لو تركت خفة الروح والمجون في موضع لتركتهما في هذا الموضع.

(معاهد التنصيص) قال دعبل: كنا يوماً عند سهل بن هارون الكاتب البليغ وكان شديد البخل فأظلنا الحديث واضطره الجوع إلى أن دعا بغداء له فأتى بقصعة فيها ديك

جاس هرم لا تخرقه سكين ولا يؤثر فيه ضرس فأخذ كسرة خبز فخاض بها مرقته وقلب جميع ما في القصعة ففقد الرأس فبقي مطرقاً ساعة ثم رفع رأسه وقال للطباخ: أين الرأس فقال: رميت به فقال: ولم؟ قال: ظننتك لا تأكله قال: بئسما ظننت والله إني لأمقت من يرمي برجليه فكيف من يرمي برأسه والرأس رئيس وفيه الحواس الأربع ومنه يصيح ولولا صوته لما فضل وفيه عرفه الذي يتبرك به وفيه عيناه اللتان يضرب بهما المثل لوجع الكليتين ولم يُر عظم قط أهش من عظم رأسه أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق ومن العنق فإن كان قد بلغ من نبلك إنك لا تأكله فانظر أين هو قال: لا أدري والله أين هو رميت به قال: لكني ادري أين رميت به في بطنك فالله حسيبك.

مشايخه :

في تاريخ دمشق حدث عن المأمون ومالك بن أنس ويقال: أنه حدث عن يحيى بن سعيد الأنصاري وشعبة بن الحجاج وسفيان الثوري وسالم بن نوح ومحمد بن عمر الواقدي وجماعة سواهم ومن مشايخه في الأدب مسلم بن الوليد تخرج به وتعلم منه وفي لسان الميزان له رواية عن مالك وشريك والواقدي والمأمون وعلي بن موسى الرضا ويقال: إن له رواية عن شعبة والثوري.

تلاميذه :

في تاريخ دمشق روى عنه أحمد بن أبي دؤاد ومحمد بن موسى الترمذي وأخوه إسماعيل اهـ ومر أن أحمد بن القاسم روى عنه قصيدته التائية وفي الأغاني أنه خرج الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد الأشعث وفهمه وأدبه ولعله هو أبو نصر بن جعفر بن محمد بن الأشعث الذي قال صاحب الأغاني أيضاً أن دعبلاً كان مؤدبه قديماً. مر في لسان الميزان روى عنه أخوه علي بن علي بن ولم يذكر رواية أخيه إسماعيل عنه وقد مر عن النجاشي أنه يوري عنه موسى بن حماد اليزيدي. وعن جامع الرواة انه نقل رواية علي بن الحكم عنه في باب مولد أبي جعفر الثاني(عليه السلام) من الكافي.

مؤلفاته :

١- كتاب طبقات الشعراء.

٢- كتاب الواحد في مثالب العرب ومناقبها ذكرهما النجاشي.

٣- ديوان شعره[١].

(١) انظر أعيان الشيعة، محسن الأمين، م١٠، دار التعاريف للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٠، ص٢١٥ وما بعدها.

سفيان الثوري

سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو هبة الله الكوفي، من ثور بن عبد مناة، وقيل من ثور همدان.

كان سفيان الثوري محدثاً فقيهاً، ذكر عنه الزركلي أنه كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، ولد بالكوفة سنة ٩٧للهجرة، وبها نشأ. راوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم، لكنه خرج من الكوفة عام ١٤٤هـ وسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة حيث مات متخفياً[٢].

نشأ سفيان الثوري في أسرة متواضعة، إذ لم يكن والده من ذوي الثراء الكبير، وإنما كان من «ثقات المحدثين». أما والدته فكانت حصيفة تقية، راجحة العقل، كثيرة النصح لولدها بضرورة تلقي العلم.

وصفه أبو نعيم في الحلية " بأن العلم كان حليفه والزهد أليفه". وقد وهبه أهله للعلم، وكان يُعنى بالحديث، وليس ذلك بغريب عن بيئة كانت تتمثل قول رسول الله(صلى الله عليه وآله) (فيما رواه أبو داود والترمذي): " من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً، سهل الله له طريقا إلى الجنة ".

وقد حقق سفيان أمل والديه فطلب العلم وجدّ فيه، وكان يقول: " لا نزال نتعلم ما وجدنا من يعلمنا ". فأخذه عن العديد من الشيوخ، ذكر منهم المؤرخون عمرو بن مرة، وحبيب بن أبي ثابت، ومسلمة بن كهيل، وعمرو بن دينار، وعبدالله بن دينار، وسعيد بن مسروق، والأسود بن قيس، وجعفر بن برقان، وخصيف بن عبد الرحمن، وابا حبيب البدوي وهو من كبار العباد الذين قابلهم سفيان. التقاهُ في الطريق بين مكة والمدينة وصاحبه مدة لصلاحه وتقواه وهو القائل لسفيان: " إن فيكم لأنسا، وإن عنك لشغلاً "[٣].

وعلى الرغم من عظم مكانة سفيان الثوري في العلم والورع والتقوى، فقد كان يسعى إلى عباد الكوفة ليتعلم منهم. فها هو يسعى إلى شيبان الراعي الذي خرج معه للحج مشاة، وهو القائل لسفيان معلماً له ضرورة مراقبة نفسه: " إن من شؤم المعصية، الإصرار على الذنوب، فلا تعص ربك طرفة عين[٤]"

ثم طلب من سفيان أ ن يكون في مقام المراقبة، يراقب نفسه فلا يعصي الله طرفة عين. وسعى سفيان أيضاً في طلب عابد من عباد الكوفة يقال له (الكوثان) لمدّة عشرين عاماً. وكان على صِلات بالزاهد الكوفي «داود الطائي»، وبالعابد الزيدي « الحسَن بن صالح بن حي».

(٢) الأعلام للزركلي ٣/ ١٥٨.

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم،، ٦/٧، ٢٨٧/٨-٢٨٨.

(٤) الروض الفائق في المواعظ والرقائق للحريفيش ص١١.

أما تلاميذ سفيان الثوري فيذكر ابن الجوزي الكثير منهم بأسمائهم وأحياناً بصفاتهم.

وإذا بحثنا في حياة سفيان الثوري العلمية أمكننا تقسيمها إلى مرحلتين هما: مرحلة الحديث والفقه، ومرحلة الزهد.

أما مرحلة الحديث والفقه فتتفق المصادر المختلفة على أن السياحات الأولى لسفيان الثوري ورحلاته كانت لطلب الحديث وجمعه وروايته، وحينما اكتملت أداة الحديث عنده بدأ يفتي الناس فكان أفقههم. ويمكننا التعرف على سفيان المحدث الفقيه من كتبه ورسائله، ومن شهادات العلماء في علمه وورعه وزهده وما له من آراء وأفكار قيمة في الفقه. هذا فضلاً عن الأحاديث الدالة على إمامته وإفتائه، وحبه للحديث وكثرة حفظه له، وإجماع الناس على محبته وتفضيله على غيره من رواة الحديث. وقد بلغ سفيان في الحديث والفقه منزلة رفيعة إلى حد أن دُعي بأمير المؤمنين بالحديث.

وما كان لسفيان الثوري أن يبلغ هذه المكانة الرفيعة في الحديث لولا ما عُرف عنه من حب للعلم وحرص عليه. ومن دلائل ذلك قوله:" زيِّنوا العلم بأنفسكم ولا تزّينوا بالعلم" وأيضاً لغزارة علمه ومعرفته به.

ومن أقوال سفيان الدالة على حبه للحديث، وحرصه عليه، ودعوته الناس إلى تعلمه: " ليس أنفع للناس من الحديث"، وقوله كذلك: " لو لم يأتني أصحاب الحديث لأتيتهم في بيوتهم". وقوله:" ينبغي للرجل أن يُكره ولده على طلب الحديث فإنه مسؤول عنه".

لقد كان سفيان جيّد الحفظ كثير الرواية وهو أحفظ وأكثر حديثاً من مالك، ولكن مالكاً كان ينتقي الرجال، وسفيان يروي عن كل احد. وهو أكثر حديثاً من شعبة وأحفظ يبلغ حديثه ثلاثين ألفاً. وكان سفيان يتقدم شعبة ومالك في الحديث والحفظ قال الوليد بن مسلم: رأيته –يقصد سفيان– بمكة يستفتي ولما يخط وجهه بعد. وقال أبو حاتم وأبو رزمة وابن معين: هو أحفظ من شعبة.

وإذا كان سفيان الثوري قد حظي بهذه الشهرة الواسعة في رواية الحديث ووثق الناس به وثوقاً تامّاً، فما ذلك إلا لأنه لم يكن يريد بالحديث إلا وجه الله والدار الآخرة، فهو في رأيه أفضل الأعمال بشرط صحة النية فيه.

ولعظم مكانة الحديث عند سفيان أمر الناس بالتحفظ على نقله وروايته، وبعدم النقل إلا عن الثقة الحجة، يقول سفيان داعياً الناس إلى تعلم الحديث: "تعلموا هذا العلم (أي الحديث) واكظموا وافرغوا عليه، ولا تخلطوه بضحك فتجمد القلوب".

وكما كان سفيان الثوري من أفضل المحدثين، كان أيضاً فقيهاً ورعاً موفقاً. وقد أهلته المقادير لأن يكون من كبار المحدثين والفقهاء. كيف لا؟ وهو صاحب ذاكرة قوية، وقوة خارقة على الحفظ، وذكاء حاد، ونباهة منذ صباه. يقول سفيان:" ما استودعت قلبي شيئاً قط فخانني".

عدّه عبد الرحمن بن مهدي من أئمة الناس في الفقه، وقال:" أئمة الناس في زمانهم أربعة: سفيان الثوري بالكوفة، ومالك بالحجاز، والأوزاعي بالشام، وحماد إبن زيد بالبصرة"(١).

ويقول عبدالله بن داود مبيناً مكانة سفيان في الفقه: " ما رأيت أفقه من سفيان". وقال ابن حبان: " كان (أي سفيان) من سادات الناس فقهاً وورعاً وإتقاناً".

هذه الأقوال وغيرها كثير إن دلت على شيء فإنما تدلّ على مبلغ ما وصل إليه سفيان الثوري من العلم والمعرفة في الحديث والفقه، وفي الحفظ والإتقان.

وأما المرحلة الثانية من مراحل الحياة الروحية لسفيان الثوري فهي مرحلة الزهد التي جاءها من باب الفقه، فكانت حياته عبادة وزهداً مع عمل. وكان يرى أن الحكمة ثمرة الزهد، ينبتها الله في قلب المؤمن.

بدأت سياحاته مع مجموعة من الزهاد، وكان منهم إبراهيم بن أدهم الخراساني، وقد اعتبره إبراهيم بن أدهم وغيره من الزهاد «إمام الزهاد»، ومرجع ذلك أن الزهاد رأوا سفيان يجمع بين علوم الدنيا وعلوم الآخرة، بينما شغل العباد من قبل – وخاصة في البصرة– بالتعبد عن طريق الرواية.

وهنا يحق لنا أن نقول إن حقيقة الزهد وقوامه عند سفيان ثلاثة عناصر أولها: التقوى فهي ملاك الزهد عنده وجوهره. والتقوى في رأيه عمادها تهذيب النفس من شوائب الدنيا، لذلك كان يقول: " ما عالجت شيئاً قط أشدّ على نفسي، مرة علي، ومرة لي "(٢).

وثانيهما اليقين لقوله " ولو أن اليقين استقر في القلب، كما ينبغي، لطار فرحا وحزناً، شوقاً إلى الجنة وخوفاً من النار "(٣).

أما العنصر الثالث للزهد عند سفيان فهو سقوط المنزلة. وذلك ما عبر عنه عندما سئل: " ما الزهد في الدنيا؟ فقال: سقوط المنزلة "(٤).

وكان يرى الزهد الحق في سقوط المنزلة وعدم قبول الرياسة، يقول: " ما رأيت في شيء أقل منه في الرياسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإذا تُوزع في الرياسة،حامى عليها وعادى "(٥).

ويقول موضحاً معنى الزهد في الدنيا: " ليس الزهد في الدنيا بأكل، وبلبس الخشن، ولا بأكل الخشن. إنما الزهد في الدنيا قصر

(١) حلية الأولياء٣٥٦/٦.
(٢) حلية الأولياء، ٥/٧.
(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي٨١/٢-٨٢
(٤) حلية الأولياء ١٧/٧.
(٥) المصدر السابق ٣٩/٧.

الأمل ". وقيل لسفيان: أيكون الرجل زاهداً ويكون له مال؟ قال: " نعم، إن كان إذا ابتلي صبر، وغذ أعطي شكر ". ومن دلائل زهده اعتباره حجب النعمة رحمة من الله تعالى. يقول مبيناً هذا المعنى: " لنعمة الله علي فيما زوى عني من الدنيا أفضل من نعمته فيما أعطاني[١]" وبصره عيوب الدنيا وداءها ودواءها[٢]".

وليس معنى الزهد في الدنيا كما يقول سفيان، اكتساب الرزق والعمل باليد. يقول موضحاً هذا المعنى: " يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم، لا تزيدوا التخشّع على ما في القلب، فقد وضح الطريق، فاتقوا ربكم وأجملوا في الطلب، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين[٣]".

إن الزهد عند سفيان لا يتنافى مع الثراء، ولذا كان يحثُّ على الكسب، ويدعو إلى الزهد. وليس الزهد عنده ترك النفس بالكلية، والدليل على ذلك قوله لبكر العابد: " يا بكر خذ من الدنيا لبدنك، ومن الآخرة لقلبك "[٤].

آثاره :

توفي سفيان الثوري بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة للهجرة وله أربع وستون سنة قضى أغلبها طالباً للعلم، ساعياً لتحقيق رسالته ألا وهي نشر السنة المحمدية والتراث النبوي، مخلفاً العديد من المؤلفات لعل أهمها كما قال ابن النديم في «الفهرست»، والزركلي في «الأعلام»، وعمر رضا كحالة في «معجم المؤلفين» ما يلي:

١- الجامع الكبير، يجري مجرى الحديث، رواهُ عنه جماعة منهم يزيد بن أبي حكيم، وعبدالله بن الوليد العدلي، وإبراهيم بن خالد الصنعاني، وعبد الملك الجدي، ومن غير أهل اليمن الحسين بن حفص الأصفهاني.

٢- كتاب الجامع الصغير، رواه جماعة منهم الأشجعي بن غسان بن عبيد الحسن بن حفص الأصفهاني، وابن عمران الموصلي، وعبد العزيز بن أبان، وعبد الصمد بن حسان، وزيد بن أبي الزرقاء، والقاسم بن زيد الجرمي.

٣- كتاب الفرائض.

٤- رسالة إلى عباد بن عباد الأرسوفي، وفيها حذر سفيان الثوري الحكام والولاة والأمراء من غرور الدنيا، وخوّفهم من عاقبة الظلم والجو وأهوال يوم القيامة، من ذلك نهيه الخليفة المهدي عن الإسراف والتبذير في نفقات الحج إذ يقول: " دخلت على المهدي فرأيت ما قد هيأه للحج، فقلت، ما هذا حج عمر بن الخطاب فأنفق ستة عشر ديناراً ".

(١) سفيان الثوري،عبد الحليم محمود، ١٥٦.
(٢) حلية الأولياء٦ / ٣٨٩.
(٣) م. ن ٦ / ٣٨٢.
(٤) سفيان الثوري،عبد الحليم محمود، ١٥٧.

وفي هذه الرسالة دعا ابن عباد إلى العزلة، وقلة مخالطة الناس، وحذره من الدنوّ من الأمراء ومخالطتهم، كذلك من حب الرياسة لأنها في رأيه باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء، كما حذره من الرياء، فهو أخص من دبيب النمل [نص الرسالة منشور في حلية الأولياء، ج.٦؛ وكتاب سفيان الثوري لعبد الحليم محمود، ١٧١-١٧٤].

٥- وصايا سفيان الثوري ونصاحته لعلي بن الحسن، ترك سفيان الثوري العديد من الوصايا لعلي بن الحسن نذكر منها قوله " السنة سنتان، سنة أخذها هدى وتركها ضلالة، وسنة أخذها هدى وتركها ليس بضلالة. إن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدي فريضة، وإن لله حقًّا بالليل لا يقبله بالنهار، وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل، وأنه يحاسب العبد يوم القيامة بالفرائض، فإن جاء بها تامة قبلت فرائضه ونوافله، وإن لم يؤدها وأضاعها له، وإن شاء عذبه"[٥].

أما نصائح سفيان فيدور جلها حول ضرورة العمل في الدنيا لأجل الآخرة، يقول:" عليك بالورع يخفف الله حسابك، ودعْ كثيراً مما يريبك إلى ما لا يريبك تكن سليماً، وادفع الشك باليقين يسلَمْ لك دينك، وأمر بالمعروف، وانْهَ عن المنكر تكنْ حبيب الله، وابغُضِ الفاسقين تطرُدُ به الشيطان، وأقلَّ الفرح والضحك بما تصيب من الدنيا تزدّدْ قوة دنياك، وأحسنْ سريرتك يُحْسِن الله علانيتكم وابكِ على خطيئتك تكُنْ من أهلَ الرفيق الأعلى ".

٦- تفسير القرآن الكريم، رواه أبو جعفر محمد عن أبي حذيفة المهدي عنه، صححه وعلق عليه «امتياز علي عرش»، مدير مكتبة رضا، رامبور الهند.

ورواية أبي جعفر كما يقول عبد الحليم محمود، لم تحصر كل ما روي عن سفيان من تفسير، وهي في جملتها آيات قليلة من كل سورة تنتهي بسورة الطور. ومع أن هذه الآيات لا تكوّن تفسيراً كاملاً للقرآن ولا لأكثره، فإنها سدت نقصاً في المكتبة العربية، ودلت على عظيم عنايته بالقرآن الكريم. يقول الأوزاعي مؤكداً ذلك: " لو قيل لي اختر رجلاً يقوم بكتاب الله، وسنة نبيه لاخترت لها الثوري"[٦].

لقد كان تفسير سفيان للقرآن تفسيراً فريدًا من نوعه إذ لم يتبع طريقة المفسرين للقرآن على بعض السور والآيات التي قد يصعب على بعض الناس فهمها إما لقصورهم في اللغة أو لقصورهم في الثقافة. وحجته في ذلك – كما يقول عبد الحليم محمود- إن القرآن الكريم أنزله الله بلسان عربي مبين، وهو واضح وضوح الأسلوب العربي المبين، ولهذا لم يعجبه من المفسرين للقرآن إلا ابن جبير ومجاهد وعكرمة، والضحاك.

(٥) سفيان الثوري،عبد الحليم محمود، ١٧٤-١٩٠.
(٦) سفيان الثوري،عبد الحليم محمود، ١١١.

ومن تفسير سفيان الثوري للقرآن الكريم الذي وقف على بعض سوره مفسراً وشارحاً لبعض الآيات وليس لجملتها، وأقواله التي تكشف من قريب أو بعيد آراءه واتجاهاته الدينية، نتبين زهده وورعه وتقواه، وحبه للحديث وروايته، وحبه للعمل وتقديره للعلماء، ودعوته للناس إلى العمل واكتساب الرزق، وحرصه على قول الحق الذي لا ينبغي فيه غير وجه الله. لذا يحق أن نصفه بالزاهد العابد والمحدث الفقيه وليس هذا الوصف مبالغة منا في تقدير هذا العالم الورع، وإنما هي كلمة حق حاولنا من خلالها ان نقدم نموذجاً للأئمة الثقات الذين جمعوا بين حب العلم وعلوم الدين من حديث وفقه.

المصادر والمراجع :

- الأصبهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء ٦/ ٣٧٥- ٣٩٣، وبداية الجزء السابع.
- ابن النديم، الفهرست، ٣٢٨.
- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٥٧/٦-٢٦٠،
- المامقاني، تنقيح المقال، ٣٦/٢-٣٧.
- ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ١١١/٤-١١٥.
- الصفدي، الوافي بالوفيات، ٩٤/١٣-٩٦.
- العاملي، أعيان الشيعة، ١٣٧/٥-١٤٩.
- الخوانساري، روضات الجنات، ٣١٦-٣١٧.
- أبو علي، منتهى المقال، ١٤٨.
- الجواهر المضية، ٢٥٠/١.
- تاريخ بغداد، ١٨١/٨.
- صيد الخاطر، ١٥٧.
- الطبقات للمناوي.
- تاريخ الإسلام للذهبي.
- تذكرة الحفاظ للسيوطي.
- الرازي، أبو حامد عبد الرحمن بن أبي حاتم، تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل.
- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ٢٣٤/٤.
- الزركلي، الأعلام،١٥٨/٣.
- النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د.٣، دار المعارف، ط٨، ١٩٨٠.
- محمود عبد الحليم، سفيان الثوري، دار المعارف، ط٣، ١٩٩٠.
- د. مرفت عزت بالي، مادة (الثوري) ابو هبة الله سفيان بن سعيد، في موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، (دار الجيل- بيروت ٢٠٠٥، المجلد ٤، ص٨٥١-٨٥٦.

الفـــراء الكـــوفي (*)

هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي، المعروف بالفراء، مولى بني أسد، وقيل مولى بني منقر.

هذا هو ما انتهى إليه ابن خلكان: وقد آثرناه بالذكر إذ تكاد جميع الروايات الأخرى تدور حول ما أورده ابن خلكان.

أما عن تلقيبه بالفراء فيكاد صاحب الأضداد[1] يقطع في هذا الأمر برأي حين يقول: إنما سُمي الفراء لأنه يحسن نظم المسائل، فشبه بالخارز الذي يخرز الأديم، وما عرف ببيع الفراء ولا شرائها قط

ثم قال: وقال بعضهم: سمي فراء لقطعه الخصوم بالمسائل التي يعنت بها من قولهم: قد فرى، إذ قطع وهذا اللقب

(*) أبو زكريا الفراء د. أحمد مكي الانصار

اشارة التعيين (و٥٧).

انباه الرواة (٤: ١)

الانساب للسمعاني (و: ١٤٢٠)

بغية الوعاة (٢: ٣٣٣).

البلغة (٢٨٠).

تاريخ الأدب العربي بروكلمان(٢: ١٩٩)

تاريخ بغداد (١٤: ١٤٩).

تذكرة الحفاظ (١: ٣٣٨).

تلخيص ابن مكتوم (ص ٢٧٠).

تهذيب التهذيب (١١: ٢١٢).

روضات الجنات(٨: ٢٠٩).

طبقات الزبيدي (١٤٣).

طبقات ابن قاضي شهبة (و: ٢٦٨).

طبقات المفسرين للداودي(٢: ٣٦٦).

طبقات الفراء (٢: ٣٧١).

الفهرست (٦٦).

اللباب (٢: ١٩٨).

مرآة الجنان(٢: ٣٨).

مراتب النحويين (٨٦).

المزهر (٢: ٤١٠)

المعارف(٥٤٥).

معجم الأدباء (٢٠: ٩).

معجم المؤلفين (١٣: ١٥٨).

مفتاح السعادة(١: ١٤٤)

نور القبس (ص ٣١).

هدية العارفين (٢: ٥١٤)

وفيات الأعيان (٦: ١٧٦)

(١) ص(١٣) المطبعة الحسينية

مع علته هذه، فيما يبدو، انحدر إلى رجلنا يحيى من جده الأول عبد الله الذي لقب بهذا اللقب، فابن النديم يقول في سرد نسب رجلنا هذا: يحيى بن زياد بن فرايخب، وفرايخب هذا، هو ما يقابل عبد الله الجد الأول ليحيى في سلسة نسبه ولا يعنينا هنا سبب هذا اللقب المركب، فليس ثمة ما يكشف عنه ولكن حسبنا أنه ثمة تراكيب مثله وردت في العربية مثل تأبط شراً، وبرق نحره.

أما عن انتهائه إلى أصل فارسي، وأنه من الديلم فالقفطي يرفع نسبه إلى جد أعلى هو كوزيار، وهو اسم فارسي.

وأما عن ولائه الذي اضطربت فيه المراجع، فجعلته مرة إلى بني أسد، ومرة إلى بني منقر، فالأرجح أن ولاءه كان لبني أسد وهم بنو أسد بن خزيمة الذين نزلوا الكوفة، وليس منقر، الذين لا نرى ما يؤيد أنهم نزلوا الكوفة.

وإذا أخذنا بما يقال من أن وفاة أبي زكريا كانت سنة ٢٠٧هـ عن سبع وستين سنة، كان هذا يعني أن مولده كان سنة ١٤٠هـ أما إذا أخذنا بقول من يقول ان وفاته كانت ٢٠٩هـ عن ثلاث وستين سنة، كان تاريخ ميلاده سنة ١٤٦هـ

وثمة رأي ثالث يقول ان وفاته كانت سنة ٢٠٧هـ ولكن هذا الرأي يخالف قول: وكان عمره يوم وفاته ثلاثا وستين سنة ٦٣ سنة، وهذا يعني أن مولده كان سنة ١٤٤هـ

وقد صرح بهذا ابن خلكان بعد أن ذكر هذا الرأي الأخير وقال: فتكون ولادته سنة أربع وأربعين ومائة. ولعل هذه الرواية الأرجح، إذ هي كما وردت على لسان مؤرخ محقق يعضدها مؤرخ آخر كان قريبا زمنا من زمن الفراء، وهو الخطيب البغدادي.

هذا إلى أن الرواية التي تجعل مولده سنة ١٤٦هـ مردها إلى السمعاني في كتابه الأنساب، وعن هذه الرواية أخذ ابن الأثير، وكتاب الأنساب كما نعلم ملئ بالتحريف، ولا بد من رواياته تلك المحرفة من وقفات للتثبيت.

كما أن الرواية التي تجعل مولده سنة ١٤٠هـ مردها إلى السيوطي، والسيوطي كما نعلم متأخر شيئاً، ثم هو الوحيد الذي قالها.

ولقد كان مولد الفراء بالكوفة، وبها نشأ إلى أن برز وبز، ودليلنا على ذلك، أن شيوخه في مستهل حياته كانوا كلهم كوفيين، كما سيأتي بعد. وما أن استوى للفراء علمه حتى حدثته نفسه بالرحيل إلى بغداد يلتمس الحظوة والجاه، ويقال أن هذا الرحيل إلى بغداد دفعه إليه شيخه الرؤاسي، فلقد روى صاحب نزهة الالبا أنه قال مستنهضاً إياه إلى الرحلة إلى بغداد: فقد خرج الكسائي إلى بغداد وأنت أميز منه.

ويبدو أن هذه الخرجة إلى بغداد كانت في سنة سبعين ومائة ١٧٠هـ يدلنا على ذلك حضوره تلك المناظرة التي كانت بين سيبويه والكسائي، ثم ما كان بينه وبين سيبويه قبل حضور الكسائي، وكان هذا كله في خلافة الرشيد ووزارة يحيى إبن خالد البرمكي، أي في سنة ١٧٠هـ

ولقد كانت له أوبات إلى الكوفة، ولكن المسلم به أن أكثر مقامه كان ببغداد، وبها أملى جل كتبه، مثل معاني القرآن، وكان لا يعود إلى الكوفة إلا مع آخر كل عام.

والمراجع التي ترجمت له تحدثنا عن رحلة له إلى البصرة، فلقد كان من شيوخه الذين أخذ عنهم من هو بصري، مثل يونس بن حبيب البصري، الذي أخذ عنه الفراء وأكثر، كما تروي بعض تلك المراجع انه كان له لقاء مع سيبويه بالبصرة، ولعل هذا اللقاء كان قبل تلك المناظرة التي أشرنا إليها قبل.

ويصرح الفراء في كتابه معاني القرآن بأنه سمع عن بعض الأعراب بمكة، وذلك حيث يقول: سمعت أعرابياً يقول لبزاز ونحن بطريق مكة: أعطني كسفة أي قطعة[1]، هذه تعني انه كانت له خرجة إلى مكة، وإذا أضفنا إلى هذه أنه يروي في كتابه معاني القرآن عن قراء مكيين ثم قراء مدنيين، استطعنا أن نقول: انه كما كانت له خرجة إلى مكة كانت له خرجة إلى المدينة أيضاً.

وقد يكون اختلف إلى مكة والمدينة مرات بغية الحج والزيارة كما كان عليه من ورع وتقوى، ويذهب بعضهم إلى انه قد كانت له رحلة إلى الشام أيضاً، اعتماداً على ما جاء على لسانه في كتابه معاني القرآن، وذلك حيث يقول: وسمعت رجلاً من أهل الشام وكان صاحب تفسير[2].

غير أن ذلك التصريح لا يكاد يقطع بأن هذا السماع كان بالشام.

ولقد اتصل الفراء أول ما اتصل بآل طاهر، وألف بعض كتبه لأبنائهم، فلقد ألف كتابه المذكر والمؤنث للأمير عبد الله بن طاهر، كما يروي صاحب الفهرست عن ثعلب، وكذا كتابه البهى، أو البهاء.

ويبدو أن صلته هذه بآل طاهر كانت قبل إمارتهم، وامتدت إلى ما بعدها، فكتابه المذكر والمؤنث الذي ألفه لعبد الله بن طاهر كما ذكرنا، كان تأليفه إياه بعد انتهائه من إملاء كتابه معاني القرآن سنة ٢٠٤هـ ولقد كانت إمارة الطاهريين في سنة ٢٠٥هـ في خلافة المأمون وامتدت إلى سنة ٢٦٠هـ

(١) معاني القرآن ص ١٨٣.
(٢) معاني القرآن (ص ٢٧١).

وينقل إلينا بعض أصحاب المراجع، كابن خلكان والزبيدي، أنه كان له اتصال بالرشيد، وأنه لقيه وتحدث إليه، وجعفر بن يحيى البرمكي حاضر، غير أن هذا الاتصال فيما يبدو كان عابراً، ان لم نر الرشيد يتخذ من الفراء مسامراً كما كانت الحال مع الكسائي، ولا مؤدباً لولده، كما اختار اليزيدي مؤدباً للمأمون، ويبدو ان الكسائي كان له شيء في زحزحة الفراء عن بلاط الرشيد حتى لا يحتل مكانه.

أما عن اتصاله بالمأمون فقد بدأ على يد ثمامة بن أشرس، كان من أئمة المعتزلة، وكان خصيصاً بالمأمون.

وما أن اتصل الفراء بالمأمون حتى عرف له المأمون كفايته وعلمه، فأمره- كما يقول الخطيب البغدادي- أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو.

ولقد كان الفراء على خلق، وكان متديناً ورعاً، باراً بأهله وعشيرته صادق المودة غير متبذل.

أما عن تدينه وورعه فحسبنا عنه شهادة السيوطي له في البغية حيث يقول: كان الفراء متديناً متورعاً.

وأما عن كرمه وبره بأهله فحسبنا ما عليه المؤرخون جملة من انه كان يجمع طوال السنة، فاذا كان في آخرها خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً في أهله يفرق فيهم ما جمعه ويبرهم.

وأما عن وفائه لأشياخه وعارفيه فحسبنا عنه ما ورد على لسانه من الثناء عليهم والاعتراف بفضلهم.

وكما كان الفراء وفياً لشيوخه كان تلاميذه على مثل هذا الوفاء له، فهذا تلميذه محمد بن الجهم يقول في رثائه:

فرحمة اللهم على شيخنا

يحيى مع الأبرار في علوه

كافاه الرحمن عنا كما

أروى الصدى بالسيب من نوه

وأما عن اعتزازه بنفسه وعدم تبذله، فحسبنا ما يرويه السيوطي في البغية يقول: كان معتزاً بنفسه يصونها عن مواطن التبذل.

وللفراء شيوخ كثيرون، جاء في المراجع منهم:

١- أبو بكر بن عباس بن سالم الخياط، من القراء،وكانت وفاته سنة ١٩٢هـ[١].

٢- أبو ثروان العكلي، من الفصحاء[٢].

٣- أبو الجراح العقيلي، من الفصحاء[٣].

٤- أبو ليلى السجستاني، من القراء[٤].

٥- اسماعيل بن جعفر بن أبي كثير، من القراء وكانت وفاته ببغداد سنة ١٨٠هـ[٥].

٦- حبان بن علي العنزي الكوفي، محدث، وكانت وفاته ١٧١هـ[٦].

٧- الحسن بن عياش بن سالم الأسدي الكوفي، محدث، وكانت وفاته سنة ١٧٢هـ[٧].

٨- خازم بن الحسين أبو اسحاق الخميسي البصري، سكن الكوفة، من المحدثين[٨].

٩- سفيلن بن عينية بن أبي عمران ميمون الهلالي أبو محمد الكوفي، سكن مكة، من المحدثين وكانت وفاته سنة ١٩٨هـ[٩].

١٠- سلام بن سليم الحنفي أبو الأحوص الكوفي الحافظ وكانت وفاته سنة ١٧٩هـ[١٠].

١١- شريك بن عبد الله بن أبي شريك النخعي، أبو عبد الله الكوفي، محدث، وكانت وفاته سنة ١٨٧هـ[١١].

١٢- عبدالله بن المبارك بن واضح أبو عبد الرحمن الحنظلي، أديب نحوي لغوي، وكانت وفاته سنة ١٨١هـ وهو من رجال القرن الثاني.

١٣- علي بن حمزة الكسائي، النحوي الكوفي، وهو من رجال القرن الثاني.

١٤- علي بن غراب أبو الحسن الفزاري الكوفي، محدث، وكانت وفاته سنة ١٨٤هـ[١٢].

١٥- فضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو علي اليربوعي، محدث، وكانت وفاته سنة ١٨٧هـ[١٣].

١٦- القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود، أبو عبد الله الكوفي، فقيه محدث، وكانت وفاته سنة ١٧٥هـ[١٤].

---

(١) تاريخ بغداد (١٤:٢٧١).

(٢) انباه الرواة (٤: ٩٩).

(٣) م.ن (٤: ١١٤).

(٤) معاني القرآن (ص ٢٥٥٦).

(٥) تهذيب التهذيب (٢: ٢١٣).

(٦) م.ن (٣: ٢٧٩).

(٧) م.ن (٢: ٢١٣).

(٨) م.ن (٣: ٢٧٩).

(٩) م.ن (٤: ١١٧).

(١٠) م.ن (٤: ٢٨٢).

(١١) م.ن (٤: ٣٣٣).

(١٢) م.ن (٧: ٣٧١).

(١٣) تهذيب التهذيب (٨: ٢٩٤).

(١٤) م.ن (٨: ٢٣٨).

١٧- قيس بن الربيع الأسدي أبو محمد الكوفي، محدث، وكانت وفاته سنة ١٦٧هـ[١].

١٨- محمد بن أبي سارة أبو جعفر الرؤاسي نحوي كوفي، وهو من رجال القرن الثاني.

١٩- محمد بن حفص الحنفي من القراء[٢].

٢٠- محمد بن عبد العزيز التيمي، من القراء[٣].

٢١- محمد بن الفضل بن عطية بن عمر بن خالد القيسي أبو عبدالله الكوفي، محدث، سكن بخارى، وكانت وفاته سنة ١٨٠هـ[٤].

٢٢- محمد بن مروان، من القراء[٥].

٢٣- المفضل بن محمد بن يعلى الضبي الكوفي، وهو من رجال القرن الثاني.

٢٤- مندل بن علي أبو عبدالله العنزي الكوفي، محدث وكانت وفاته سنة ١٦٧هـ[٦].

٢٥- يحيى بن سلمة بن كهيل الحضرمي أبو جعفر الكوفي، محدث، وكانت وفاته سنة ١٧٢هـ[٧].

٢٦- يزيد بن عبدالله بن الحر أبو زياد الكلابي، لغوي، كان حيا أيام المهدي[٨].

٢٧- يونس بن حبيب أبو عبد الرحمن الضبي النحوي، وهو من رجال القرن الثاني.

كما أخذ عن الفراء كثيرون، وممن أحصينا:

١- اسحاق بن ابراهيم الموصلي، وكانت وفاته سنة ٢٣٥هـ

٢- جودي بن عثمان (١٩٨هـ)، وهو من رجال القرن الثاني.

٣- سلمة بن عاصم (٢٧٠هـ).

٤- عمر بن بكير، من رجال القرن الثالث.

٥- أبو عبيد الله القاسم بن سلام (٢٢٤هـ).

٦- أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبدالله الطوال الكوفي (٢٤٣هـ).

٧- محمد بن الجهم بن هرون أبو عبدالله السمري (٢٧٧هـ).

٨- أبو جعفر محمد بن حبيب (٢٤٥هـ).

٩- محمد بن سعدان أبو جعفر الضرير الكوفي (٢٣١هـ).

١٠- أبو جعفر محمد بن عبدالله بن قادم (٢٥١هـ).

١١- محمد بن عبدالله بن مالك، من القراء[٩].

١٢- هارون بن عبدالله، من القراء[١٠].

١٣- يعقوب بن اسحاق بن السكيت (٢٤٤هـ).

هذا عن شيوخه وتلامذته، أما عن كتبه، فهي كما انتهى إليها إحصاؤنا:

١- آلة الكاتب: كذا ذكره ابن النديم وياقوت والقفطي وابن خلكان، وذكره صاحب الذيل على الكشف[١١] باسم: آلة الكتاب.

٢- اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف: ذكره ابن النديم وياقوت.

٣- الأيام والليالي والشهور: وهو مطبوع تحقيق الأستاذ إبراهيم الابياري.

٤- البهاء: كذا جاء في وفيات الأعيان، وزاد السيوطي في البغية فقال: البهاء فيما تلحن فيه العامة. وانظر: البهى.

٥- البهى: كذا جاء في الفهرست لابن النديم ومعجم الأدباء وانباه الرواة والذيل على الكشف[١٢]، وقد ألفه الفراء لعبدالله بن طاهر.

٦- التحويل: وقد جاء ذكره في رثاء تلميذه محمد بن الجهم له، وذلك حين يقول:

وصنّف للقصور والممدود والـ

تحويل في الخاطين أو تسلوه[١٣]

في قصيدة ابن الجهم، وذلك حيث يقول:

ومصدر الفعل تصريفه

في كل من جاء من نشوة[١٤]

٧- التصريف: وقد جاء ذكره في كتابه الخزانة نصاً رواه أبو شامة عن أبي علي الفارسي عند الكلام على كسر ياء المتكلم في قراءة حمزة والأعمش «بمصرخي» بكسر الياء، قال أبو علي، قال الفراء في كتابه التصريف: زعم القاسم بن معن أنه صواب، وكان ثقة بصيرا، وزعم انه لغة بني يربوع[١٥].

---

(١) م.ن (١: ٣٩١).

(٢) طبقات القراء لابن الجزري(٢: ٣٧١).

(٣) معاني القرآن (ص ٢٥٦).

(٤) تهذيب التهذيب (٩: ٤٠١).

(٥) معاني القرآن (ص ٣٧٣).

(٦) تهذيب التهذيب (١٠: ٢٩٨).

(٧) تهذيب التهذيب (١١: ٢٢٤).

(٨) انباه الرواة (٤: ١٢١).

(٩) طبقات ابن الجزري (٣: ٤٨).

(١٠) م.ن(٤: ٢١٥).

(١١) (١: ٦) ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون.

(١٢) (٢: ٢٧٩) ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون.

(١٣) تاريخ بغداد (١٤: ١٥٤).

(١٤) م.ن (١٤: ١٥٤).

(١٥) خزانة الأدب(٤: ٣٢٩).

٨- الجمع والتثنية في القرآن: ذكره ابن النديم وياقوت والسيوطي في البغية والعاملي في كتابه أعيان الشيعة[١] وكذا ذكره حاجي خليفة في كتابه الكشف[٢]، ولكن باسم: الجمع والتثنية فقط

٩- الجمع واللغات: أشار إليه الفراء في كتابه المذكر والمؤنث[٣].

١٠ الحدود: ذكره غير واحد ممن ترجموا للفراء، كابن النديم والقفطي وابن خلكان والخطيب، وترجمة هذا الكتاب على ما نقله من العلماء من خط سلمة بن عاصم، على هذا الترتيب:

أ- حد الاعراب في أصول العربية.

ب- حد النصب المتولد من الفعل.

ج- حد المعرفة والنكرة.

د- حد: من ورب.

هـ- حد العدد[٤].

و- حد ملازمة دخل.

ز- حد العماد.

ح- حد الفعل الواقع.

ط- حد: ان وأخواتها.

ي-حد كي وكيلا.

ك: حد حتى.

ل- حد الاغراء.

م- حد الدعاء.

ن- حد النونين الشديدة والخفيفة.

س- حد الاستفهام.

ع- حد الجزاء.

ف- حد الجواب.

ص- حد الذي، ومن وما.

ق- حد: رب: وكم.

ر- حد القسم.

ش- حد التقوية[٥] والتمني.

ت- حد النداء.

ث- حد الندبة

ح- حد الترخيم.

ذ- حد: ان، المفتوحة.

ض- حد: اذ، واذا واذا.

ع- حد مالم يُسَمَّ فاعله.

ظ- حد لو تركت وراءك.

أ- حد الحكاية.

ب- حد التصغير.

ج- حد النسبة.

د- حد الهجاء.

هـ- حد راجع الذكر.

و- حد الفعل الراعي.

ز- حد الفعل الثلاثي.

ح- حد المعرب من مكانين

ط- حد الادغام.

ي- حد الهمز.

ك- جد الأبنية.

ل- حد الجمع.

م- حد المقصور والممدود.

ن- حد المذكر والمؤنث.

س- حد فعل وأفعل.

ع- حد النهى.

ف- حد الابتداء والقطع.

ص- حد ما يجري وما لا يجري.

١١- حروف المعجم: نقل عنه ابن رشيق في كتابه العمدة كلمة تتعلق بالقافية، فقال في باب القوافي: " ألا إنّ الفراء يحيى بن زكريا قد نص في كتاب حروف المعجم أن القافية هي حرف الروى، وأتبعه على ذلك أكثر الكوفيين منهم أحمد بن كيسان وغيره، وخالفه من أهل الكوفة أبو موسى الحامض فقال: القافية ما لزم الشاعر تكراره في آخر كل بيت[٦].

١٢- الفاخر: ذكره ابن النديم وياقوت والقفطي وصاحب الذيل على الكشف[٧].

١٣- فعل وأفعل: ذكره ابن النديم وياقوت والسيوطي في البغية، كما ذكره صاحب الكشف[٨].

---

(١) اعيان الشيعة (ص ٤١٤).

(٢) ٦٠٠.

(٣) المذكر والمؤنث (ص ٢٠).

(٤) كذا في الانباه والرواية في الفهرست: حد ملازمة رجل.

(٥) الفهرست التثنية.

(٦) العمدة (١: ١٠٠).

(٧) ايضاح المكنون (٢: ٣١٧).

(٨) كشف الظنون (١٤٤٧).

١٤- الكتاب الكبير في النحو: ذكره الأزهري في مقدمته لكتابه التهذيب[١] ولعله قصد بهذه التسمية معارضته لسيبويه في تسميته مؤلفه في النحو بالكتاب.

١٥- لغات القرآن، أو اللغات: ذكره ابن النديم وياقوت والسيوطي في كتابه البغية والمزهر[٢]. وبالنسبة للثانية ذكره صاحب الذيل عن الكشف[٣].

١٦- ما تلحن فيه العامة (انظر: البهاء).

١٧- مجاز القرآن: ذكره العاملي في كتابه أعيان الشيعة، وقال: عد بعض المعاصرين من المؤلفين في مجاز القرآن الفراء يحيى بن زياد النحوي، ولم نجد أحداً ذكر له مؤلفاً في ذلك بعد التتبع.

١٨- المذكر والمؤنث: مطبوع نشره مصطفى الزرقا ضمن مجموعة لغوية في بيروت سنة ١٣٤٥هـ

١٩- مشكل اللغة الصغير: ذكره ياقوت.

٢٠- مشكل اللغة الكبير: ذكره ياقوت.

٢١- المصادر في القرآن: ذكره ابن النديم وياقوت والسيوطي في البغية، وقد أشار إليه الأزهري في كتابه اللغة، وذلك حيث يقول: " وقرأت المصادر للفراء.. اللقطة لما يلتقط"[٤].

٢٢- معاني القرآن وقد طبع منه.

٢٣- المقصور والممدود: ومنه مخطوطة بتركيا.

٢٤- ملازم: ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه، وذلك حيث يقول: "حدثنا سلمة قال: أملى الفراء كتبه كلها حفظا لم يأخذ بيده نسخة إلا في كتابين: كتاب ملازم وكتاب يافع ويافعة، ثم قال: قال أبو بكر الانباري: ومقدار الكتابين خمسون ورقة، ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة.

٢٥- كتاب النوادر: ذكره ابن النديم وياقوت والسيوطي في البغية والمزهر، ونقل عنه الصاغاني في كتابه العباب في موضعين فقال: في الأولى: العصلبي، بفتح العين وسكون الصاد المهملتين الشديد الباقي على المشي والعمل... عن الفراء في نوادره. ذكر ذلك صاحب الخزانة[٥].

والثانية، ونقلها صاحب الخزانة، قال صاحب العباب: قال الفراء في نوادره الحلقة بكسر اللام لغة بلحارث بن كعب في الحلقة، بالسكون، والحلقة بالفتح[٦].

(١) التهذيب للأزهري (١: ٩).
(٢) المصدر نفسه(١: ٩٦).
(٣) ايضاح المكنون (٢: ٣٢٥).
(٤) تهذيب اللغة (٢: ٧).
(٥) الخزانة (٤: ٤٣).
(٦) خزانة الأدب (٢: ١٥٦).

٢٦- الهاء: ذكره السيوطي في البغية وهو يترجم لثعلب أحمد بن يحيى، فقال: وكان محمد بن عبدالله بن طاهر يكتب ألف درهم واحدة، بالهاء فإذا مر به ألف درهم وأحد أصلحه واحدة، وكان كتابه يهابون ان كلموه في ذلك، فقال لي يوماً: أتدري لم عمل الفراء كتاب الهاء؟ قلت: لعبد الله أبي بأمر طاهر جدي.

٢٧- الواو: ذكره ياقوت، كما ذكره القفطي، وقال ورأيت له- أي للفراء- بحلب كتاب الواو في مجلد عند رجل يعرف بابن المغربي، ثم تطلبته بعد موته فما ظفرت به.

٢٨- الوقف والابتداء: ذكره ابن النديم وياقوت، كما ذكره صاحب الذيل على الكشف[٧]، ويظهر أن هذا الكتاب في القرآن، فلقد وضعه ابن النديم مع الكتب المؤلفة في الوقف والابتداء في القرآن، وتدل على ذلك إشارة ابن الجهم في مرثيته له، وذلك حيث يقول:

وجمع ما احتيج إلى جمعه
والوقف في القرآن أو بدوه

٢٩- يافع ويافعة: (انظر: ملازم).

ولقد كانت وفاة الفراء ببغداد في سنة سبع ومائتين عن ثلاث وستين سنة وقيل بل كان موته وهو في طريق مكة.

المصدر/ :

جهود علماء النحو في القرن الثالث الهجري، تأليف: الدكتور يوسف أحمد المطاوع، مطبعة حكومة الكويت – الكويت، ١٩٧٦، ص١٥٧-١٦٤.

كامل الجبوري

الدكتور كامل بن سلمان بن جاسم بن عباس الجبوري،ولد في مدينة الكوفة – العراق- يوم السبت ٢٧ محرم الحرام ١٣٦٩هـ/ ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٩م.

نشأ وترعرع وأتم تحصيله الأولي عند الكتاتيب يومذاك. وهما الشيخ مسلم إبن الشيخ محمد الدجيلي. والشيخ حسن الحاج عبد. فتعلم القراءة ورسم الخط القرآني، ثم أكمل المرحلتين الابتدائية والمتوسطة فيها سنة ١٩٦٧-١٩٦٨، وتخرج من المركز المهني للهندسة عام ١٩٧١ في بغداد، حاصلاً على شهادة دبلوم (هندسة عامة)، أتم المرحلة الثانوية في بغداد ١٩٧٣-١٩٧٤ فكلية الآداب في الجامعة المستنصرية ببغداد وتخرج منها، ١٩٨٣-١٩٨٤.

(٧) ايضاح المكنون (٢: ٢٤٩).

أكمل دراسته في الجامعة الإسلامية ببيروت وحصل على شهادة الدبلوم العالي في الشريعة والقانون عام ١٩٩٨-١٩٩٩.

وكان قد حصل على شهادة الماجستير في التاريخ الوثائقي من كلية التاريخ والاستشراق ببيروت وبتقدير امتياز في ٢٠٠٦/٤/١٩م.

حصل على شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الوثائقي من الجامعة نفسها وبتقدير امتياز في ٢٠٠٩/٢/٢٧م.

حصل على شهادة الماجستير في الدراسات الإسلامية من الجامعة نفسها وبتقدير جيد جداً في ٢٠٠٩/٧/٩م.

أصدر في الكوفة مجلة أدبية جامعة باسم (الموعظة) عام ١٣٨٦هـ دامت سنتين.

حضر بعض الدورات الدراسية الموسمية في مسجد الكوفة، وبعض الدروس العلمية بصورة متقطعة وغير منتظمة في حلقات الحوزة العلمية في النجف، ثم تركها منصرفاً إلى المطالعات العامة في التاريخ والأدب، وكان لمكتبات الكوفة العامة ودواوينها العامرة، ومجالسها الأدبية، أثر مهم في حياته الفكرية والأدبية.

واظب بشكل خاص، وبشغف متزايد على دراسة تاريخ الكوفة وخططها وتاريخ العراق السياسي، خصوصاً في فترة الثورة العراقية ١٩٢٠، وكتب في ذلك بحوثاً ومقالات، ولكثرة الوثائق والصور الفوتوغرافية الخاصة بتاريخ الكوفة لديه، أقام معرضه الفوتوغرافي الشخصي الأول في الكوفة، وافتتح برعاية وزارة الثقافة والإعلام في ١٩٧٤/٨/٦.

شارك وحضر، مستمعاً ومحاضراً في أكثر الندوات والمجالس والمهرجانات والاحتفالات والمؤتمرات المنعقدة في مسجد الكوفة، والمقامة في مدينة الكوفة، فجامعة الكوفة، بشتى المناسبات التاريخية والأدبية.

نظم الشعر الشعبي -العامي- في سن مبكرة من خلال ملازمته لكبار الشعراء الشعبيين في الكوفة والنجف، وتمكن من خلال تلك الملازمة جمع تراثهم الشعري القديم والكتابة عنهم وجمع أشعارهم المعاصرة في خمسة عشر مجلداً طُبِع منها مجلدان.

لكثرة اهتماماته بتاريخ العراق السياسي وخصوصاً ثورة العشرين، جمع ما يتعلق بتراثها من وثائق وصحف، ومنشورات، ومكاتبات، وصور فوتوغرافية، وأسلحة، وما غنمه الثوار من الإنكليز في المعارك الحاسمة، وسجَّل مذكراتهم صوتياً، وإملاء من خلال لقاءاته المتزايدة معهم، وأقام بذلك معرضاً شخصياً بمناسبة الذكرى الخامسة والخمسين للثورة، فكانت أول محطة للمعرض هي مدينة الكوفة، فافتتح بها برعاية وزارة الثقافة والإعلام في ١٩٧٥/٦/٣٠، ثم نقل المعرض إلى بعض حواضر الثورة العراقية كالرميثة والسماوة والديوانية والحلة وكربلاء وبغداد.

وللطلبات الملحة التي تقدم بها عدد من أبناء تلك الحواضر إلى وزارة الثقافة والاعلام بجعل المعرض متحفاً ثابتاً فيها تخليداً للثورة، عرضت الفكرة عليه فوافق على ان تكون مدينة النجف الأشرف مقراً للمتحف، وتقدم بإهداء جميع موجودات المعرض إلى الدولة مجاناً، عندما صدرت الأوامر بتنسيبه مديراً للمتحف الوثائقي، والقيام بالإشراف على تأسيسه وتنظيمه وإعداد ملاكاته الوظيفية والإدارية، وافتتح المتحف في ١٩٧٨/٨/١٩، وبقي متولياً لإدارته حتى ١٩٨١/٩/١.

ولشدة ولعه ورغبته في الآثار ودراستها والعمل فيها، نسب من قبل وزارة الثقافة والإعلام عضواً في هيئة التنقيب الأثري لطريق الحج القديم -زبيدة- عام ١٩٨١.

وفي عام ١٩٨١، ومن خلال عمله بحقل الأثار تمكن -وبشكل شخصي- من اكتشاف آثار منطقة القادسية الأولى، واستقصاء كل ما ورد عنها مطالعة وبحثاً، وتسجيل المعلومات الخاصة بها، ورسم الخرائط المطلوبة للاهتداء إليها، ثم زيارتها ميدانياً مراراً متعاقبة وتصويرها فوتوغرافياً وأنجز بذلك بحثاً مفصلاً لخمسة وعشرين موقعاً أثرياً بها، ونشرت الصحف العراقية في وقتها هذا الاكتشاف ونشر بالتفصيل في مجلة الذخائر اللبنانية.

ثم نسب أيضاً عضواً في هيئة التنقيب والصيانة الأثرية في الكفل في الفترة من ١٩٨١/٥/١٨ لغاية ١٩٨١/٦/١١.

وفي ١٩٨٥/٥/١٨ اختير عضواً في لجنة جمع التراث السياسي للجمهورية العراقية ١٩١٤-١٩٥٨ مع نخبة من علماء التاريخ والآثار في جامعة بغداد.

أحيل على التقاعد بتاريخ ١٩٩٤/٩/٢٥، وهو الآن متفرغ لإكمال بحوثه ومؤلفاته ودراساته في بعض فنون المعرفة.

وفي عام ١٩٩٩ أقام في بيروت، وأسس فيها (مؤسسة المواهب للطباعة والنشر)، وقد نشرت عدداً من الكتب التراثية المحققة.

أصدر في بيروت مجلة فصلية محكمة تعنى بشؤون الآثار والتراث والمخطوطات والوثائق باسم (الذخائر)، صدر العدد الأول منها في ٢٠٠٠/١/١م، وقد صدر حالياً عددها الثامن والعشرون، وما زال يتولى إصدارها ورئاسة تحريرها.

اصدر في النجف مجلة فصلية تُعنى بالدراسات والبحوث التراثية المتخصصة بشؤون النجف الاشرف، اسمها (آفاق نجفية) صدر العدد الأول منها في ٢٠٠٦/١/١م وقد صدر حالياً

عددها الواحد والثلاثون وما زال يتولى إصدارها ورئاسة تحريرها.

أصدر في الكوفة، مجلة فصلية تعنى بالدراسات والبحوث التراثية المتخصصة بتاريخ الكوفة ومسجدها المعظم (حولية الكوفة) صدر عددها الأول في ٢٠١١/١/١م، عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به، وما زال يتولى رئاسة تحريرها.

الإجازات :

أجازه عدد من علماء الإسلام بالرواية لمعرفته الواسعة بالطرق والأسانيد، منهم وحسب تاريخ الإجازة:

١- المؤرخ الدكتور السيد سلمان هادي آل طعمة -كربلاء ٢٩ شعبان ١٤١٦هـ

٢- المحقق الشيخ كاظم الفتلاوي النجفي - النجف الاشرف ٢١ محرم ١٤١٧هـ

٣- آية الله السيد محمد رضا الموسوي الخرسان - النجف الاشرف ٢٨ رمضان ١٤١٧هـ

٤- آية الله محمد مهدي الموسوي الخرسان - النجف الأشرف ٢١ ذي القعدة ١٤١٧هـ

٥- العلامة الشيخ عز الدين الجزائري- بيروت- لبنان ٩ ذي القعدة ١٤١٩هـ

٦- العلامة السيد عبد الستار الحسني - النجف الأشرف ٢٠ محرم ١٤١٨هـ

٧- آية الله السيد محمد علي الموسوي الحمامي - النجف الأشرف ١٧ جمادى الأول ١٤١٨هـ

٨- المرجع الديني آية الله السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم - النجف الأشرف ١٤١٨هـ

٩- المرجع الديني آية الله الشيخ بشير حسين النجفي- النجف الأشرف ١٧ ربيع الأول ١٤١٨هـ

١٠-العلامة السيد محمد حسن آل الطالقاني -النجف الأشرف ٣ ربيع الثاني ١٤١٨هـ

١١-العلامة الدكتور حسين علي محفوظ - الكاظمية - بغداد ٢٨ محرم ١٤٢٠هـ

١٢-العلامة الدكتور السيد جودت الحسيني القزويني - بيروت - لبنان ١٥ محرم ١٤٢٣هـ

١٣-العلامة السيد احمد الحسيني الأشكوري - قم - إيران ٥ رمضان ١٤٢٧هـ

١٤-العلامة الدكتور الشيخ يوسف محمد عمرو الوائلي - بيروت- لبنان ١٦ ربيع الآخرة ١٤٣٠.

مؤلفاته المطبوعة :

١- أخبار بن أبي عبيدة الثقفي، برواية أبي مخنف، لوط بن يحيى الأزدي الكوفي، (جمع وتحقيق) -٢٠٠٠م - بيروت.

٢- أسماء القبائل وأنسابها للحسيني القزويني (تحقيق وشرح) ١٩٩٩م - بيروت.

٣- أصوات ثائرة مجموعة شعرية (جمع وأختيار) ١٩٧٢م - النجف.

٤- الإمام زين العابدين ١٩٧٢م- النجف.

٥- أنوار العقول من أشعار وصي الرسول، لقطب الدين الكيدري (دراسة وتحقيق) ١٩٩٩م - بيروت.

٦- أول الشهداء مسلم بن عقيل ١٩٦٥م - النجف.

٧- تاريخ الكوفة الحديث ١-٢ ١٩٧٤م - النجف.

٨- تحفة الأزهار وزلال الأنهار، لضامن بن شدقم الحسيني المدني، ١-٣ (تحقيق) ط ١٩٩٩.

٩- حصيلة الثورة العراقية من النتاج الفكري- ١٩٨٨م - بغداد.

١٠-خطط الكوفة (تحقيق) -١٩٧٩م - النجف.

١١-دليل المتحف الوثائقي لثورة العشرين في النجف ١٩٧٩ -النجف.

١٢-ديوان فاطمة الزهراء(عليها السلام) (جمع وتحقيق) ١٩٩٩م- بيروت.

١٣-ديوان الحاج محمد جواد عواد البغدادي (تحقيق) ١٩٩٩م - بيروت.

١٤-ديوان الملا علي التركي (جمع وتحقيق) ١٩٧٢م - النجف.

١٥-ذكرى الإمام الحسين(عليه السلام) (جمع ونشر) ١٩٦٥م - النجف.

١٦-الرائد مسرحية تاريخية- ١٩٧٢م - النجف.

١٧-الروض المعطار في تشجير الأزهار -١٩٩٩م.

١٨-الزواج المبكر في الطب والدين والمجتمع (مراجعة) ١٩٩٩- بيروت.

١٩-سبايا الحسين ١٩٧٤م - النجف.

٢٠-السفير - ملحمة شعرية (تقديم) ١٩٧٤م - النجف.

٢١-الشذوذ الجنسي (نشر) ١٩٦٥م - النجف.

٢٢-شعراء الكوفة الشعبيون ١-٢ ١٩٦٨-١٩٧٤م - النجف.

٢٣-صفحات من ثورة العشرين (تحقيق) ١٩٧٤م – النجف

٢٤-صوموا تصحوا ١٩٦٣م – النجف.

٢٥-فضائل الإمام علي(عليه السلام) ١٩٧١م – النجف.

٢٦-قلائد الذهب في جمهرة أنساب العرب ١٩٧٨م – بغداد.

٢٧-قلائد الذهب في معرفة أنساب العرب، لمصطفى حمدي البلوي الكردي الدمشقي (تقديم وتعليق) ١٩٩٩- بيروت.

٢٨-الكوفة في ثورة العشرين ١٩٧٢م- النجف.

٢٩-مذكرات برترام توماس، الحاكم السياسي البريطاني لمنطقة الناصرية في العراق ١٩١٨-١٩٢٠، ط١ – ١٩٨٦- بغداد. ط٢- ٢٠٠٢- بيروت.

٣٠-مذكرات السيد حسين كمال الدين -١٩٨٧م- بغداد.

٣١-مذكرات السيد سعد صالح جربو- ١٩٨٧م – بغداد.

٣٢-مذكرات السيد سعيد كمال الدين -١٩٨٧- بغداد.

٣٣-مذكرات الحاج صلال الفاضل (الموح) -١٩٨٦- بغداد.

٣٤-مذكرات الشيخ عبد الحميد زاهد -١٩٨٧- بغداد.

٣٥-مذكرات الحاج عبد الرسول تويج -١٩٨٧- بغداد.

٣٦-مذكرات السيد كاطع العوادي -١٩٨٧- بغداد.

٣٧-مذكرات السيد محمد علي كمال الدين -١٩٨٦- بغداد.

٣٨-مذكرات الكابتن مان، الحاكم السياسي لمنطقة الشامية – العراق ١٩١٩- ١٩٢٠م – بيروت ٢٠٠٢م.

٣٩-مساجد الكوفة – ١٩٧٧- النجف.

٤٠-المسكوكات الكوفية، دراسة تاريخية أثرية مصورة للنقود الإسلامية المضروبة في مدينة الكوفة، وكيفية ومحل ضربها (٩٧-٢٦٤هـ) مستل -٢٠٠٠م –بيروت.

٤١-مسلم بن عقيل في الكوفة – ١٩٧٥م – النجف.

٤٢-معرض تاريخ الكوفة الفوتوغرافي (دليل) -١٩٧٤- النجف.

٤٣-معرض ثورة العشرين الفوتوغرافي الوثائقي (دليل) ١٩٧٥- النجف.

٤٤-مقتل الإمام الحسين(عليه السلام)، برواية أبي مخنف، لوط بن يحيى الأزدي الكوفي، (جمع وتحقيق) – بيروت- ٢٠٠٠م.

٤٥-منطقة القادسية، دراسة تاريخية جغرافية، مستندة إلى المصادر التاريخية والأدبية والمسح الميداني – مستل ٢٠٠٠م. بيروت.

- موسوعة الخط والزخرفة العربية، (١١ مجلد) – بيروت- ١٩٩٩م وهي:

٤٦-المجلد الأول: أصول الخط العربي.

٤٧-المجلد الثاني: الخط الكوفي.

٤٨-المجلد الثالث: خط النسخ.

٤٩-المجلد الرابع: خط الثلث.

٥٠-المجلد الخامس: الخط الديواني.

٥١-المجلد السادس: الخط الديواني الجلي.

٥٢-المجلد السابع: خط التعليق (الفارسي).

٥٣-المجلد الثامن: خط الرقعة.

٥٤-المجلد التاسع: الخطوط العربية الأخرى.

٥٥-المجلد العاشر: جمهرة الخطوط العربية

٥٦-كشكول الزخرفة العربية الإسلامية، المجلد الحادي عشر.

٥٧-النجف الأشرف وحركة الجهاد عام ١٩١٤م – بيروت ٢٠٠٢م.

٥٨-نسمة السحر لليماني الصنعاني (تحقيق) ١٩٩٩م – بيروت.

٥٩-نصوص من تاريخ أبي مخنف (جمع وتحقيق) -١٩٩٩م – بيروت.

٦٠-وثائق نادرة من الخط العربي.

٦١-معجم الشعراء في معجم البلدان – بيروت ٢٠٠١م.

٦٢-معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى عام ٢٠٠٢م في ستة مجلدات – بيروت ٢٠٠٢م.

٦٣-معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى عام ٢٠٠٢م في سبعة مجلدات- بيروت ٢٠٠٢م.

٦٤-الطليعة من شعراء الشيعة للشيخ محمد السماوي (تحقيق) في مجلدين، بيروت ١٩٩٩م.

٦٥-النجف في ربع قرن للسيد محمد علي كمال الدين- (تحقيق)، بيروت ١٤٢٦هـ ٢٠٠٢م.

٦٦-النجف الأشرف ومقتل الكابتن مارشال ١٩١٨- بيروت ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٦٧-النجف الأشرف والثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠ – بيروت ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٦٨-شيخ الشريعة وقيادته في الثورة العراقية ووثائقه السياسية- بيروت ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٦٩-قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلي، في تسعة مجلدات (تحقيق) بيروت ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٧٠-الشيخ محمد تقي الشيرازي – القائد الأعلى للثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠م، ط١ إيران – قم ٢٠٠٦م.

٧١-السيد محمد كاظم اليزدي، أضواء على مرجعيته ووثائقه السياسية – ط١- إيران – قم ٢٠٠٦م.

٧٢-ديوان الصاحب بهاء الدين علي بن عيسى الاربلي – ط دمشق٢٠٠٦م.

٧٣-مذكرات شاهد عيان عن ثورة النجف، لصدر الإسلام الخوئي (تحقيق وتعليق) ط بيروت ٢٠٠٨م.

٧٤-تاريخ النجف للسيد حسين البراقي (تحقيق) ط بيروت ٢٠٠٨م.

٧٥-دراسات في الأدب الشعبي العراقي وأغراضه – ط بيروت ٢٠٠٨م.

٧٦-وثائق الثورة العراقية الكبرى ومقدماتها ١٩١٤ – ١٩٢١م في خمسة مجلدات، ط بيروت ٢٠٠٨م.

٧٧-أدب التاريخ في شعر السيد محمد حسن الطالقاني، ط دمشق ٢٠١٠م.

٧٨-عقود الذهب في جمهرة أنساب العرب لأبن حزم الأندلسي (نقديم وتشجير)، ط بيروت ٢٠٠٩م.

٧٩-مسالك الأبصار في ممالك الأمصار – لأبن فضل الله العمري (تحقيق) ط بيروت ٢٠١٠.

٨٠-معجم تهذيب اللغة- للأزهري (تحقيق وإعادة ترتيب) ط بيروت – تحت الطبع.

٨١-الإمام الحسين(عليه السلام) في الشعر النجفي (تحقيق وجمع) ٢٠١٢م في اربعة مجلدات.

٨٢-مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي ورحلاته (تقديم وإعداد) ط بيروت ٢٠١١م.

٨٣-فصول من تاريخ النجف- للأستاذ عبد الرحيم محمد علي (تقديم وإعداد)، ط بيروت ٢٠١١م في مجلدين.

٨٤-ديوان عبود غفلة الشمرتي (تقديم)، ط بيروت ٢٠١٠م.

٨٥-تاريخ الكوفة للسيد حسين أحمد البراقي النجفي (تحقيق)، ط بيروت ٢٠١٢م.

٨٦-مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: لسبط ابن الجوزي (تحقيق) ط بيروت ٢٠١٣م في ١٥ مجلدا.

الكسائي(*)

هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز، الكوفي مولى بني أسد، وكان من أهل باحمشا- قرية بين أوانا والحظيرة- دخل الكوفة وهو غلام، وكان يعلم بها الرشيد ثم الأمين من بعده.

تعلم النحو على كبر، وسبب ذلك أنه لحن فعيب عليه ذلك، فسأل عمن يعلم النحو، فأرشدوه إلى معاذ الهراء، فلزمه حتى أنفذ ما عنده، ثم خرج إلى البصرة فلقى الخليل وجلس في حلقته، ثم حلقة يونس بعد موت الخليل.

سمع من سليمان بن أرقم، وأبي بكر بن عياش، ومحمد بن عبيد الله العرزمي، وسفيان بن عيينة، وغيرهم.

وقرأ على حمزة الزيات، فأقرأ زمانا بقراءة حمزة، ثم اختار لنفسه قراءة فأقرأ الناس بها، وقرأ عليه بها خلق كثير ببغداد والرقة وغيرها من البلاد وحفظت عنه.

روى عنه أبو توبة ميمون بن حفص، وأبو زكريا الفراء، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو عمر حفص بن عمر الدوري، وغيرهم.

(*) اشارة التعيين (و:٣٣)
انباه الرواة (٢: ٢٥٦)
الانساب للسمعاني (و ١٤٨٢)
بغية الوعاة (٢: ١٦٢)
البلغة(١٥٦)
تاريخ بغداد (١١: ٤٠٣)
تاريخ أبي الفدا (٢: ١٧)
تاريخ ابن كثير (١١: ٢٠١)
تلخيص ابن مكتوم (١٣٧)
تهذيب اللغة (١: ٧)
طبقات الزبيدي (١٢٧)
طبقات ابن قاضي شهبة (٢: ١٤٧)
طبقات القراء (١: ٥٣٥)
طبقات المفسرين (و ١٦٩ ب)
الفهرست (٢٩)
مراتب النحويين (١٢٠)
مرآة الجنان (١: ٤٢١)
المزهر (٢: ٤٠٧)
المعارف (٢٣٧)
معجم الأدباء (١٣: ١٦٧)
نزهة الالبا (٢٦) الورقة (٨١)
وفيات الأعيان (١: ٢٣٠)

وكان الكسائي بعد ذلك أمام أهل الكوفة في النحو وفي القراءة، وأستاذ الفراء، وعلي بن المبارك، والأحمر.

وسُميَ الكسائي لأنه أحرم في كساء، وقيل: انه لما دخل الكوفة جاء إلى مسجد السبيع، وكان حمزة بن حبيب الزيات يقرئ فيه، فتقدم الكسائي مع أذان الفجر فجلس وهو ملتف بكساء أسود، فلما صلى حمزة قال: من تقدم في الوقت يقرأ؟ قيل له: الكسائي أول من تقدم، يعنون صاحب الكساء، فسمي الكسائي منذ ذلك اليوم.

وكان سبب اتصاله بالرشيد أنه كان عند المهدي مؤدب الرشيد، فسأله المهدي يوماً سؤالاً في العربية، فلم يقنع الرشيد بجوابه، فطلب الرشيد أن يلتمسوا له مؤدباً آخر، فدلوه على الكسائي، فأشخصه إليه من الكوفة.

ولهُ من التصانيف :

١- معاني القرآن.

٢- ومختصر النحو والقراءات.

٣- ومقطوع القرآن وموصوله.

٤- واختلاف العدد.

٥- والهجاء.

٦- والنوادر الأوسط

٧- والنوادر الكبير.

٨- وهاءات الكتابة في القرآن.

٩- والحدود في النحو.

١٠- والعدد.

ومات الكسائي وهو في صحبة الرشيد بمدينة الري في سنة تسع وثمانين ومائة للهجرة، وهي السنة التي مات فيها محمد بن الحسن الشيباني الفقيه، فدفنهما الرشيد بقرية رنبوية، قرب الري، وقال: اليوم دفنت الفقه والنحو.

المصدر / :

جهود علماء النحو في القرن الثالث الهجري، تأليف:الدكتور يوسف احمد المطاوع، (مطبعة حكومة الكويت- الكويت ١٩٧٦، ص١٣-١٤.

الكُمَيت بن زيدٍ الأسدي

الشاعر وعصره :

شاعر الشيعة في أحلك ظروفها قساوةً، وشاعر مضر، دارت آراء وأحكام متضاربة، ولكنها تتقاطع عند شاعريته وحول أدبه من تقديم وتقدير، وللخصومة التي دارت بينه وبين مناوئيه سواء أكانت من الناحية الأدبية أم من الناحية الفكرية، ولعله من الشعراء القلائل في العصر الأموي، الذي تعرض لآراء تتطلب وقفة تقصٍ لتلك الأحكام قادحة كانت أو مادحة.

من لقبه يتضح أنه ينتسب إلى قبيلة بني أسد وإلى أبرز بطونها، جاء في الأغاني (وهو الكُميت بن زيد بن خنيس بن مجالد بن (وهيب) بن عمرو بن سُبيع وقيل: وهو الكميت بن زيد بن خميس بن مجالد بن (ذؤيبة) بن قيس بن عمرو بم سُبيع بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خُزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار)[١].

يُدلي الآمدي (ت ٣٧٠هـ) بدلوه مضيفاً اختلافاً آخر في نسب الكميت فيذكر نسبه على الصورة الآتية: «الكُميت بن زيد الأخنس بن مجالد بن ربيعة بن قيس بن الحارث بن عامر بن ذؤيبة بن عمرو بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد»[٢].

وفي الخزانة «وهو الكُميت بن زيد بن الأخنس بن مجالد بن ربيعة بن قيس الحارث بن عامر بن ذؤيبة بن عمرو بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد»[٣].

وفي نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي «هو الكُميت بن زيد بن مجالد بن الأخنس بن ربيعة بن أمرئ القيس بن الحارث بن عمرو بن مالك بن سعد بن ثعلبة»[٤].

يقول ابن حزم الأندلسي بشأن نسب الكُميت و«الشاعر الكُميت بن الأخنس إبن مجالد بن ربيعة بن قيس بن الحارث بن عمرو بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن دودان»[٥].

---

(١) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسن(ت ٣٥٦هـ): (الأغاني)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢ن ١٩٩١م، ٣٢٨/١٦.

(٢) الآمدي، ابو القاسم الحسن بن بشر(ت ٣٧٠هـ): (المؤتلف والمختلف)، صححه وعلق عليه، ن، كرنكو، جار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩١م، ٢٣.

(٣) البغداديّ، عبد القادر بن عمر (ت١٠٩٣هـ): (خزانة الأدب)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط ٢، ١٩٨٤م، ١٤٤/١٠.

(٤) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، أحمد بن عبدالله(ت٨٢١هـ) (نهاية الأرب في معرفة انساب العرب)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٨١.

(٥) ابن حزم، أبو محمد علي بن احمد بن سعيد(ت١٠٦٤هـ): (جمهرة أنساب العرب)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر،١٨٦٢م،١٩٣.

وذكر صاحب الأغاني وإن لم يكن على خلاف كبير في سنة مولده «ولد الكُميت أيام مقتل الحسين بن علي سنة ستين ومات سنة ست وعشرين ومائة في خلافة مروان بن محمد»[١] لذلك عده القلقشندي من المولّدين[٢].

يرى كارل بروكلمان «إن الكُميت بن زيد الأسدي بن سعد بن ثعلبة ولد سنة ٦٠هـ»[٣].

وبلا شير في تاريخ الأدب العربي يقول: «من بني أسد المقيمين في الكوفة، ولد فيها سنة ٦٠هـ/ ٦٨٠م»[٤].

وليس ثمة الكثير عن نشأته الأولى، فقد اتضح انه من أسرة متواضعة المجد، على الرغم من انتمائه إلى قبيلة بني أسد، التي منها «ضرار بن عمرو بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن الأزور وهو ضرار بن الأزور واسمه مالك بن أُدين بن جذيمة بن ربيعة بن مالك أحد أصحاب رسول الله(ﷺ)»[٥].

وعدّ ابن حزم الأندلسي منهم «قيس بن ربيع المحدّث الكوفي»[٦]، علماً إن الكُميت لم يكن من المعرَّقين من الشعراء[٧].

وأغلب الروايات تشير إلى زواجه من امرأة اسمها (حُبَّى) وتدعى أُم المستهلّ، وهي من أسرة موالية لآل البيت(عليهم السلام)، والدها يدعى نُكيف بن عبد الواحد[٨].

وحينما شرعنا في قراءة شعر الكُميت طالعنا ذلك الاسم المميز له الكُميت، فقد بين البغدادي في الخزانة معنى الكُميت: «والكُميت مشتق عن الكُمتة، يقال للذكر والأنثى ولا يستعمل إلا مصغراً، وهو تصغير أكمت على غير قياس والاسم الكُمتة، وهو من الخيل بين الأسود مع الأحمر»، قال أبو عبيدة: «ويفرق بين الكُميت والأشقر بالعرف والذنب، فإن كانا أحمرين فهو أشقر وإن كانا أسودين فهو الكُميت ووجه تصغيره بما يستحسن فقال لأنه لم يخلص له لون بعينه فينفرد به مبكراً»[٩].

ويشارك الكُميت في اسمه ثلاثة شعراء من بني أسد، ذكرهم ابن سلام (ت٢٣١هـ) في طبقاته: «والكُميت بن معروف هو شاعر وجده الكُميت بن ثعلبة شاعر والكُميت بن زيد الآخر شاعر والكُميت بن معروف الأوسط أشعرهم قريحة والكُميت بن زيد أكثرهم شعراً»[١٠] وقد أكد ذلك الآمدي في المؤتلف والمختلف[١١].

وأشار مؤرخو الأدب ودارسوه سواء من انحازوا إلى شخص الكُميت مادحين أم من كانوا قادحين في أغلب دراساتهم، إلى مظهرية الكُميت لما بها من أثر يجسد شخصيته، فقد أورد صاحب الأغاني نصاً، جاء فيه: «كان الكُميت بن زيد طويلاً أصم، ولم يكن حسن الصوت ولا جيد الإنشاد، فكان إذا استنشد أمر ابنه المستهل فأنشد، وكان فصيحاً حسن الإنشاد»[١٢].

وما أسعفت به المصادر عن حياة الكُميت في مرحلة طفولته ولم يكن فيها طفلاً مغمور الشأن بل ظهرت عليه بوادر ذكاء في مستهل حياته، فقد وصفه صاحب الخزانة بأنه كان في صغره ذكياً لوذعياً ومما يروي في هذا الصدد يقال إنه مرّ وهو صبي على الفرزدق وهو ينشد فأعجبه سماعه، فلما فرغ قال: «ياغلام كيف ترى ما تسمع؟قال: حسنٌ ياعمّ، قال: أيسرك أني أبوك.قال: أما أبي فلا أبغي بديلاً، ولكن يسرني أنك أمي.

فحصر الفرزدق وقال: ما مر بنا مثلها»[١٣] لم تتوقف ملامح الذكاء على مرحلة الطفولة فحسب، بل كان يمتلك ذاكرة متقدة ومقدرة كبيرة على الجدال في رجولته[١٤].

لمّح الزجاجي لنشاطه الذهني في رجولته، إذ يقول «شهد الكُميت الجمعة بمسجد الجامع فأحاط به علماء أهل الكوفة فيهم حمّاد والطُّرماح فجعلوا يسألون فكان لا يُسأل عن حرف إلا كان كأنه ممثل بين عينيه»[١٥].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ٣٦٠، ٣٥٩.

(٢) انظر: القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالله(ت٨٢١هـ) (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي/ المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة،(د:ط)،د.ت).

(٣) بروكلمان، كارل،(تاريخ الأدب العربي)، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م، ٢٤٢.

(٤) بلاشير، ريجيس (تاريخ الأدب العربي)، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دمشق سوريا، ط٢، ١٩٨٤م، ٦١٢.

(٥) القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب:١٨١.

(٦) ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب: ١٩٣.

(٧) الكاتب، مجد الدين:(المذاكرة في ألقاب الشعراء)، تحقيق شاكر العاشور، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ١٩٨٨.

(٨) انظر: الأصفهاني، الأغاني: ١٦/٢٣٠.

(٩) البغدادي، الخزانة ١٠: ١٤٧ وانظر لسان العرب مادة(كُمته).

(١٠) الجمحي محمد بن سلام (٢٣١هـ) (طبقات فحول الشعراء)، تحقيق محمود شاكر، مطبعة العاني، القاهرة، مصر، ١٩٧٤م، ١٩٥/١.

(١١) انظر: الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٢٢٣.

(١٢) الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ٣٥٦.

(١٣) المصدر نفسه: ١٦/ ٣٤٦، وقد وردت في ابن عبد ربه، أبي عمر أحمد بن محمد:(العقد الفريد)، شرحه وضبطه ورتب فهارسه: احمد أمين، إبراهيم الأبياري، أحمد الزين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩١م، ٥٤/٤ باختلاف ضئيل، وانظر: البغدادي، خزانة الأدب ١٤٥/١٠.

(١٤) انظر: الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ٣٣٩، ٣٣٠.

(١٥) الزجّاجي أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (ت٢٣٧هـ): (مجالس العلماء) تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ط٣، ١٩٩٩م، ٦٦، وانظر الأصفهاني، الأغاني:١٦/ ٣٣٠، ٣٢٩.

عدّه البغدادي في الخزانة[1] من فقهاء الشيعة، في معرض حديثه نقل صاحب الأغاني[2] أن الكُميت ممن روى وروي عنه، والذي لاشك فيه أن مقدرته على أداء مهنته والتميز بها، مقدرته الخطابية، فقد عدّه الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) من الشعراء الخطباء إذ يقول «ومن الخطباء الشعراء: الكُميت بن زيد الأسدي، وكنيته أبو المستهل»[3].

البغدادي أدلى بدلوه، فقال: «كان خطيبَ بني أسد»[4]، والذي يدل على تملكه لتلك الموهبة الخطابية، ما ذكره صاحب الأغاني من لقائه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بعد أن أعجزته الحيلة، ولم يكن أمامه من مفر، بعد ما توسط له مسلمة بن هشام في الأمر جعلت من هشام يمدح قدراته وموهبته[5]، فإن تلك الصورة من خطبته تدل على مقدرته وتمكنه من الخطابة وتلك خصلة تتصل بمهنة التعليم، امتهن الكُميت ممارسة التعليم في مستهل حياته، فقد عدّه ابن قتيبة في كتابه (المعارف) من المعلّمين الذين ينتمون إلى طبقة الأشراف الفقهاء.

قال: سفيان بن عُيينة، «كان الضحاك بن مُزاحم، وعبدالله بن الحارث، يعلمان ولا يأخذان أجراً، ومهم الكُميت بن زيد الشاعر»[6] وكذلك يروى عن خلف الأحمر أنه قال: «رأيت الكُميت في مسجد (الكوفة) يُعلم الصبيان»[7].

ومما يدل على تفاني الشاعر في الإلمام باللغة، تلك العناية التي أولاها لهذا الجانب، وشهد له بذلك الكثير من معاصريه ممن ترجموا له من المؤرخين صاحب الأغاني الذي يقول عنه: «عالم بلغات العرب خبير بأيامها»[8]، فضلاً عن أن العصر الذي نخوض فيه عصر إنماز بتقعيد القواعد والعناية الفائقة باللغة، واستقصاء غريبها، ومن هذا المنطلق وتقديراً لمجهود الشاعر وتفانيه أشاد به أبو عكرمة الضبي في قوله: «لولا شعر الكُميت لم يكن للغة تُرجُمان، ولا للبيان لسان»[9].

(١) انظر البغداديّ، خزانة الأدب:١٤٤/١٠.
(٢) انظر: الأصفهاني،٣٥٣/١٦.
(٣) الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (البيان والتبيين)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ٤٥/١.
(٤) البغداديّ، الخزانة: ١٤٤/١٠.
(٥) انظر: الأصفهاني، الأغاني:١٦/ ٣٣٣.
(٦) ابن قتيبة، المعارف:٥٤٧.
(٧) المصدر نفسه الصفحة نفسها، وانظر الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ٣٢٨، والمرزباني،أبا عبدالله محمد بن عمران بن موسى:(الموشح)، تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر، ٢٤٨، وانظر: أيضاً التوحيدي، أبا حيان(البصائر والذخائر)، تحقيق إبراهيم الكيلاني، مطبعة الإرشاد، دمشق، سوريا، ١٠٦٤، م٢، ق ٤٤،١.
(٨) الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ٢٩. ٣٢٨.
(٩) البغدادي، خزانة الأدب:١٤٤/١٠.

أكد مقدرته اللغوية القلقشندي إذ يقول «كان عالماً بآداب العرب ولغاتها»[10]، فلا غرو لشاعر أبدى مقدرة على التعلم على يد علماء عصره ومن ثم تحول إلى امتهان التعليم، أن يمتلك الرواية ومقدرة على الحفظ، ومما يرويه اليزيدي في أماليه قال: «اجتمع الكُميت والنُصيب في حمَّام فقال الكُميت للنُصيب أنشدني قصيدتك:

بِزَيْنَبَ أَلمِمْ قَبلَ أنْ يَرْحل الرَّكْبُ

وقُلْ إنْ تملّينا فما ملّكَ القَلْبُ

فقال: والله ما أحفظها. قال: لكني أحفظها، أفأنشدك إياها قال: نعم فأقبل الكُميت ينشده وهو يبكي»[11].

ومهما يكن من شيء فالكُميت سعى وراء الغريب فجاءت أغلب قصائده متضمنة تلك الجهود التي بذلها في بناء شعره، فقد كان شغوفاً في متابعة الأخبار والروايات ومما أعانه على ذلك ما رواه صاحب الأغاني من أنه «كانت للكُميت جدّتان أدركتا الجاهلية، فكانتا تصفان له البادية وأمورها وتخبرانه بأخبار الناس في الجاهلية، فإذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فيخبرانه عنه فمن هناك كان علمه»[12]، وقد أكد رؤبة بن العجّاج الشاعر الرجّاز، أحد معاصري الكُميت اهتمامه بالغريب واستعماله في شعره[13]، فقد اطلع على تجارب الماضين وأساليبهم وفنونهم ومعانيهم، ولابد لدراسة ديوانه وهاشمياته أن يجد تلك التوجهات واضحة المعالم تدل على مقدرته في بناء قصيدته، ومن الخصائص المهمة مقدرته وأثره في معرفة أنساب العرب، فكان له تميز عن معاصريه من الشعراء، فابن عبدة النساب يشيد بذلك قائلاً «ما عرف النسابُ أنساب العرب على حقيقتها حتى قال الكُميت النزاريات فأظهر بها علماً كثيراً، ولقد نظرت في شعره فما رأيت أحداً أعلم منه بالعرب وأيامها» قال أبو عبدالله «فلما سمعت هذا جمعتُ شعره فكان عوني على التصنيف لأيام العرب»[14] نقل عنه صاحب الخزانة: «يقال ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكُميت من صحّح نسبه صحّ، ومن طعن فيه وهن»[15].

وبعد أن تطرقنا إلى كل ما من شأنه أن يُلقي ضوءاً على

(١٠) القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب:١٨١.
(١١) اليزيدي، أبو عبدالله محمد بن العباس بن ابي محمد يحيى بن المبارك.
(١٢) الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ٣٥٢.
(١٣) انظر: المرزباني، الموضح: ٢٤٨.
(١٤) الرومي، ياقوت الحموي:معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م، ٢٣١.
(١٥) البغدادي، خزانة الأدب:١٤٤/١٠، وانظر: القلقشندي:(صبح الأعشى)٣٣٠/١ مما يدلّ على سبعة معرفته لأنساب العرب.

هيأة الكُميت وملامح شخصيته الجسدية، لابد من الإشارة إلى ما يمكن أن يصدر عن رجل يحمل تلك الملامح، من سلوك نفسي ورؤى للحياة والمجتمع الذي ترعرع فيه، فقد أظهر الكُميت اعتزازاً بنفسه وبنسبه انطلاقاً من ذلك النسب الذي يفخر به والذي يرى فيه أنه لا يقل فضلاً عن القريشيين أنفسهم ومما رواه التوحيدي: «خطب رجلٌ من قريش إلى الكُميت بن زيد، فظل يفتخر عليه، ويذكر فضل قريش وأكثر من ذلك فقال له الكُميت: ياهذا إن أنكحناك لم تبلغ السماء وإن رددناك لم تبلغ الماء وقد رددناك»[1].

نشأ الشاعر في الكوفة في زمن كانت تعج فيه بأدباء كبار وقد وصف ذلك ابن بسام قائلاً: «وأما الكُميت والطرّماح، ونصيب، فشعراء مُعاصرة»[2] فكانت له صداقات ولقاءات ومعارضات ومناقضات مع كثير منهم، فقد التقى الشاعر الكبير الفرزدق[3] وعرض عليه شعره وبنصيب[4] وذي الرمة[5] وخلف الأحمر وحماد الرواية[6]، ورؤبة بن العجاج[7] والفراء النحوي[8] والشاعر حكيم بن عياش الكلبي[9] وغيرهم، إلا أن أبرز تلك الاتصالات التي أولاها دارسو الأدب ومؤرخوه أهمية العلاقة المتينة بينه وبين الطرماح بن حكيم الشاعر الخارجي، فقد كانت بينهما من المودة على اختلاف في المذهب الديني والمعتقد السياسي، والنسب، وكان هذا الأمر مثار دهشة المحيطين بهما، ويروي الجاحظ في بيانه: «ولم يَرَ الناسُ أعجبَ حالاً من الكُميت والطرّماح، وكان الكُميت عدنانياً عصبياً وكان الطرّماح قحطانياً عصبياً، وكان الكُميت شيعياً من الغالية، وكان الطرماح خارجياً من الصفرية، وكان الكُميت يتعصب لأهل الكوفة، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ثم لم يجر بينهما صرمٌ ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال إليه»[10].

فما دوافع هذه الصداقة؟

لاريب أن الرجلين كانا يلتقيان في اهتمامات معينة نقيضة لما ذكره الجاحظ، وتلك الاهتمامات قد تخفي وراءها سر ديمومة صداقتهما، فالرجلان اتخذا نهجاً صادقاً في علاقتهما الشخصية بما يؤمنان به، إذن فالمصداقية مع النفس جمعت بينهما على اختلاف في الرأي فضلاً عن سيطرة روح الأدب عليهما وإحساسهما الصادق بمقدرتهما في مضمار الأدب فالكُميت يبدي رأيه في الطرماح حينما أنشده محمد بن سهل – روايته– قول الطرماح:

إذا قُيضت نَفْسُ الطرِّماح أخْلقتْ

عُرى المجدِ واستَرضى غِياثُ القصائدِ

قال: أي والله وعنانُ الخطابة والرواية[11] فضلاً عن أن اهتمامهما ينصب في طلب الغريب واستعماله في شعرهما، وقد أشار إلى ذلك رؤبة بن العجاج، ولعل من الأسباب المهمة لديمومة تلك الصداقة وتميزها، أنهما كانا يعيشان في بيئة متحضرة، تسعى للتحرر من حياة البادية، إلا أن لأحمد حسن الزيات تعليلاً لتلك الصداقة من أنها تصديق للمثل اللاتيني القائل «كل الشعراء أرستقراطيون»[12]، ونعتقد أن هذا الرأي بني في ضوء رؤية الشاعرين، فهما يقولان في ذلك «اتفقنا على بغض العامة»[13].

ولعل د. سهير القلماوي، قد ذهبت بعيداً عندما عللت تلك الصداقة «إن الكُميت صادق الطرماح، أيام لم يكن ليتعصب للعدنانية»[14] فقد وضعت سقفاً زمنياً لقوة عُرى تلك الصداقة تمثل بين عامي ١٠٥هـ إلى ١١٨هـ تلك الحقبة التي حكم فيها خالد بن عبدالله القسري الكوفة، وبما تشير إليه رواية الأغاني، من أن الاستفزاز الذي تعرض له الكُميت دفعه إلى مهاجاة القبائل اليمنية، والناقدة هنا تخلط الأمر وتعارض الروايات التاريخية التي تؤكد قوة عُرى صداقتهما على اختلافهما، من ذلك ما جاء في الأغاني عند سؤالهما: «فكيف اتفقتما، مع تباين المذهب، وشدة العصبية»[15].

---

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر:٨٥/١، وانظر: الزمخشري، الإمام محمود بن عمر (١٠٧٥-١١٤٤م): (ربيع الأبرار ونصوص الأخبار) تحقيق سليم النعيمي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد العراق، (د:ط) ٥٠د:ت) فقد روى الخبر باختلاف قليل،٢٨٠/٤.

(٢) الشنتريني، ابو الحسن علي بن بسام (ت٥٢٥هـ): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان،(د:ط)(د:ت)، ق٤، م١، ٢٠٤.

(٣) الأصفهاني، الأغاني:٣٤٩/١٦.

(٤) انظر: اليزيدي الأمالي:٨٠.

(٥) انظر: الأصفهاني، الأغاني:١٦/ ٣٥١.

(٦) انظر: المصدر نفسه: ١٦/ ٣٢٩، ٣٢٨.

(٧) انظر:المرزباني، الموشح: ٢٤٨.

(٨) انظر: الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ٣٥٤.

(٩) انظر: المصدر نفسه:١٦/ ٣٥٦.

(١٠) الجاحظ، البيان والتبيين: ٤٦/١.

(١١)انظر: الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ٣٢٨/٣٢٩، الجاحظ، البيان والتبيين: ٤٦/١.

(١٢) الزيات، أحمد حسن:(تاريخ الأدب العربي)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٢٨، ١٩٧٨م، ١٨٧.

(١٣) الأصفهاني، الأغاني: ٢٢٩/١٦.

(١٤) القلماوي، سهير: (أدب الخوارج)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر١٩٤٥م، ١٢٧.

(١٥) الأصفهاني، الأغاني: ٢٢٩/١٦، وانظر الصالحي، عزمي (الطرماح بن حكيم)، مطبعة الاقتصاد، بغداد، ١٩٧١م، ١٢٧.

ومهما يكن من شيء فإن ما يهم هنا تأكيد عرى تلك الصداقة وتمسكها وقوتها ومدى تأثيرها في أدب الرجلين تأثيراً وتأثراً وانعكاس ذلك على شعرهما فقد وجد د. الجواري أن الطرماح بن حكيم قد ترك أثراً في أسلوب الكُميت، في معرض حديثه عن الاحتجاج والاستدلال في شعر الكُميت، ولاسيما هاشمياته، إذ يقول في هذا الصدد: «وها هنا مسألة، أحسب أن لها خطورتها، وفي هذا المذهب الذي سلكه الكُميت فقد كان صديقاً للشاعر الخارجي الطرماح بن حكيم، وكانت صلته به في محل استغراب الناس واندهاشهم للاختلاف الواضح في المذهب الديني والسياسي عند كليهما، وكانا إذا سُئلا في ذلك قالا: «اتفقنا على بغض العامة» ولعل لهذه العلاقة أثرها في سلوك الكُميت مسلك الخوارج في الاعتماد على القرآن والحديث في تأييد مذهبه والاحتجاج له»[1].

الكوفة.... شيء من التاريخ :

في موضع تميز بالخصب والنماء في أرض الفرات الأوسط سنة (١٧هـ)[2] انتهت المراسلات بين الخليفة عمر بن الخطاب، وقائد جنده سعد بن أبي وقاص، على الاستقرار فيها، بعد خيارات عدة، ولم تكن أول أمرها، ما تعرف فيما بعد بالكوفة، بل كانت موضعاً تتم على أرضه مبادلات تجارية، ويبدو أن هناك اصطلاحاً تداوله الناس آنذاك، أطلق عليها «أرض السواد»[3] فقد ذكر الطبري أن قائد الجند سعد بن أبي وقاص كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب مبيناً له البعد الجغرافي وأهميته «إني قد نزلت بكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات برياً بحرياً بُنيت الحلي والنصي»[4].

ولعل من أهم أسباب تأسيسها، هو متطلبات السياقات العسكرية التي رآها الخليفة عمر بن الخطاب، بأن تكون معسكراً متقدماً للجيوش المتقدمة، فقد كان ثاقب البصيرة في مهام الجند التي أرسلت إلى العراق حاملة لواء الإسلام، لذلك حرص منذ الوهلة الأولى بأن تبقى محافظة على خصوصيتها العربية الصحراوية[5] إلا أن حياة التحضر آخذة بيد المدينة الفتية على الرغم من عظاته، حملتها طموحات للتحول شيئاً فشيئاً نحو الاستقرار.

يذكر ياقوت الحموي لحظات الولادة، في معجم البلدان عن ابن عباس: «كانت منازل أهل الكوفة قبل أن تبنى أخصاصاً من قصب، إذا غزوا قلعوها وتصدقوا بها، فإذا عادوا بنوها»[6].

تمضي الكوفة نحو المدنية والتحضر والاستقرار ولابد من وقفة مع ما أريد لها وما أصبحت عليه بفعل أمور كثيرة سيجري الحديث عنها لاحقاً وهكذا كانت النشأة إلا أن طبيعة هذا الاستقرار كان استقراراً قبلياً أو بالأحرى امتداداً تاريخياً للروح القبلية الساكنة في النفس العربية[7].

كانت الفتوحات الإسلامية الدافع الرئيس للهجرة إلى الكوفة إذا استقر جنود تلك الحملات واتخذوا منها مستقراً بعد فتح العراق وانتشارهم في مدنه، ومن أجل الوصول لبيان البناء الثقافي والحضاري لهذه المدينة الفتية، لابد من معرفة عناصر تكوينها، فالقبائل القادمة من الحجاز واليمن وحضرموت، قد تميزت بالميل للتعايش مع المكان والبحث عن الاستقرار[8]، اتضح بعد زمن تأثير القبائل في نهج المدينة السياسي والفكري[9].

ومهما يكن من شيء فالجيوش الإسلامية التي اتخذت من الكوفة مستقراً ومنطلقاً لفتوحاتها كانت عربية الأصول، إلا أن هناك عناصر لا يمكن إغفال تأثيرها في البناء الحضاري والثقافي للمدينة، سواء أتلك التي انضوت تحت لواء الإسلام من الفرس بعد انهيار الإمبراطورية الفارسية أم ممن هاجروا إليها من المدن المجاورة، فقد تمازجت فيها وعبر تاريخها الطويل، حضارات وأفكار، ورؤى فلسفية، وسياسية، تفاعلت جميعاً لتصب في بودقة المجتمع النامي، ليمتد أثرها إلى المجتمع الإسلامي عامة وليكون تأثيرها في تراث الأمة وتاريخها المجيد، وقد يأتي تأثير العناصر الأخرى في المجتمع الكوفي لأن مهام العرب الرئيسة كانت منصبة على القتال، فقد ولدت الكوفة إسلامية ارتادها الرعيل الأول من الصحابة[10]، احتضنت علماء أجلاء وأصحاب قرار سياسي على رأسهم

(١) الجواري، احمد عبد الستار: (الشعر في بغداد)، مطبعة دار الكشافة، بيروت ١٩٦٥م، ٧٣.

(٢) انظر الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٨٣٩-٩٢٣م):(تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر،١٩٦٣-٤٢/٤، وانظر الحموي، الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله: (كتاب معجم البلدان)، مكتبة الأسدي، طهران، إيران، ١٩٦٥م، ٣٢٣/٤.

(٣) المصدر نفسه: ٣٠/٤.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل: ٤٣/٤، الحلي: مابيض من يبس السبط والنص، واحدته حلية، نبات بعينه، (لسان العرب ٩٨٥/٢)، النصي: ضرب من الطريفة ما دام رطباً (لسان العرب ٦/ ٤٤٨).

(٥) انظر: الطبري، تاريخ الرسل:٤٤/٤.

(٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان:٤٣٢٣، وانظر الطبري:٤٣/٤.

(٧) انظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٨) انظر: أمين، أحمد فجر الإسلام، دار الكتاب العربي،بيروت، لبنان، ط١، ١٩٦٩م، وانظر خليف، يوسف: (حياة الشعر في الكوفة) (د:ط) ١٧٩، ما يليها.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) انظر: عزمي الصالحي، الشاعر الخارجي، الطُرّماح بن حكيم١٨.

الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) (ت ٤١هـ)، الذي ترك أثراً كبيراً في نشأتها الثقافية والفكرية لاحقاً ولا يغيب هذا التاريخ العريق الذي نمت فيه الحضارة، فالعراق بيئة حضارة موغلة في القدم، وحضارة أهم ما أنمازت به روح التشريع، ليس غريباً أن تتولى الكوفة مهمة تاريخية، ويتمازج فيها تيار الماضي بالحاضر من دون الحواضر الإسلامية بنشاط علمي، كان من جرائه أن تألق فيها فقهاء تمكنوا من ناصية التشريع، كسعيد بن جُبير، وشُريح بن الحارث النخعي وغيره[١]، وقد عبر سفيان بن عُيينة عن مقدرة فقهاء الكوفة العلمية ومشرعيها في قوله: «وخذوا الحلال والحرام عن أهل الكوفة»[٢] ويشير شوقي ضيف إلى تطور مستواهم الثقافي «وليس هذا كل ما نلاحظه على هذه البيئة، فنحن نلاحظ عليها أيضاً كثرة الشعر والشعراء، بحيث تكاد تستقل بأكثر ما جاءنا من شعر عن عصر بني أمية»[٣].

شخصية الكوفة السياسية :

تميزت الكوفة من دون الحواضر الإسلامية بالاضطراب السياسي، فقد ابتدر أهلها السلاح في صراعهم مع ولاتهم وعدم الرضوخ لهم انطلاقاً مما سيطر على هواجسهم النفسية، من شدة البأس وروح الكبرياء، وأنهم على أهبة الاستعداد للخروج والعمل على نشر الدين الإسلامي وأكثر رسائل الخليفة عمر بن الخطاب بالمدد تأتي لقواده من أهل الكوفة، وقد وصفهم قائلاً «جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار»[٤]، وقال عنها الإمام علي إبن أبي طالب(عليه السلام): «الكوفة كنز الإيمان وحجة الإسلام وسيف الله ورمحه»[٥] فسيطر جراء ذلك شعور لدى أهلها بقوة الشخصية والاعتزاز بالنفس فضلاً عن تلاقح الحضارات على أرض العراق القديم، مع هجرة قبائل تملك شيئاً من التمدن والرؤيا في الحكم، بدر إلى عقليتهم بأنهم أصحاب الأمر والذي لامناص منه أن القرار قرارهم ومما أجّج الأمر وزاد من عسرته «أن الأمويين وولادتهم كانوا ينظرون إلى أهل الكوفة على أنهم يمثلون حركة المعارضة ضدهم، فعاملوهم معاملة قاسية، وأخذوهم أخذاً شديداً، ولم يستمعوا إلى رغباتهم»[٦]، فكوّن ذلك شخصية المدينة السياسية المناهضة، وقد دقت على امتداد تاريخها إسفين القضاء على الدولة الأموية.

ولعل من أهم الأسباب الكامنة وراء اتخاذ أهل الكوفة الريادة في المعارضة السياسية ما أشارت إليه د، بنت الشاطئ في أن «معاوية هو الذي وصل بهذه البوادر إلى مرحلة حاسمة في تاريخ العرب والإسلام، لا لأن الخلافة صارت إلى الأمويين، فقد سبق إلى ذلك (عثمان بن عفان) وهو من صميم البيت الأموي، ولكن لأنه صيرها مُلكاً وراثياً لم يعرفه المسلمون من قبل»[٧].

وقد تسلحوا في مواجهة تلك المتغيرات بتبني الفكر الشيعي، الذي نما وترعرع في الكوفة، ونحن ليس في صدد دراسة الأسباب التي كانت وراء نشأته، بقدر ما أصبح حقيقة مسلماً بها ونهجاً تميزت به مدينة مصرت حديثاً في الإسلام، ولكنها وجدت اصطفافها مع الإمام علي بن أبي طالب وآل بيته(عليهم السلام) من بعده، معناه التمسك بالقيم العليا التي دعا الرسول الكريم محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) إليها وقاتلوا من أجلها.

وقد أوضح ذلك الأستاذ أحمد الشايب «أما الأمويون فلم ير الناس لهم هذا الأصل الديني بل رأوهم سياسيين طلاب دنيا وملك، تبرر غايتهم كل وسيلة اصطنعوا الأرستقراطية العربية والوراثة الملكية وأنشأوا ولاية العهد، وعادوا أكاسرة أو قياصرة واعتمدوا على قوة السيف والعقل في تأييد عرشهم»[٨].

إنماز أداء أهل الكوفة بالتخاذل وترك قادتهم في أحلك الظروف يواجهون أقدارهم وتلك صورة توحي في أول أمرها أن أهل الكوفة أهل غدر ونفاق، نرى أنهم في ظروف كثيرة كانت لهم مواقف شجاعة وتضحيات نادرة انمازت بالبأس والرفض للقهر والضيم والذل ولعل في موقف حُجر بن عدي،

---

(١) انظر: أحمد أمين، فجر الإسلام:١٨٤.

(٢) أحمد أمين، فجر الإسلام:١٨٤. (١-عبدالله بن مسعود (...-٣٢هـ) عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، صحابي من أكابرهم فضلاً وعقلاً، وقرباً من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، الأعلام ١٣٧/٤)
(٢- سعيد بن جبير (٤٥-٩٥هـ): سعيد بن جبير الأسدي، بالولاء الكوفي، ابو عبدالله: تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل، من موالي والبة إبن الحارث من بني أسد، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر. قتله الحجاج في واسط، الأعلام ٩٣/٣(٣- شريح القاضي(...-٨٧هـ): (شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي)، أبو أمية: من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام أصله من اليمن، تولى قضاء الكوفة في زمن عمر وعثمان وعلي).

(٣) ياقوت الحموي، كتاب معجم البلدان: ٣٢٩/٤.

(٤) ضيف، شوقي: (التطور والتجديد في الشعر الأموي)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط٨، ١٩٨٧م، ٤٢.

(٥) أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري: ٥٢/٤.

(٦) ياقوت الحموي،كتاب معجم البلدان:٤/ ٣٢٤.

(٧) يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة: ١٢٢، وانظر: هدارة، محمد مصطفى:(اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني للهجرة)، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨م، ٤٠.

(٨) بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن: (قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر)، مصر الجديدة، مصر، ١٩٦٧، ١٠٩.

وتوبة سليمان بن صُرد وأتباعه من التوابين، هرباً من ندمهم وعذابهم الشخصي بتخاذلهم عن نصرة الإمام الحسين بن علي(عليه السلام)، وكذلك من مواقفهم في جيش المختار الثقفي وفي ثورة ابن الأشعث[1]، التي أبلوا فيها بلاءً حسناً.

أمثلة كثيرة تحمل دلالات كبيرة على أنهم لم يكونوا ممن يتحمل الذل والهوان، وقد أشار إلى ذلك فيلهاوزن، إذ يقول «إن أقوى الثورات ضد الأمويين جاءت من العراق، لا من أي حزب خاص، بل من جمهور العرب المستقرين هناك بأسرهم والذين كانوا متحدين في استنكار ضياع استقلالهم وكره أولئك الذين آل الأمر إلى قبضتهم»[2].

فنهج معهم ساسة بني أمية، سياسة الترهيب والترغيب، أرعبت العامة وتملقت الأشراف ليجد أهل الكوفة أنفسهم بين حجري رحى، فجاءت مواقفهم في تلك الثورات تبعاً لتلك السياسة ومدى عنفها، فالكوفة حملت على عاتقها ثقافة الضد، ثقافة نادت بالعصبية القبلية وعصبية المدينة مؤخراً، وجراحات أحداث إسلامية، ترك في ثقافة المدينة التحزب للمكان والولاء العقائدي الذي بنيت عليه، فلم يهدأ أهل الكوفة بل ظل العزم على الثأر وأن غُيب أثرهم أحياناً نتيجة الفواجع المتلاحقة التي قامت بها السلطة الأموية بحق آل البيت(عليهم السلام)، لكن الأمويين دفعوا الثمن باهظاً بعد حين. «والحق أن للأمويين سبباً كافياً للندم على يوم كربلاء فقد منح حزب الشيعة شعار التجمع- الثأر للحسين!؟ الذي لبت دعوته الجهات كافة»[3].

حملت الكوفة النهج المعارض للحكم، وأعلنت موقفاً عن أحقية الخلافة برؤى مختلفة كان من نتائجه أنها أصبحت مثابة للثوار والمتمردين والطامحين للسلطة والخلافات الفكرية والمذهبية والسياسية وبذلك عبرت عن وجدان أبنائها، فالمجتمع الكوفي الجديد «أُسس على مدنيات قديمة لها علم مأثور، فكان طبيعياً أن ينهض أهله بعد ثورة الفتح فيستعيدوا حضارتهم القديمة وعلمهم الموروث»[4] فضلاً عن قيام الجند الفاتحين بتأثيرهم السياسي، إلا أن من أهم يمكن الإشارة إليه أن النزعة المرجعية القبلية التي امتلكت المدينة منذ النشأة حينما خُططت قبلياً وتوزعها الجند على وفق المرجعية القبلية، ترك هذا الجانب الحيوي في عقلية الإنسان العربي أرضية خصبة لتأجج الصراع، حتى وإن كان ليس ذا قيمة، فالمجتمع الكوفي الذي تكّون من الجند وضم بين صفوفه من القراء الذين عرفوا بتمسكهم بقيم الدين الجديد والموالي كانت لهم وجهة نظر وأثر في الأحداث، عملت كل تلك الأطراف مجتمعة على بناء المدينة السياسي والفكري وانعكس ذلك على بيئتها الثقافية وأسهم في بروز رؤى سياسية متعددة كل منها تعبر عن مشرب رأته معيناً آثرته وارتضته وقاتلت من أجله وثبتت وتركت أثرها في التاريخ السياسي للدولة الإسلامية.

وعلى رأس تلك المعارضة حزب تعرض لضربات موجعة عليه من السلطة الأموية لأنه في نظرها محرض رئيس وشاهد على اغتصابها للسلطة، فقتلت وطاردت وشردت وأذلت كل من والاه، فالأمويون رأوا أن «جميع سكان العراق خصوصاً أهل الكوفة شيعة على تفاوت فيما بينهم»[5] فلجأت في تعاملها مع المعارضة الكوفية إلى أسلوب البطش والتنكيل ويصف الإمام أبو جعفر محمد الباقر(عليه السلام) حال شيعة آل البيت قائلاً: «ومن يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله، أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين(عليه السلام)، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنة وتهمة، حتى إن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال: شيعة علي»[6].

ولا يفوتنا هنا، الإشارة إلى أن الدافع الرئيس الذي تمخضت عنه تلك المعارضة منذ نشأتها الجانب الاقتصادي الذي هو على رأس أولويات المعارضة واهتماماتها وقد بين ذلك د. محمد مصطفى هدارة موضحاً أثر السياسة الاقتصادية الأموية وعقم منهجها، إذ يقول:

«وكان ظهور الدولة الأموية تأييداً لفقدان هذا التوازن الاقتصادي وانعدام الاستقرار في الحياة السياسية والاجتماعية، لأن الأمويين استخدموا فكرة العطاء استخداماً سيئاً فأخضعوه للتيارات السياسية في عصرهم وجعلوه سلاحاً ضد أعدائهم ونعيماً مباحاً لأنصارهم»[7].

الكوفة والشعر والسياسة :

(١) الشايب، أحمد: (تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني)،دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٧٦، ٤٩٤،٢٩٥.

(٢) انظر: تاريخ الطبري: ٦/٥، ٥٦٩، ٥٠٢، ٢٧٦/ ٣٤٢.

(٣) فيلهاوزن: (الدولة العربية وسقوطها ٣٨) عن نيكلسن:(رينولد، تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية وصدر الإسلام)، ترجمة وتحقيق صفاء خلوصي، مطبعة المعارف، بغداد، العراق، ١٩٦٩م، ٣١٥.

(٤) رينولد نيكلسن، تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية وصدر الإسلام: ٣٠٤.

(٥) أحمد أمين، فجر الإسلام، ١٨٢.

(٦) نعمان القاضي، الفرق الإسلامية: ٩٦.

(٧) ابن أبي الحديد، عز الدين عبد الحميد(ت٦٥٥هـ):(شرح نهج البلاغة)، تحقيق الشيخ حسن تميم، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٦٣م، ٣/ ١٥٩٥- عبيد الله بن زياد، من الحكام الأمويين، رتب أمور البصرة ٦٨٠م، تولى الدفاع عن الكوفة، قاتل الحسين بن علي (عليهما السلام) في كربلاء، انهزم من وجه إبراهيم الاشتر عند نهر خازر وقتل ٦٨٦م.

أخذت الكوفة منحى وصبغة لتنطلق في تأثيرها انطلاق من يمتلك من المقومات الحضارية والاجتماعية ما يؤصّل لذلك، ومن زاوية أخرى يكمل الصورة الفنية لشخصيتها وخصوصيتها بين الحواضر الإسلامية ولابُدّ للشعر هنا من وقفة ليستمدّ من تلك الروح الثوريّة الوثّابة مادّة خصبةً للتعبير وهذا ما عناه الناقد ت.س. إليوت في قوله « إنّ الشعر يستمدُّ حياته من كلام الناس وبالتالي فهو يمنح هذا الكلام نوعاً من الحيويّة في ذلك فالشعر يمثّل أعلى درجات الوعي في الكلام»[1]، وهكذا اتّسعت دائرة الكوفة الشعريّة وشحذت طاقاتها الفنّية نفسها صوتاً هادراً معبّراً عن معانٍ كبيرة في خِضمْ أحداث جِسام، وقد اتخذ الشعر من تلك الأحداث موضوعاً واستغلّها استغلالاً فنياً مصوّراً ما تعانيه هذه المدينة من رهبة ورغبة في الانتقام، وبذلك أضحت مناراً للثوّار الرافضين للحكم الأمويّ وان تم ذلك بعد حقبة من الزمن إذ «بدأ المفهوم السياسي يشيع شيئاً فشيئاً في الشعر العربي حيث استطاعت العقيدة أن تعلو على صوت الانتماء القبلّي وتشمل العقيدة بنظام الحكم والاقتصاد وبناء المجتمع وعلاقة المسلمين بغيرهم من المجتمعات وهي كُلها أمور تدخل في صميم السياسة»[2].

لكن اللافت للنظر وممّا يجدر الإشارة إليه أنّ المدينة التي على أبوابها ثورات تحمل من الأهميّة مما يغيّر وجه التاريخ قد خمد الشعر فيها[3]، بيد أنّ تخلّف الشعر عن أداء مهامّه يعبّر في هذا الصمت عن الحزم الذي أخذت به قيادة الشام حكم العراق على وفق أسلوب تعسّفي[4] انطلاقاً من إيمان بني أمية من أنّ أهل هذه المدينة يؤلفون مصدر خطر على سلطانهم، إن التراكمات الكميّة للهزائم التي لحقت بأهل الكوفة وشعورهم بالذنب بعد تخلفهم عن أداء مهامهّم في صراعهم مع الشام، فضلاً عن تلك الدماء التي سالت على أرضهم[5]، كلُّ تلك الأسباب مجتمعة، أصبحت مادة خِصبة استمدّ منها الشاعر الكوفي المتأخر، صورة فنية رائعة لشعر يحمل بين طياته تاريخ الأدب الشيعي في صراعه الطويل المر، فقد أورد الأصفهاني في مقاتل الطالبيّين ما نصه:

«وقد رثى الحسن بن عليّ- صلوات الله عليه- جماعة من متأخري الشعراء أستغني عن ذكرهم في هذا الموضع كراهيّة الإطالة، وأمّا من تقدّم فما وقع إلينا شيء رُثيّ به، وكان الشعراء لا يقدمون على ذلك مخافة، من بني أمية وخشية منهم»[6].

وهذا ما يراه د. يوسف خليف في أنّ الشاعر الكوفي قد استعمل التجارب التي مرت بها مدينته وأضحت أرضية للتعبير عن شعره اتجاه أحداث عصره قائلاً: «والشيء الذي نريد أن نسجله.. عن ثورة الحسين هو أنّ هذه الثورة على الرغم من قلّة الشعر الذي قيل في أثنائها – كانت مادةً خصبةً استطاع أدباء الشيعة المتأخرون أنْ يستغلوها في فنّهم استغلالاً واسعاً، أمدّ الأدب الشيعي بثروة ضخمة من القصائد الطويلة»[7].

الشاعر وصراع المدينة السياسيَ :

من أهمّ المشاكل التي واجهتها الدولة الإسلامية الفتية ودارت حولها خلافات متنوعة الأشكال والأبعاد موضوع الخلافة، وأحقية من يتولاّها، وإنّ عرض تداعيات الصراع السياسي حول هذا الموضوع وأثره في الشعر والشعراء، إنّما يعطي صورة عن مدى الاحتقان السياسيّ الذي كانت تمُّر به الأمة الإسلامية في حاضرة من أهمّ حواضرها، وهي صورة حَرَيّة أنْ تضيء جوانب كثيرة في تلك النقود التي وُجِّهت إلى الشعراء، قادحة أو مادحة.

تلبَّس الشعر السياسي في العصر الأموي بألوان عديدة، مختلفة التوجهات معبراً في ذلك عن طبيعة الصراع الدائر بين الأحزاب المتصارعة التي يدّعي كلٌّ منها أحقية رؤية مريديه في الحكم الإسلامي، وقد تبين كيف نما التشيّع في الكوفة وتحديداً في الحقبة التي اتخذها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) حاضرة لخلافته، فـ«بينما كان عليٌّ يمثّل التيار الإسلامي الذي يقدم الدين على كل شيء من عصبية أو غيرها ممّا يجافي روح الإسلام، كان معاوية يمثل التيار القبلي الجاهليّ تمام التمثيل»[8]، فقد سيطر إحساس بعد اغتيال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) لدى أهل الكوفة بأنّ الحكم الأمويّ مغتصب للسلطة، وأن آل البيت(عليهم السلام) هم أحق من غيرهم في تولي أمر

(١) محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي:١١.

(٢) ت، س، اليوت: (فائدة الشعر فائدة النقد)، ترجمة وتقديم يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت، لبنان،١٩٨٢م، ٢٥.(ت، س،اليوت: شاعر وناقد كبير، له عدة أعمال شعرية ونقدية، وقد أثر بشعره ونقده في الآداب الحديثة الأوروبية والعربية على السواء، ومن أشهر أعمالها الشعرية الأرض الخراب.(Thomas Stearns ٢٦ sept ١٨٨٨-t-s eilot).

(٣) القط، عبد القادر: (في الشعر الإسلامي والأُموي)، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م، ٢٧٥.

(٤) انظر: الطبري،٥/ ٢٧٦، ٥٠٢، ٥٦٩، وانظر يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة: ٣٦٨.

(٥) انظر: المصدر نفسه:٥/٢٧٦ وما يليها ويسوف خليف،حياة الشعر في الكوفة:٥١.

(٦) انظر: يوسف خليف حياة الشعر في الكوفة: ٥٩.

(٧) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين:(مقاتل الحسين) تحقيق السيد أحمد الصقر، دار المعرفة، بيروت، لبنان،(د:ط)، ١٢٢.

(٨) يوسف خليف نحياة الشعر في الكوفة:٣٨.

المسلمين[1] فقاموا بثورات عدّة أخفق أكثرها، فصب الشعراء جام غضبهم وحزنهم على ما أصاب آل البيت(عليهم السلام) من بني أُمية، فـ«شعراء الشيعة... محزونون على أئمتهم الذين سفك الأمويون دماءَهم، لا يرعون فيهم إلاّ ولا ذمّة، وقد تحولوا يبكونهم ويندبونهم بدموع لا ترقأ ولا تجف، وربما كان هذا الطابع أهم ما يميز الشعر الشيعي في هذا العصر»[2] إلا أن الشعر الشيعي في كثير من الأحيان أخفق في مجاراة ثورات آل البيت(عليهم السلام)، كما أخفق أهل الكوفة أنفسهم في نصرتهم، وقد يكون مرد ذلك لطغيان دواعي الحزن والجزع والخوف التي اشتدت عليهم، فلم يجدوا مقدرة للتعبير عن تلك التوجهات التي يحملونها «ومنهم من دافع عن أحقيتهم وتصدى للدفاع عنهم بكل ما أوتي من قوة الحجة والمنطق لم يخش بأساً وذلك هو الكُميت»[3].

يحمل الشعر السياسي العقائدي الشيعي الذي جاء به الكُميت معنى لا قبل لكثير من شعراء الشيعة السابقين وحتى اللاحقين به، لأن الشعر عنده كان منوطاً بالكلمة والحقيقة، وأن الصورة في شعره لا تعني اليقينية في العقل فحسب وأنما تثبت في المتلقي حالة من وقع الصورة فـ«عظمة الشاعر تكمن في تطبيقه القوي والجميل للأفكار عن الحياة»[4].

والكُميت الشاعر الإنسان موقن بما أدعى، فمدينته تجر أذيال الخيبة بعد أن كانت ترفل بالعز والكبرياء، وربما صمتت واستكانت إتباعاً لمبدأ التقية، «فإن الشاعر لابد أن يختار ولابد له من موقف يفرض عليه هذا الاختيار،ولا نستطيع القول إن الشاعر يختار من فراغ أو في فراغ فاختياره تحدده ثقافته وذكاؤه، كما يحدده انتماؤه الاجتماعيّ وهو يعيش في ظل إطار ثقافي واجتماعي، يضع مجموعة القيم التي تتدخل في تكوين المعنى ومن ثمّ في تكوين النصّ»[5].

إذن الكُميت الشاعر الشيعي في العصر الأموي، الذي ترك شعره آثاراً تحمل أبعاداً عميقة انعكست في مسار الحياة السياسية والعقائدية وقف حياته على الدفاع عن حق أهل البيت(عليهم السلام)، ولَقيّ في ذلك من المحن والمكاره ما يدّل على صدق وجدانه، مدحهم والدنيا من حولهم مظلمة، وهم مطاردون[6].

والشاعر الوفي اليائس يدل على خلق عظيم، تعبيراً لصدق الوفاء في زمن اليأس والقهر، وحب الكُميت للرسول مُحَمَد(صلى الله عليه وآله وسلم) وآل بيته(عليهم السلام)، كان يمثل مثالاً لصدق عواطف الشعراء في تبنيّ مواقفهم في الزمن الصعب، فقد أفنى حياته يبشّر بقيمهم وخلقهم، وهذا ما أغضب بني أمية منه لأن السياسة الأموية ترى في ذلك المدح مصداقاً لحقّ العلويين في الخلافة.

ومن أهمّ مظاهر تشيّعه، تلك الهاشميات التي أبدعتها قريحته الشعريّة، وقد صبّ فيها خلاصة تطورّه العقلي محققاً رؤيته السياسية والعقائدية، معبراً عن ولاء مدينته في حبّ آل البيت(عليهم السلام). فقد أتخذ من الولاء للإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) وآل بيته موضوعاً لشعره، واستمدّ مادته من تلك القيم التي كان آل البيت(عليهم السلام)، يدعون إليها وهو بذلك يتوافق طموحاً وإبداعاً شعرياً في أحقية آل البيت(عليهم السلام) للخلافة، وكان الكُميت في هاشمياته، تأييداً أدبياً في صراع الكوفة التي عُدت مسرحاً شيعياً، أبطاله دخلوا في صراع مرّ من أجل إعادة الخلافة إلى أصحابها الشرعيين من آل البيت(عليهم السلام).

رأى الشاعر بطش بني أمية بأحفاد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ثلاثة أيام، منتهكين كل القيم، وما قام به الحجّاج بن يوسف الثقفي من حصار مكة وضربه للكعبة وحجّاجها بالمنجنيق في أثناء خلافة عبد الملك بن مروان، تلك الأحداث وذكرياتها تمور في ذاكرته الفتية تعبر عن حزن الكوفة المستديم، فالشعر الشيعي في الكوفة في ولادته جاء تعبيراً عن عواطف جيّاشة بحبُ آل البيت(عليهم السلام) وحقّهم في الخلافة، بكاءً وغضباً وسخطاً أنماز بالرقّة، بألحان حزينة، يرثي من قُتلوا في ساحات القتال دفاعاً عن معتقدهم، تحمل تلك العواطف بين طيّاتها روحاً وثّابة للثورة على بني أُميّة، هكذا يبدو المسرح الشعريّ.

ومن هنا نستطيع أنْ نفهم التنّوع والتفرّد عن كل أولئك الشعراء الذين سبقوه في صراع الشيعة، وإنما انماز شعر الكُميت عن شعر الشيعة بما توافر له من منابع عقلية جديدة، صدر عنها هذا العصر وبمفارقته للصياغة الشعورية التقليدية إلى صياغة فكريّة أو ذهنية جديدة مدعمة بكل ما عرف العقل العربي حينئذ من طرق الجدال والحجاج والاستدلال[7]، ولم يكن شعره شعراً كيفما اتفق إنما كان تعبيراً عن ميسم ذاتي يحمل طباع الذاتية الشخصية دفع به كلّ عمل جسّده في أعماله لا من خلال تعبيره ولكن من خلال شعوره، عن عالم يائس لا رجاء فيه، فكان لابدّ أنْ

(١) نعمان القاضي، الفرق الإسلامية:٦٧.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ٨٣.

(٣) ضيف، شوقي: (العصر الإسلامي) دار المعارف، القاهرة، مصر، ط١٦، ١٩٩٥م، ٣١٥.

(٤) أحمد،رقية إبراهيم: (خلافة الهاشميين في الشعر حتى ابن المعتز وابن المعز) المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، مصر، ١٩٨٧م، ٣٢.

(٥) ماثيو أرنولد، عن فائدة الشعر وفائدة النقد، اليوت، ت.س.اليوت:١١١.

(٦) علي، أحمد يوسف: (قراءة النص، دراسة في الموروث النقدي)، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، مصر، ١٩٨٨م، ٢٣٦.

(٧) انظر: الحوفي، أحمد محمد: (أدب السياسية في العصر الأموي)، دار القلم، بيروت، لبنان، (د:ط)(د:ت)، ٥٠٦.

يجاري الشاعر الكوفي مشاعر مدينته وإحساس أهلها فينتابه ما أصابها من خيبة وانهزام، انعكس[1] على أدائه، ولا نتّفق مع تلك الآراء التي تقول إنّ الكُميت من الشيعة النظريّن وأنّ تشيّعه كان محدوداً من الناحية العمليّة[2].

والحق عندما مضينا في البحث عن التفاعل الإنساني بين المكان والشاعر ومدى حضوره في التعبير عن المكان، وجدنا الشعرَ في حالة صراع قاس، ولاسيما عند قيام الإمام زيد بن علي(عليه السلام) بثورته، فالكُميت الذي تحمل ذاكرته، ذاكرة مدينة مهمّشة كلّ ذلك الإخفاق ترك في نفسه شعور اليائس من نجاح الثورة، وهذا الشعور القائم في نفسه جاء على أساس تلك التجارب المخفقة السابقة[3].

وقد ضن الشاعر بحياته عندما حانت ساعة التضحية وهو الذي صدح بحب آل البيت(عليهم السلام) وحرّض على الثورة لاسترداد حقّهم وعانى التشرّد والحبس والتنكيل، يذكر المرزباني رواية عن أبي بكر الحضرمي قال «إنّي لأمشي مع الكُميت إذ لقينا زيد بن علي فقال يا ابا المستهل: ألا تلمُّ بنا. فأطرق ولم يجبه فلّما مضى قلت يكلمك ابن رسول الله(صلى الله عليه وآله) فلا تجيبه.

قال أنشدك في ذلك شيئاً حضرني فقال:

دَعــاني ابْــنُ النَّبــيِّ فَلَــمْ أُجِبْــهُ
ألهفــي لَهْــفَ ذي الــرأي الفَــرُوْق
حِــذَارَ مَنِيَــةٍ لاَ بُــدّ مْنهَــا
وَهَــلْ دُوْنَ المنيَــةِ مِــنْ طرِيْــقِ؟»[4]

ولا أخال رأياً بُني على رؤية أُحادية الجانب ستحسم في أمر الشاعر، وقد تناقل المؤرخون آراءَ أوردها الباحثون وصدروها إيماناً بمن سبقوهم، من دون رويّة وتمحيص وتطبيق قواعد البحث العلميّ ومعاييره لأجل استخلاص النتائج الموضوعيّة، حقاً ليس بالإمكان الاطلاع على ما يجول في ضمير الشاعر، ولكنَّ محلّل النصَّ يتجاهل وسيلة ما لإدراك صدقه الفنيّ في عمله من خلال تعبيره، والذي يدل على مصداقية التعبير ذلك الاتصال الوثيق بهموم انتمائه، ونلمح الشعوريّة من خلال تلك الإيماءات الحزينة التي أطلقها بعد فشل ثورة الإمام زيد بن علي، تلك الإيماءات المغمورة بإحساساته وشعوره الصادق وفي الوقت نفسه مصداق للقيم الشعورية لعمله الأدبي:

دَعَــانِي ابْــنُ النَبــيِّ فَلَــمْ أُجِبْــهُ
أَلَهفــي لَهْــفَ لِلــرَأْي الغَبــيْنِ
فَيــا نَــدَمَاً غَــدَاةَ تَرَكْــتُ زِيْــدَاً
وَرَائِــي لابْــنِ آمِنَــةَ الأَمِــيْنِ[5]

مالك الأشتر

هو مالك بن الحارث الأشتر، توفي سنة ٣٩هـ كان من زعماء العراق الأشداء، فارساً صنديداً لا يشق له غبار، شديد البأس رئيس أركان الجيش لعساكر أبي الحسن(عليه السلام) في معاركه، وهو من لهاميم مذحج الأبطال المغاوير وسيد قروم النخع وشجعانها المساعير، ومن رواسي الجبال في الحلم ومن السحاب الثقيل في الكرم والسخاء، وكان الأشتر بالكوفة أسود من الأحنف بالبصرة.

أما في السياسة فكان من الأكياس الحازمين، يجمع بين اللين والعنف فيسطو في موضع السطو ويرفق في موضع الرفق، وقد شهد له بذلك أمير المؤمنين(عليه السلام) فقال عنه: " إنه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته، ولا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل".

وهو خطيب منبر وقائد عسكر وشاعر ناثر، وقد استطاع أن يخمد بذلاقة لسانه من الفتن العمياء ما أعيا السيف إطفاؤه

(١) انظر: نعمان القاضي، الفرق الإسلامية: ٦١٨، الطف: هو ما شَرُفَ من أرض العرب على ريف العراق، وسمي الطف لدنوه من الريف: أرض من ضاحية الكوفة من طريق البرية، وفيها كان مقتل الحسين ابن علي(عليه السلام) معجم البلدان ٤/ ٣٥-٣٦(الحرة: وهي حرة واقم إحدى حرتي المدينة وهي الشرقية سميت برجل من العماليق وفي هذه الحجرة كانت وقعة الحرة المشهورة في أيام يزيد بن معاوية ٦٣هـ وكان أمير جيش يزيد مسلم بن عقبة المري، معجم البلدان ٤٨/٢.

(٢) انظر: يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة: ٤٢٠.

(٣) انظر: أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي: ١٦٥.

(٤) انظر شوقي ضيف، التطور والتجديد: ٢٧٤، ونعمان القاضي، الفرق الإسلامية: ٥٩٨.

(٥) المرزباني،(أبو عبيدالله محمد بن عمران):(أخبار شعراء الشيعة) تحقيق وتعليق محمد هادي الأميني، مكتبة الحيدرية، النجف، العراق، ١٩٦٨م، ٧٤، وانظر: المقدسي، مظهر بن طاهر (ت٩٨٥): (البدء والتاريخ)، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ١٥٠/٦، وانظر: الأغاني، للأصفهاني: ١٦/ ٣٥٤-٣٥٥، رواية أخرى لدعوة الإمام زيد بن علي (عليه السلام) للشاعر الكُميت بن زيد الاسدي للخروج معه، وانظر: الهاشميات للكُميت، تحقيق داود سلوم ونوري القيسي، عالم الكتب، بيروت، لبنان ١٩٨٤م، ٢٠٤، مع اختلاف في البيت الأول.

دَعــاني ابــنُ الرَّســوْل فَلَـم أُجبـهُ ألهفــيْ لهَــفَ للْقَلــب الفَــرُوْق
حِــذَارِ منيَــة لا بُــد منهَــا وَهَــلْ دُوْنَ المنيّــة مــن طَرِيــق

وينظر: شرح هاشميات الكُميت: ٢٠٥.

في كثير من المواقف والمشاهد التي نصر فيها الحق وحارب الباطل. كان أمير المؤمنين(عليه السلام) حين رجع من صفين رد الأشتر إلى عمله بالجزيرة، فلما اضطربت مصر على محمد بن أبي بكر استدعى أمير المؤمنين(عليه السلام) الأشتر إليه وهو يومئذ بنصيبين وأرسل إليه هذا الكتاب:

أما بعد فإنك ممن استظهر به على إقامة الدين وأقمع به نخوة الأليم وأسد به الثغر المخوف.

إلى أن يقول: فأقدم علي للنظر فيما ينبغي واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك والسلام.

فأقبل الأشتر إلى علي فلما دخل عليه حدثه حديث مصر وخبره خبر أهلها، وقال له: ليس لها غيرك فاخرج إليها رحمك الله فإني لا أوصيك اكتفاء برأيك واستعن بالله على ما أهمك واخلط الشدة باللين والرفق ما كان الرفق أبلغ وأعزم على الشدة حين لا يغني عنك الأشدة.

فخرج الأشتر من عنده فأتى رحله، وأتت معاوية عيونه فأخبروه بولاية الأشتر مصر، فعظم ذلك عليه، وقد كان طمع في مصر، فعلم أن الأشتر إن قدم عليها كان أشد من محمد بن أبي بكر، فبعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به، وقال له: إن الأشتر قد ولي مصر فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت فاحتل في هلاكه ما قدرت.

فخرج الأشتر حتى انتهى إلى القلزم حيث تركب السفن من مصر إلى الحجاز فأقام به، فقال له ذلك الرجل وكان ذلك المكان مكانه أيها الأمير هذا منزل فيه طعام وعلف، وأنا رجل من أهل الخراج فأقم واسترح وأتاه بالطعام حتى إذا طعم سقاه مشربة عسل قد جعل فيه سماً فلما شربها مات.

ولما بلغ علياً موت الأشتر قال: ﴿ **إِنَّا لِلَّه وَإِنَّا إِلَيْه رَاجِعُونَ**﴾ و ﴿**الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمينَ**﴾، اللهم إني أحتسبه عندك فإن موته من مصائب الدهر، ثم قال: رحم الله مالكاً فقد كان وفياً بعهده وقضى نحبه ولقي ربه، ومع أنا قد وطنا أنفسنا أن تصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله، فإنها من أعظم المصائب.

وحدثت أشياخ النخع قالوا: دخلنا على أمير المؤمنين حين بلغه موت الأشتر فوجدناه يتلهف ويتأسف عليه، ثم قال: لله در مالك وما مالك؟! والله لو كان من جبل لكان فنداً ولو كان من حجر لكان صلداً، أما والله ليهدن موتك عالماً وليفرحن عالماً، على مثل مالك فلتبك البواكي، وهل موجود كمالك.

قال علقمة بن قيس النخعي: فما زال يتلهف ويتأسف حتى ظننا أنه المصاب به دوننا، وعرف ذلك في وجهه أياماً.

ومن أقوال أمير المؤمنين فيه: كان لي كما كنت لرسول الله وسئل بعضهم عن الأشتر فقال: ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام وهزم أهل العراق.

وقد وصفه أمير المؤمنين لأهل مصر حين ولاه عليها في كتاب كتبه إليهم: لقد وجهت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام في الخوف ولا ينكل من الأعداء حذر الدوائر على الكافرين من حريق النار، فاسمعوا وأطيعوا فإنه سيف من سيوف الله لا نابي الضريبة ولا كليل الحد.

موقفه يوم رفع المصاحف :

لما رفع أصحاب معاوية المصاحف يدعون إلى حكم القرآن قال أمير المؤمنين: إنهم والله ما رفعوها حقاً، إنهم يعرفونها ولا يعملون بها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ومكيدة أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعة ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا.

فجاءه زهاء عشرين ألفاً مقنعين بالحديد وشاكي السلاح سيوفهم على عواتقهم وقد سودت جباههم من السجود يتقدمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه يا علي: أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه وإلا قتلناك!

فقال لهم: أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجاب إليه وليس يحل ولا يسعني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله، إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ونبذوا كتابه، ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم وإنهم ليسوا بالعمل بالقرآن يريدون.

قالوا: فابعث إلى الأشتر ليأتيك، وكان الأشتر صبيحة ليلة الهرير قد أشرف على معسكر معاوية ليدخله، فأرسل إليه يزيد بن هاني فأتاه فبلغه، فقال الأشتر: قل له ليس هذه الساعة ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي أني قد رجوت أن يفتح الله بي فلا تعجلني، فرجع يزيد بن هاني إلى علي فأخبره، وارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق ودلائل الخذلان والأدبار على أهل الشام، فقال له القوم: والله ما نراك إلا أمرته بقتال القوم، قال: رأيتموني سررت رسولي؟ أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون!

قالوا فابعث إليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك! قال: ويحك يا يزيد، قل له اقبل فإن الفتنة قد وقعت.

فأتاه فأخبره، فقال الأشتر: ترفع هذه المصاحف؟! قال: نعم، قال: أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع اختلافاً وفرقة، وقال الله لنا، أينبغي أن ندع هذا أو ننصرف عنه!

فقال له يزيد: أتحب أنك ظفرت هاهنا وأمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يفرج عنه ويسلم إلى عدوه! قال: سبحان الله،

والله ما أحب ذلك، قال: فإنهم قالوا لترسلن إلى الأشتر فليأتينك أو لنقتلنك كما قتلنا عثمان، أو نسلمك إلى عدوك!

فأقبل الأشتر، فصاح: يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم فظنوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله فيها وسنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم أمهلوني فواقاً فإني قد أحسست بالفتح، قالوا: أى، قال: فأمهلوني عدو الفرس، فإني قد طمعت في النصرة، قالوا إذن ندخل معك في خطيئتك. قال: فحدثوني عنكم، وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم متى كنتم محقين حيث كنتم تقتلون أهل الشام فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون أم الآن محقون فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيراً منكم في النار، قالوا دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله وندع قتالهم في الله، إنا لسنا نطيعك فاجتنبنا، قال خدعتم والله فانخدعتم ودعيتهم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب الجباه السود كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت إلا قبحاً يا أشباه النيب الجلالة ما أنتم برائين عزاً أبداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون.

فسبوه وسبهم وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوطه وجوه دوابهم فصاح بهم علي فكفوا.

ولما كتبت صحيفة التحكيم دعي لها الأشتر ليوقعها فيمن وقعها فقال: لا صحبتني يمين ولا نفعتني بعدها الشمال إن كان لي في هذه الصحيفة اسم على صلح أو موادعة، أولست على بينة من ربي ويقين من ضلالة عدوي، أولستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الخور! فقال له رجل إنك والله ما رأيت ظفراً ولا خوراً هلم فاشهد على نفسك وأقر بما في هذه الصحيفة فإنه لا رغبة بك عن الناس، قال: بلى والله إن لي لرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة، ولقد سفك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندي ولا أحرم دماً، ثم قال: لكن رضيت بما صنع علي أمير المؤمنين ودخلت فيما دخل فيه وخرجت مما خرج منه فإنه لا يدخل إلا في هدى وصواب[1].

بطولته في القتال :

من الصور التي نقلها نصر بن مزاحم عن بسالة الأشتر يوم صفين قوله: كان الأشتر في ميمنة الناس وابن عباس في الميسرة وعلي في القلب، والأشتر في هذه الحال يسير ما بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التي تليها فلم يزل يفعل ذلك حتى أصبح والمعركة خلف ظهره، وجعل يقول لأصحابه وهو يزحف بهم ازحفوا قيد رمحي هذا فإن فعلوا قال ازحفوا قاب هذا القوس. ثم دعا بفرسه وركز رايته وكانت مع حيان بن هوذه النخعي، وأقبل الأشتر على فرس له كميت محذوف قد وضع مغفره على قربوس السرج وهو يقول: اصبروا يا معشر المؤمنين فقد حمي الوطيس!.

وخرج يسير في الكتائب ويقول: ألا من يشتري نفسه لله ويقاتل مع الأشتر حتى يظهر أو يلحق بالله فلا يزال الرجل من الناس يخرج إليه ويقاتل معه.

ويقول واحد في تلك الحال: أي رجل هذا لو كان له نية! فيقول له صاحبه: وأي نية أعظم من هذه ثكلتك أمك وهبلتك، إن رجلاً فيما قد ترى قد سبح في الدماء وما أضجرته الحرب وقد غلت هام الكماة من الحر وبلغت القلوب الحناجر، وهو كما ترى يقول هذه المقالة!.

ثم نادى الأشتر في أصحابه فقال شدوا فدى لكم عمي وخالي شدة ترضون بها وتعزون بها الدين، فإذا شددت فشدوا، ثم نزل وضرب وجه دابته، ثم قال لصاحب رايته: أقدم فأقدم بها ثم شد على القوم وشد معه أصحابه فقاتلوا عند المعسكر قتالاً شديداً فقتل صاحب رايته، وأخذ علي لما رأى الظفر قد جاء من قبله يمده بالرجال.

رأيه في علي بن أبي طالب :

قال من خطبة له: معنا ابن عم نبينا وسيف من سيوف الله علي بن أبي طالب صلى مع رسول الله لم يسبقه إلى الصلاة ذكر حتى كان شيخاً، لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطة، فقيه في دين الله تعالى عالم بحدود الله وعليكم بالحزم والجد. واعلموا أنكم على حق وإن القوم على الباطل. إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدريين قريب من مائة بدري سوى ما حولكم من أصحاب محمد، أكثر ما كان معكم رايات فقد كانت مع رسول الله، وعدونا مع رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله، فمن يشك في قتال هؤلاء إلا ميت القلب، أنتم على إحدى الحسنيين، أما الفتح أو الشهادة، عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه، وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه لي ولكم.

وله من خطبة أخرى في صفين: الحمد لله الذي جعل فينا ابن عم نبيه أقدمهم هجرة وأولهم إسلاماً، سيف من سيوف الله صبه الله على أعدائه. فانظروا إذا حمي الوطيس وثار القتال وتكسر المران، وجالت الخيل بالأبطال فلا أسمع إلا غمغمة أو همهمة فاتبعوني وكونوا في أثري.

الأشتر زعيم الثورة الشعبية :

قال سعيد بن العاص الأموي والي عثمان على الكوفة لسمارة: السواد "يقصد سواد العراق بما فيه من مزارع

(١) نصر بن مزاحم.

وبساتين" بستان لقريش وبني أمية!.

فقال له الأشتر: أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستان لك ولقومك!. والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا، وتكلم معه القوم، فقال عبد الرحمن الأسدي وكان على شرطة سعيد: أتردون على الأمير مقالته!. وأغلظ لهم، فقال الأشتر: من ها هنا؟ لا يفوتنكم الرجل فوثبوا عليه فوطئوه وطأ شديداً حتى غشي عليه.

ثم إن سعيداً نفى الأشتر مع تسعة آخرين إلى الشام بأمر عثمان، ثم ردوهم إلى الكوفة، وكان فساد الحكم قد بلغ ذروته فلم يطق الأشتر وصحبه السكوت. فنفوهم مرة ثانية إلى حمص، وكتب عثمان إلى الأشتر وصحبه: أما بعد فإني سيرتكم إلى حمص فإذا أتاكم كتابي هذا فاخرجوا إليها فإنكم لستم تألون الإسلام وأهله شراً. والسلام فلما قرأ الأشتر الكتاب قال: اسوؤنا نظراً للرعية وأعلمنا فيهم بالمعصية فعجل له النقمة.

فكتب بذلك سعيد بن العاص إلى عثمان وسار الأشتر وأصحابه إلى حمص. ثم عادوا إلى بلدهم.

واستمر استهتار الحكام وعبثهم بالناس قال الطبري: اجتمع ناس من المسلمين (في الكوفة) فتذكروا أعمال عثمان وما صنع فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلاً يكلمه ويخبره بأحداثه فأرسلوا إليه عامر بن عبدالله التميمي وهو الذي يدعى عامر بن عبد قيس، فأتاه فدخل عليه، فقال إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً فاتق الله عز وجل وتب إليه وانزع عنها.

فقال له عثمان: انظر هذا فإن الناس يزعمون أنه قارئ، ثم يجيء فيكلمني في المحقرات فوالله ما يدري أين الله. قال عامر: أنا لا أدري أين الله؟! قال: نعم والله ما تدري أين الله. قال عامر: بلى والله إني لأدري إن الله بالمرصاد لك.

وكان سعيد بن العاص ومعظم عمال عثمان الذين ضج الناس من عسفهم موجودين في المدينة فعقد عثمان منهم مؤتمراً للنظر في أمر النقمة الشعبية فكان من رأي سعيد بن العاص القضاء على الزعماء ومن رأي عبدالله بن عامر قوله: "تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون أحدهم إلا نفسه".

ثم رد عثمان عماله إلى بلدانهم وأمرهم بالتضييق على الناس وأمرهم بتجمير الناس في البعوث «أي إرسالهم إلى الغزو» وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه.

ورجع سعيد بن العاص أميراً على الكوفة يحمل هذه التعليمات فخرج أهل الكوفة عليه بالسلاح فتلقوه فردوه وقالوا: لا والله لا يلي علينا حكماً ما حملنا سيوفنا.

فرجع سعيد بن العاص إلى عثمان مطروداً، فأرسل عثمان مكانه أبا موسى الأشعري.

ولما تلاقت الوفود بعد ذلك في المدينة مجتمعة على أعمال عثمان وعماله كان على أهل الكوفة مطالباً بما تطالب به الوفود كلها، وعندما تطورت الأمور إلى الحالة التي لم يكن أحد يظن أنها ستتطور إليها وحوصر عثمان وهدد بالقتل، لم يدخل الأشتر في هذا. فقد قال الطبري وهو يصف حصار عثمان «فاعتزل الأشتر فاعتزل حكيم بن جبلة زعيم البصريين»، وكان ابن عديس «زعيم المصريين» وأصحابه هم الذين يحصرون عثمان وكانوا خمسمائة.. ولما قتل عثمان كان الأشتر هو الذي قاد الجماهير إلى بيعة علي بن أبي طالب(عليه السلام).

وقال الأستاذ أحمد الجندي:

من شخصيات التاريخ الإسلامي النادرة، ومن أبطال الحرب البارزين في أيام العرب، جمع البطولة إلى النجدة، والشجاعة إلى الدين، والفصاحة والبلاغة إلى الكرم والأدب، ورغم ما مر بك من صفات الرجال فإن التاريخ لم ينصفه، ولم يحص مآثره وأمجاده، لأن ما به من صفات لا يمكن حصرها ولا يتأتى تعدادها، أنه يمثل العربي الصحيح الذي يرخص الروح في سبيل الذود عن الكرامة والدفاع عن الحياض، هذه الكلمات المعسولة التي مرت بك ليست ألفاظاً تقال في معرض الحديث عن مالك الأشتر، وإنما هي كلمات لها معانيها ومدلولاتها وآثارها في شخص بطل طبق على نفسه القواعد الموضوعة والحدود المرسومة حتى بلغ مرتبة المثل الأعلى للرجل الكامل.

ولد هذا البطل المشهور قبل الإسلام بقليل وقد عاصر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنه لم يره ولم يسمع حديثه، غير أن مالكاً ذكر عند النبي فقال: " إنه المؤمن حقاً". وهذه شهادة تعدل شهادة الدنيا بأسرها لأنها صدرت عن أعظم إنسان في الدنيا وهي دليل على أن مالكاً قد كان شاباً في عهد النبي له وزن وله رأي في قومه وإنه دخل في الإسلام كما دخل فيه غيره من عظماء هذا العهد المبارك، بل لقد عد بين المجاهدين الذين كانوا أبلوا البلاء الحسن في حروب الردة وموقفه معروف من (أبي مسيكة الأيادي) وهو زعيم من زعماء المرتدين وحديث مالك إليه حديث المؤنب المعتز بإسلامه وعروبته وشجاعته حتى لقد دعاه للمبارزة غير هياب ولا وجل مما يدل على أنه قد كان يومذاك شاباً في ريعان الشباب. فإذا أضفنا إلى هذا أن مالكاً الأشتر قد صرع عبدالله بن الزبير في وقعة الجمل وإن عمره كان إذ ذاك على ما يروي المؤرخون ثمانين عاماً فتكون ولادته إذن قبل بعثة النبي بعقدين أو ما يزيد على ذلك قليلاً، ولكنا لا

نخلو من الشك لأنه عاش بعد ذلك أيام حرب صفين كلها وإنه في نهاية هذه الحرب، وبعد التحكيم، عين والياً على مصر من قبل الإمام علي(عليه السلام) ولسنا نرى أن يعمد الإمام إلى تسليم قطر من أهم الأقطار الإسلامية لرجل شيخ هرم، بل نرجح أنه كان إذ ذاك في طور الكهولة وأنه تجاوز الستين بقليل.

أما اسمه المفصل فهو: مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة.. إلى أن ينتهي بالنخع ثم يصل إلى مذحج جده الأعلى والذي تسمت به قبيلة من أشهر القبائل اليمنية العربية وأشدها قوة ومنعة، ولقد شهد أول ما عرف خطبة عمر في (الجابية) كما شهد وقعة اليرموك وشترت عينه فيها، وقيل أنها شترت (استرخى جفنها) في حروب الردة مع أبي مسيكة الأيادي، وسكن أخيراً في الكوفة وترك فيها نسلاً.

لهذا البطل شخصيتان: أولاهما شخصية قبل الإسلام وأثناءه في زمن الخليفتين أبي بكر وعمر، وكان خلالها غير بارز الصورة ولا ظاهر الملامح، وكان معدوداً بين الفرسان النابهين، ولكن التاريخ لم يهتم بشأنه في هذه الفترة إذ كان مشتغلاً بالجهاد.

وشخصيته الثانية تبدأ بالثورة على عثمان حتى نهاية حياته وفيها انضم إلى معسكر علي بن أبي طالب وظل وإياه حتى قتل مسموماً على طريق مصر على ما رواه المؤرخون سنة ٣٩هجرية.

كان رفيقاً لعمار بن ياسر الصحابي الجليل وقد تألم لمقتله كثيراً وثارت ثورته يومذاك على جند معاوية فأبلى فيهم وأذاقهم الويل في كراته الشديدة عليهم انتقاماً لرفيقه وثاراً لصديقه.

كان الأشتر صاحب دين، وكان معدوداً في التابعين وكان على جانب كبير من التقشف والزهادة ودليل إعجابه الشديد بأبي ذر الغفاري، وكان مالك أحد الذين زاروا الصحابي الجليل رغم غضب الخليفة عليه، حتى لقد مات أبو ذر بين يديه وتولى مالك دفنه وابّنه تأبيناً ينم على الألم لما لقيه من عنت وغبن، كما ينم على الاستياء والحقد على أولئك الذين آذوا صاحب الرسول الأعظم فلم يعرفوا له قدره ومكانته، ولقد وضع الشيخ أبا ذر في حفرته الأخيرة ثم جرد سيفه فمسح به القبر ثم تكلم عن صاحبه فقال: إن أبا ذر رأى منكراً فغيره بلسانه وقلبه حتى جفي ونفي وحرم واحتقر ثم مات وحيداً وغريباً، ثم تثور حفيظة مالك فيدعو على المعتدين بقوله اللهم فاقصم من حرمه ونفاه.

ولكن الغريب في أمر مالك أنه كان يثور أمام الناس جميعاً إلا الإمام(عليه السلام) فقد كان يحبه حباً غير من طبيعته الثائرة وهذب من طبعه العرم ورقق من نفسه المزمجرة المحنقة، فكان إذا سمع الأمر من علي تلقاه كأمر عسكري لا تجوز مناقشته ولا تحق مداورته، وهكذا تراجع مالك يوم صفين نزولاً عند رغبة الإمام، وهكذا قبل أن يكون والياً في منطقة الجزيرة، وهي منطقة تافهة، إلا أنها واقعة على حدود الشام. وهكذا أيضاً قبل أن يكون والياً على مصر بدلاً من محمد بن أبي بكر، حتى لقي حتفه في الطريق على أغلب الروايات.

وانتهت بموت مالك حياة حافلة بالدين والإيمان والشجاعة والنجدة فعد بذلك من الأبطال الميامين في تاريخ الفترة الأخيرة من خلافة الراشدين.

ولقد سر معاوية بمقتله، فقال: كانت لعلي يمينان قطعت إحداهما بصفين (يقصد عمار بن ياسر) وقطعت الأخرى بمصر (ويقصد مالكاً).

أما الإمام علي النحب المفجوع بصديقه الأمين فقد قال فيه: - كان لي مالك كما كنت لرسول الله.

وقال أيضاً وقد جاء خبره: - إنا لله راجعون، اللهم أني أحتسبه عندك فإن موته من مصائب الدهر.

وقال:- لله در مالك، أما والله ليهدن موتك عالماً وليفرحن عالماً، على مثل مالك فلتبك البواكي، وهل موجود كمالك.

بقي أن نذكر لك ناحية أخرى هامة عند هذا الرجل الكبير، فقد كان شاعراً من شعراء البطولة ولكن البطولة غلبت عليه رغم موهبته الشعرية.

يبرز شاب في معركة الجمل لمالك فيلقيه مالك أرضاً ويهم بقتله فيذكره الشاب الصريع بالقرآن ويتلو عليه حاميم - والشاب يعلم أن مالكاً لا يؤخذ بأمر كما يؤخذ بالقرآن - فيقول الأشتر مجيباً:

يذكرني حاميم والسيف مصلت
فهلا تلا حاميم قبل التقدم
هتكت له بالرمح جيب قميصه
فخر صريعاً لليدين وللفم
على غير شيء غير أن ليس تابعاً
علياً ومن لا يتبع الحق يندم

وقد اختصر الأشتر مذهبه السياسي في البيت الأخير وذلك: (إن من لا يتبع علياً مخالف للحق وحقت عليه الندامة ووجب قتاله) وهي أبيات - على بساطتها - تدل على قوة الشكيمة وبلاغة في الأداء لا تأتيان إلا للشعراء.

ويدعو عبدالله بن الزبير إلى البراز فينزل وهو شاب في عنفوان الشباب ويلتقي بمالك وقد بلغ الثمانين من العمر على قول بعض الروايات، وكان رغم سنه يصوم في الحرب، فيصرع عبدالله ويجثم على صدره فيصيح عبدالله مستغيثاً.

اقتلـــــــــــوني ومالكـــــــــــا

واقتلـــــــوا مالكـــــــا معـــــــي

فيهيب مالك عن فريسته ثم يروي الحكاية مخاطباً عائشة:

أعـــائش لـــولا أننـــي كنـــت طاويـــا

ثلاثـــاً لألفيـــت ابـــن أختـــك هالكـــا

غـــداة ينـــادي والرمـــاح تنوشـــه

كوقـــع الـــصياصي اقتلـــوني مالكـــا

فنجّـــاه منـــي شـــبعه وشـــبابه

وإنـــي شـــيخ لـــم أكـــن متماســـكا

وابن أخت عائشة هو عبدالله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين).

وكان يصور نفسه في الحرب تصويراً صادقاً فيقول:

لأوردن خيلـــــــي الفراتـــــــا

ضـــعت النواصـــي أو يقـــال ماتـــا

كما يقول لأحد مبارزيه محذراً مخوفاً:

بليـــت بالأشـــتر ذاك المـــذحجي

بفـــارس فـــي حلـــق مـــدجج

كالليـــث ليـــث الغابـــة المهـــيج

إذا دعـــاه القـــرن لـــم يعـــرج

وانظر إلى قوله يخاطب عمرو بن العاص حين هم بمبارزته وهو ملآن حنقاً عليه لأنه في رأيه – مورث النار ومحرك للخلاف، وأنه أيضاً صاحب الحيلة في الحرب:

يـــا ليـــت شـــعري كيـــف لـــي بعمـــرو

ذاك الـــذي أوجبـــت فيـــه نـــذري

ذاك الـــذي أطلبـــه بـــوتري

ذاك الـــذي فيـــه شـــفاء صـــدري

ذاك الـــذي أن ألقـــه بعمـــري

تغـــل بـــه عنـــد اللقـــاء قـــدري

وليس خافياً أني أتيت بشعر هذا الفارس البطل لا لأدلل على أنه كان مطبوعاً على قول الشعر وإن أيامه الرهيبة المخوفة لم تترك له الفرصة الكافية للتجويد في هذا الفن وإتقانه، الإتقان اللازم لكل فن، ولكن نفيه – بالفتح – في شعره يدل على أن وراءه طبعاً شاعراً أصيلاً وإن الشعر بالنسبة له صديق ورفيق يلجأ إليه للتنفيس عن صدره كلما حزبه أمر أو نبا به منزل.

والشعراء الفرسان لا يستطيعون أن ينصرفوا إلى فنهم انصرافاً تاماً لانشغالهم بمنزلة أخرى غير مزية الشعر ولأن شهرتهم في الشجاعة والبطولة بالنسبة للشعراء المتفرغين – إن صحت التسمية–.

هذا هو مالك الأشتر البطل المعروف والسيد المشهور فهو فارس وسياسي وشاعر[1].

المتنبيء

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي وقيل هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار حكاه ابن خلكان وابن حجر في الميزان.

ولد في الكوفة في محلة كندة سنة ٣٠٣ وقتل سنة ٣٥٤ بضيعة قرب دير العاقول قرب النعمانية آيباً من فارس إلى بغداد ودفن هناك.

نسبته :

(الجعفي) بضم الجيم وسكون العين المهملة وبمعدها فاء هذه النسبة إلى القبيلة وأبو القبيلة المنسوب إليه يسمى جعفي أيضاً ككرسي وهو جعفي بن سعد العشيرة بن مذحج واسمه مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد ابن كهلان وإنما قيل له سعد العشيرة لأنه كان يركب في ثلثمائة من ولده وولد ولده فإذا قيل له من هؤلاء قال عشيرتي مخافة العين عليهم (والكندي) قال ابن خلكان نسبة إلى محلة بالكوفة تسمى كندة نسب إليها لأنه ولد بها وليس هو من كندة التي هي قبيلة بل هو جعفي القبيلة.

أبوه وأمه :

في أنساب السمعاني: كان والد المتنبي جعفياً وأمه همدانية صحيحة النسب وكانت من صلحاء الناس الكوفيات: وقال كان السيد أبو الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي يقول: كان المتنبي وهو صبي ينزل في جواري بالكوفة وكان أبوه يعرف بعيدان السقا يسقي لنا ولأهل المحلة (اهـ) (أقول) اسم أبيه الحسين وعيدان لقب لقب به وإلى كون أبيه سقاء أشار بعض الشعراء في هجو المتنبي بقوله:

أي فـــضل لـــشاعر يطلـــب الفـــضـ

ـــل مـــن النـــاس بكـــرة وعـــشيا

(١) أنظر: اعيان الشيعة، محسن الأمين، م١٣، دار التعاريف للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٠، ص٢٢٤ وما بعدها.

عـاش حينـاً يبيـع فـي الكوفـة المـا

ء وحينـاً يبيـع مـاء المحيـا

فنسب إليه بيع الماء باعتبار أبيه وقال السمعاني: سئل المتنبي عن نسبه قال: أنا رجل أحفظ القبائل وأطوي البوادي وحدي ومتى انتسب لم آمن أن يأخذني بعض العرب بمطالبة بينه وبين القبيلة التي انتسب إليها وما دمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لساني.

أقوال العلماء فيه :

قال ابن خلكان: وهو من أهل الكوفة وقدم الشام في صباه وجال في أقطاره واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها، وكان من المكثرين في نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها، ولا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر حتى قيل إن الشيخ أبا علي الفارسي صاحب الإيضاح والتكملة قال له يوماً كم لنا من الجموع على وزن فعلى (يعني بكسر الفاء وسكون العين) فقال المتنبي في الحال: حجلى وظربى، قال الشيخ أبو علي: فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجد، وحسبك من يقول أبو علي في حقه هذه المقالة، وحجلى جمع حجل وهو الطائر الذي يسمى القبج، والظربى جمع ظربان على مثال قطران وهي دويبة منتنة الرائحة.

وقال الثعالبي في اليتيمة: وهو وإن كان كوفي المولد فهو شامي المنشأ وبها تخرج ومنها خرج نادرة الفلك وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر، ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب إليه المشهور به، إذ هو الذي جذب بضبعه ورفع من قدره ونفق سعر شعره وألقى عليه شعاع سعادته حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر وسافر كلامه في البدور الحضر، إلى آخر ما يأتي عند الكلام على شعره.

وفي لسان الميزان: نشأ بالكوفة وأقام بالبادية وتعاطى الأدب ونظر في أيام الناس ونظر في أيام الشعر حتى بلغ الغاية إلى أن فاق أهل عصره وانقطع إلى ابن حمدان فأكثر المدح فيه، ثم دخل مصر ومدح كافوراً، ثم ورد إلى العراق وجالس بها أهل الأدب وقرئ عليه ديوان شعره وسمع منه ديوانه أبو الحسين محمد بن أحمد بن القاسم المحاملي قال أبو علي التنوخي: حدثني أبو الحسن محمد بن يحيى العلوي قال: كان والد أبي الطيب يلقب عيدان بفتح المهملة وسكون التحتانية، فنشأ أبو الطيب وتصحب الأعراب وأكثر من ملازمة الوراقين فذكر بعضهم أنه رأى معه كتاباً من كتب الأصمعي نحو ثلاثين ورقة فأطال النظر فيه، فقلت له إن كنت تريد حفظه فسيكون بعد شهر قال: فإن كنت حفظته في هذه المدة قلت فهو لك، فأخذت الدفتر من يده فسرده، ثم أسلبه فجعله في كمه، قال: وكان يخرج إلى بادية كلب، فأقام فيهم فادعى أنه علوي ثم ادعى النبوة ثم أخذ فحبس طويلاً واستتيب وكان لؤلؤ أمير حمص خرج إليه فقاتله وشرد من معه من قبائل العرب وكان بعد ذلك إذا ذكر له ذلك ينكره ويجحده.

ما جرى بين المتنبي وابن خالويه :

في الصبح قال ابن بابك:حضر المتنبي مجلس أبي أحمد ابن نصر البازيار وزير سيف الدولة وهناك أبو عبدالله بن خالويه النحوي، فتماريا في أشجع السلمي وأبي نواس البصري، فقال ابن خالويه أشجع أشعر إذ قال في الرشيد:

وعلى عدوك يا ابن عم محمد

رصدان ضوء الصبح والإظلام

فإذا تنبه رعته وإذا غفا

سلت عليه سيوفك الأحلام

فقال المتنبي لأبي نواس من هو أحسن في بني برمك وهو:

لم يظلم الدهر إذ توالت

فيهم مصيباته دراكا

كانوا يجيرون من يعادي

منه فعاداهم لذاكا

وقال عبد المحسن بن علي بن كوجك إن أباه حدثه قال: كنت بحضرة سيف الدولة وأبو الطيب اللغوي وأبو عبدالله بن خالويه النحوي، وقد جرت مسألة في اللغة تكلم فيها ابن خالويه مع أبي الطيب اللغوي والمتنبي ساكت، فقال له سيف الدولة: ألا تتكلم يا أبا الطيب فتكلم فيها بما قوى حجة أبي الطيب اللغوي وضعف قول ابن خالويه، فأخرج ابن خالويه من كمه مفتاحاً حديداً ليلكم به المتنبي قال له المتنبي: اسكت ويحك فإنك أعجمي وأصلك خوزي فما لك وللعربية، فضرب وجه المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه، فغضب المتنبي لذلك إذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولاً ولا فعلاً، فكان ذلك أحد أسباب فراقه سيف الدولة. (أقول) ما يظهر من صدر القصة من أن ابن خالويه أراد لكمه بالمفتاح لمجرد انتصاره لأبي الطيب اللغوي بعيد فلابد أن يكون أساء القول في ابن خالويه حتى أهاج غضبه وأخرج المفتاح ليضربه، ولعله من سنخ قوله إنك أعجمي وأصلك خوزي.

وفي لسان الميزان: يقال إن ابن خالويه قال له في مجلس سيف الدولة لولا أنك جاهل ما رضيت أن تدعى المتنبي

ومعنى المتنبي كاذب والعاقل لا يرضى أن يدعى الكاذب، فأجابه بأن أرضى بهذا ولا أقدر على دفع من يدعوني به، واستمرت بينهما المشاجرة إلى أن غضب ابن خالويه فضربه بمفتاح فخرج من حلب إلى مصر.

ما جرى للمتنبي مع الأمير أبي فراس الحمداني :

في الصبح المنبي قال ابن الدهان في المآخذ الكندية قال: قال أبو فراس لسيف الدولة: إن هذا المتشدق كثير الإدلال عليك وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره.

(أقول): ولكن سيف الدولة كان يعلم أن هؤلاء العشرين شاعراً ليس فيهم من يستطيع أن يقول مثل قول المتنبي في الميمية السابقة:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي أذن الجوزاء منه زمازم
وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب
وصار إلى اللبات والنصر قادم
تشرّف عدنان به لا ربيعة
وتفتخر الدنيا به لا العواصم

وكذلك أبو فراس لم يكن ليخفى عليه ذلك، ولكن غطرسة المتنبي دعت أبا فراس أن يقول فيه ذلك، ودعت سيف الدولة أن يميل إلى قبوله.

قال: فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه وكان المتنبي غائباً وبلغته القصة فدخل على سيف الدولة وأنشده الأبيات التي أولها:

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا
فداه الورى أمضى السيوف مضاربا

فأطرق سيف الدولة ولم ينظر إليه كعادته، فخرج المتنبي من عنده متغيراً، وحضر أبو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا في الوقيعة بحق المتنبي، وانقطع أبو الطيب بعد ذلك ونظم القصيدة التي أولها:

وأحرّ قلباه ممن قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم

هكذا في الصبح المنبي ولكن المفهوم من ديوان المتنبي أن قوله لهذه القصيدة الميمية سابق على الأبيات البائية المشار إليها وأن سبب قوله القصيدة الميمية أنه جرى له خطاب مع قوم متشاعرين وظن الحيف عليه والتحامل وأنه قال الأبيات البائية مستعيناً من القصيدة الميمية، وهذا أقرب إلى الصواب – يقول فيها:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم
وجاهل مده في جهله ضحكي
حتى أتته يد فراسة وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظنن أن الليث يبتسم
ومرهف سرت بين الجحفلين به
حتى ضربت وموج الموت يلتطم
الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
يا من يعز علينا أن نفارقهم
وجداننا كل شيء بعدكم عدم
إن كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة
إن المعارف في أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرم
أرى النوى تقتضيني كل مرحلة
لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميراً عن ميامننا
ليحدثن لمن ودعتهم ندم

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
أن لا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد مكان لا صديق به
وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتي قنص
شهب البزاة سواء فيه والرخم
بأي لفظ تقول الشعر زعنفة
تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هذا عتابك إلا أنه مقة
تضمن الدر إلا أنه كلم

وفي الصبح المنبي أنه لما أنشدها وجعل يتظلم من التقصير في حقه هم جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة لشدة إدلاله وإعراض سيف الدولة عنه فلما وصل في إنشاده إلى قوله:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

قال أبو فراس مسخت قول دعبل وأدعيته وهو:

ولست أرجو انتصافاً منك ما ذرفت
عيني دموعاً وأنت الخصم والحكم

فقال المتنبي:

أعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فعلم أبو فراس أنه يعنيه فقال ومن أنت يا دعي كندة حتى تأخذ أعراض الأمير في مجلسه، واستمر في إنشاده ولم يرد عليه إلى أن قال:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

فزاد ذلك أبا فراس غيظاً وقال قد سرقت هذا من عمرو ابن عروة بن العبد في قوله:

أوضحت من طرق الآداب ما اشتكلت
دهراً وأظهرت إغراباً وإبداعاً
حتى فتحت بإعجاز خصصت به
للعمي والصم أبصاراً وأسماعا

قال المؤلف: في قوله (بأنني خير من تسعى به قدم) دعوى الفضل على الأنبياء والرسل فضلاً عن سيف الدولة ولما وصل إلى قوله:

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال أبو فراس وماذا أبقيت للأمير إذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك وتأخذ جوائز الأمير أما سرقت هذا من قول الهيثم بن السود النخعي الكوفي المعروف بابن عريان العثماني:

أعاذلتي كم مهمه قد قطعته
أليف وحوش ساكناً غير هائب
أنا ابن الفلا والطعن والضرب والسرى
وجرد المذاكي والقنا والقواضب
حليم وقور في البلاد وهيبتي
لها في قلوب الناس بطش الكتائب

فقال المتنبي:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فقال أبو فراس وهذا سرقته من قول معقل العجلي:

إذا لم أميز بين نور وظلمة
بعيني فالعينان وزر وباطل

وغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في هذه القصيدة وكثرة دعاويه فيها فضربه بالدواة التي بين يديه فقال المتنبي في الحال:

إن كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح إذا أرضاكم ألم

فقال أبو فراس أخذت هذا من قول بشار:

إذا رضيت بأن نجفى وسركم
قول الوشاة فلا شكوى ولا ضجر

فلم يلتفت سيف الدولة إلى ما قال أبو فراس وأعجبه بيت المتنبي ورضي عنه في الحال وأدناه إليه وقبل رأسه وأجازه بألف دينار ثم أردفه بألف أخرى فقال المتنبي (وليسا في ديوانه):

جـــــاءت دنـــــانيرك مختومـــــة

عاجلـــــة ألفـــــاً علـــــى ألـــــف

أشـــــبهها فعلـــــك فـــــي فيلـــــق

قلبتـــــه صـــــفا علـــــى صـــــف

سفره إلى مصر واتصاله بكافور :

وكان بدمشق يهودي من أهل تدمر يعرف بابن ملك من قبل كافور ملك مصر فالتمس من المتنبي أن يمدحه فثقل عليه فغضب ابن ملك وجعل كافور الأخشيدي يكتب في طلب المتنبي من ابن ملك فكتب إليه ابن ملك إن أبا الطيب قال لن أقصد العبد وإن دخلت مصر فما قصدي إلا ابن سيده ونبت دمشق بأبي الطيب فسار إلى الرملة فحمل إليه أميرها الحسين بن طغج هدايا نفيسة وخلع عليه وحمله على فرس بموكب ثقيل وقلده سيفاً محلى وكان كافور الأخشيدي يقول لأصحابه أترونه يبلغ الرملة ولا يأتينا وأخبر المتنبي أنه واجد عليه ثم كتب كافور يطلبه من أمير الرملة فتوجه إلى مصر

كافور الأخشيدي :

وكافور هذا عبد أسود خصي مثقوب الشفة السفلى بطين قبيح القدمين ثقيل البدن لا فرق بينه وبين الأمة وكان لقوم مصريين يعرفون ببني عياش يستخدمونه في مصالح السوق وكان ابن عياش يربط في رأسه حبلاً إذا أراد النوم فإذا أراد منه حاجة جذبه بالحبل لأنه كان ثقيل النوم وكان غلمان ابن طغج يصفعونه في الأسواق فيضحك فقال هذا الأسود خفيف الروح وكلموا صاحبه في بيعه فوهبه لهم ومات سيده أبو بكر بن طغج وولده صغير وتقيد الأسود بخدمته وأخذت البيعة لولد سيده وتفرد الأسود بخدمته وخدمة والدته فقرب من شاء وبعد من شاء فنظر الناس إليه من صغر هممهم وخسة أنفسهم فتسابقوا إلى التقرب إليه وسعى بعضهم ببعض حتى صار الرجل لا يأمن أهل داره على أسراره وصار كل عبد بمصر يرى أنه خير من سيده ثم ملك الأمر على ابن سيده وأمر أن لا يكلمه أحد من مماليك أبيه ومن كلمه أتلفه، فلما كبر ابن سيده جعل يبوح بما في نفسه وهو على الشراب ففزع منه كافور وسمه فقتله وخلت له مصر وإلى ذلك يشير المتنبي في هجوه لكافور بقوله:

أكلمـــا اغتـــال عبـــد الـــسوء ســـيده

فـــي أرضـــكم فلـــه فـــي مـــصر تمهيـــد

خروج المتنبي من الكوفة إلى بغداد :

ثم توجه من الكوفة في أواخر سنة ٣٥٣ أو أول سنة ٣٥٤ إلى مدينة السلام بغداد لأن كتاب سيف الدولة ورد عليه إلى الكوفة في ذي الحجة سنة ٣٥٣ كما مر وفي صفر يأتي فسفره من الكوفة إل بغداد إما في ذي الحجة سنة ٥٤ أو بعده وتدل قصة الحاتمي الآتية معه على أنه كان أناس يقرأون عليه ديوانه في بغداد فلا بد أن يكون بقي في بغداد نحو شهرين أو أكثر ولا يتم إلا بكون سفره في ذي الحجة وكان ورود المتنبي إلى بغداد في أيام سلطنة معز الدولة ابن بويه ووزارة الوزير المهلبي له وخلافة المطيع العباسي. ولا يخلو كلام المؤرخين هنا من شيء من التنافي فإنه يظهر من قصة الحاتمي مع المتنبي الآتية أن قصد المتنبي من الرحلة إلى بغداد كان هو مدح الوزير المهلبي والانضمام إليه والمقام لديه ولكن يدل كلام الخوارزمي الآتي المنقول في اليتيمة أن المتنبي ترفع عن مدح المهلبي ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك فما باله لم يمدح معز الدولة وهو ملك على أن تعليل عدم مدحه للمهلبي بأنه كان يذهب بنفسه عن مدح غير الملوك ليس بصحيح فقد مدح ابن العميد وهو ليس بملك بل وزير وإذا كان المتنبي لا يريد مدح معز الدولة ولا المهلبي فما الذي جاء به إلى بغداد وهو لا يجيء إلى بلد إلا لمدح واستفادة مال فمن الذي كان يريد مدحه في بغداد غير هذين فظاهر الحال يدل على أنه ما قصد بغداد إلا لمدح أحد هذين وكلام الحاتمي يدل على أنه كان قصده مدح المهلبي ولعله لما عرف عنه من الجود دون معز الدولة وإذا كان الأمر كذلك فما الذي صرفه عن مدح المهلبي وأفسد الحال بينه وبينه حتى احتاج إلى أن يخرج من بغداد شبه الهارب كما ستعرف لا يظهر سبب ذلك واضحاً من كلام المؤرخين وتعليل غيظ المهلبي منه بعدم مدحه له لا يكاد يصح لما عرفنا فلابد أن يكون هناك سبب آخر اوجب فساد الحال بينه وبينه، وتدل قصة الحاتمي الآتية على أن معز الدولة ووزيره كانا ناقمين على المتنبي محبين للوقيعة به، ويدل على ذلك أيضاً ما سيأتي من أنه اتخذ الليل جملاً، وخرج من بغداد مراغماً للمهلبي، فذلك يدل على أن خروجه من بغداد كان شبيهاً بالهرب أما الخليفة العباسي فلم يكن له من الشان في تلك الأيام ما يحمل المتنبي على مدحه.

جملة من أخبار المتنبي :

شهد المتنبي مع سيف الدولة جملة وقائعه وحروبه وفي الصبح المنبي أنه لما اتصل بسيف الدولة حسن موقعه فقربه وأجازه الجوائز السنية ومالت نفسه إليه فسلمه إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة (وقال) حكي أنه صحب سيف الدولة في عدة غزوات إلى بلاد الروم ومنها غزوة العثاء

التي لم ينج منها إلاّ سيف الدولة بنفسه وستة أنفار أحدهم المتنبي وأخذت عليهم الطرق الروم فجرد سيف الدولة سيفه وحمل على العسكر وفرق الصفوف وبدد الألوف. وحكى الرقي عن سيف الدولة قال كان المتنبي يسوق فرسه فاعتقلت بعمامته طاقة من الشجر المعروف بأم غيلان فكان كلما جرى الفرس انتشرت العمامة وتخيل المتنبي ان الروم قد ظفرت به فكان يصيح الأمان يا علج قال سيف الدولة فهتفت به وقلت أيما علج هذه شجرة علقت بعمامتك فود أن الأرض غيبته فقال له ابن خالويه أيها الأمير أليس أنه ثبت معك حتى بقيت في ستة أنفار تكفيه هذه الفضيلة.

وفي الصبح المنبي: حكى أبو الفرج الببغا قال أذكر ليلة وقد استدعى سيف الدولة بدرة فشقها بسكين الدواة فمد أبو عبدالله بن خالويه طيلسانه فحثى لي جانباً والمتنبي حاضر وسيف الدولة ينتظر منه أن يفعل مثل فعلنا فما فعل فغاظه ذلك الغلمان يلتقط معهم فغمزهم عليه سيف الدولة فداسوه فاستحيا ومضت به ليلة وانصرف وخاطب أبو عبد الله بن خالويه سيف الدولة في ذلك فقال يتعاظم تلك العظمة وينزل إل مثل هذه المنزلة لولا حماقته.

وحكى أبو الفرج أن أبا الطيب دخل مجلس ابن العميد وكان يستعرض سيوفاً فلما نظر أبا الطيب نهض من مجلسه وأجلسه في دسته ثم قال له: اختر سيفاً من هذه السيوف فاختار منها واحداً ثقيل الحلي واختار ابن العميد غيره فقال كل واحد منهما سيفي الذي اخترته أجود ثم اصطلحا على تجربتهما فقال ابن العميد فبماذا نجربهما قال نضرب به فإن قدها فهو قاطع فاستدعى ابن العميد عشرين ديناراً فنضدت ثم ضربها أبو الطيب فقدها وتفرقت في المجلس فقام من مجلسه المفخم يلتقط الدنانير المتبددة فقال ابن العميد ليلزم الشيخ مجلسه فإن أحد الخدام يلتقطها ويأتي بها إليك فقال بل صاحب الحاجة أولى.

وفي اليتيمة سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول كان المتنبي قاعداً تحت قول الشاعر:

وإن أحق الناس باللوم شاعر

يلوم على البخل الرجال ويبخل

وإنما أعرب عن طريقته وعادته بقوله:

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها

وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

قال وحضرت بحلب عنده يوماً وقد أحضر مالاً بين يديه من صرة سيف الدولة على حصير قد فرشه فوزن وأعيد إلى الكيس وتخللت قطعة كأصغر ما يكون بين خلال الحصير فأكب عليها بمجامعه ليستنقذها منه واشتغل عن جلسائه حتى توصل إلى إظهارها وأنشد قول قيس ابن الخطيم:

تبددت لنا كالشمس تحت غمامة

بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ثم استخرجها وأمر بإعادتها إلى مكانها من الكيس فقال له بعض جلسائه أما يكفيكم ما في هذه الأكياس حتى أدميت أصبعك لأجل هذه القطعة فقال أنها تحضر المائدة.

وفي الصبح المنبي عن الخالديين أنهما قالا كان أبو الطيب المتنبي كثير الرواية جيد النقد ولقد حكى بعض من كان يحسده انه كان يضع من الشعراء المحدثين وبعض البلغاء المفلقين وربما قال أنشدوني لأبي تمامكم شيئاً حتى اعرف منزلته من الشعر فتذاكرنا ليلة في مجلس سيف الدولة بميافارقين وهو معنا فأنشد أحدنا لمولانا أيده الله شعراً له قد ألم فيه بمعنى لأبي تمام استحسنه مولانا أدام الله تأييده فاستجاده واستعاده فقال أبو الطيب هذا يشبه قول أبي تمام وأتى بالبيت المأخوذ منه المعنى فقلنا قد سررنا لأبي تمام إذ عرفت شعره فقال أو يجوز للأديب أن لا يعرف شعر أبي تمام وهو أستاذ كل من قال الشعر فقلنا قد قيل أنك تقول كيت وكيت فأنكر ذلك وما زال بعد ذلك إذا التقيا ينشدنا بدائع أبي تمام وكان يروي جميع شعره.

وفي الصبح المنبي حدث محمد بن الحسن الخوارزمي قال مررت بمحمد إبن موسى الملقب بسيبويه ابن الموسى وهو يقول مدح الناس المتنبي على قوله:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدواً له ما من صداقته بد

ولو قال ما من مداراته أو مداجاته بد لكان أحسن وأجود قال واجتاز المتنبي به فوقف عليه قال أيها الشيخ أحب أن أراك قال له رعاك الله وحياك فقال بلغني أنك أنكرت علي قولي (عدواً له ما من صداقته بد) فما كان الصواب عندك فقال إن الصداقة مشتقة من الصدق في المودة ولا يسمى الصديق صديقاً وهو كاذب في مودته فالصداقة إذاً ضد العداوة ولا موقع لها في هذا الموضع ولو قلت ما من مداراته أو مداجاته لأصبت، هذا رجل منا – يريد نفسه – قال:

أتاني في قميص اللاذ يسعى

عدو لي يلقب بالحبيب

فقال المتنبي: أمع هذا غيره؟ قال: نعم!

وقد عبث الشراب بوجنتيه

فصير خده كسنا اللهيب

فقلت له متى استعملت هذا

لقد أقبلت في زي عجيب

فقال الشمس أهدت لي قميصاً

مليح اللون من نسج المغيب

فثوبي والمدام ولون خدي

قريب من قريب من قريب

فتبسم المتنبي وانصرف وكان المتنبي يذكر قول سيبويه في هذا البيت (ا هـ) (أقول) لو قال ما من مداراته لفاتت المقابلة بين الصداقة والعداوة والتعبير بالصداقة هنا صحيح على نحو من التجوز أي من إظهار صداقته أو من صداقته ظاهراً أو نحو ذلك.

وقال ابن جني حدثني المتبني قال حدثني فلان الهاشمي من أهل حران بمصر قال أحدثك بطريقة كتبت إلى امرأتي وهي بحران كتاباً تمثلت به ببيتك:

بم التعلل لا أهل ولا وطن

ولا نديم ولا كأس ولا سكن

فأجابتني عن الكتاب وقالت ما أنت والله كما ذكرته في هذا البيت بل أنت كما قال الشاعر في هذه القصيدة:

سهرت بعد رحيلي وحشة لكم

ثم استمر مريري وارعوى الوسن

وفي اليتيمة حكى ابن جني قال حدثني أبو علي الحسين بن أحمد الصنوبري[1] قال خرجت من حلب أريد سيف الدولة فلما برزت من السور[2] إذ أنا بفارس ملثم قد أهوى نحوي برمح طويل وسدده إلى صدري فكدت أطرح نفسي عن الدابة فرقاً فلما قرب مني ثنى السنان وحسر لثامه فإذا هو المتنبي وأنشدني:

نشرنا رؤوساً بالأحيدب منهم

كما نثرت فوق العروس الدراهم

ثم قال كيف ترى هذا القول أحسن هو فقلت له ويحك لقد قتلتني يا رجل قال ابن جني فحكيت أنا هذه الحكاية بمدينة السلام لأبي الطيب فعرفها وضحك لها وذكر أبا علي من التقريظ والثناء بما يقال في مثله.

ومما يذكر من سرعة جوابه وقوة استحضاره على ما في لسان الميزان وغيره أنه حضر مجلس الوزير ابن خنزابة وفيه أبو علي الآمدي الأديب المشهور فأنشد المتنبي أبياتاً جاء فيها (إنما التهنيات للأكفاء) فقال له أبو علي التهنية مصدر والمصدر لا يجمع فقال المتنبي لآخر بجنبه أمسلم هو فقال سبحان الله هذا أستاذ الجماعة أبو علي الآمدي فقال إذا صلى المسلم وتشهد أليس يقول التحيات فخجل أبو علي وقام.

وحكى السري الرفا الشاعر المشهور قال حضرت مجلس سيف الدولة بعد قتل المتنبي فجرى ذكره فأثنى عليه الأمير وذكر شعره بما أغاظني فقلت أيها الأمير اقترح أي قصيدة أردت للمتنبي فإني أعارضها بما يعلم الأمير أن المتنبي قد خلف نظيره فقال عارض قصيدته التي أولها (لعينك ما يقلى الفؤاد وما لقي) فلما رجعت إلى منزلي تأملت القصيدة فإذا هي ليست من مختاراته ثم مر بي فيها:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق

أراه غباري ثم قال له الحق

فعملت انه أراده الأمير وخار الله لي (ا هـ) وقد مرت هذه القصة عن رجل مجهول.

وقال أبو الحسين الجزار معرضاً بصنعته ومشيراً إلى المتنبي:

تعاظم قدري علي ابن الحسين

فذهني كالعارض الصيب

وكم مرة قد تحكمت فيه

لأن الخروف أبو الطيب

وقال بعض المتعصبين عليه في قوله:

تبل خداي كلما ابتسمت

من مطر برقه ثناياها

إنها كانت تبصق في وجهه. وقال ابن جني: قرأت ديوانه عليه فلما بلغت قوله في كافور القصيدة التي أولها:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

إلى قوله:

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة

ولا أشتكي فيها ولا أتعتب

وبي ما يذود الشعر عني اقله

ولكن قلبي يا ابنة القوم قلب

فقلت: يعز علي أن يكون هذا الشعر في مدح غير سيف

(١) الظاهر انه ولد أبي بكر أحمد بن محمد بن الحسن الصنوبري.

(٢) دار سيف الدولة بحلب كانت خارج السور.

الدولة! فقال: حذرناه وأنذرناه فما نفع، الستُ القائل فيه:

أخا الجواد أعط الناس ما أنت مالك

ولا تعطينّ الناس ما أنا قائل

فهو للذي أعطاني كافوراً بسوء تدبيره وقلة تمييزه.

مشائخ المتنبي :

في روضات الجنات عن شرح ديوان المتنبي للخطيب التبريزي: أن المتنبي نشا وتأدب بالكوفة ولما اشتد ساعده هاجر إلى العلماء فلقي من أصحاب المبرد أبا إسحاق الزجاج وأبا بكر ابن السراج وأبا الحسن الأخفش، ومن أصحاب ثعلب أبا موسى الحامض وأبا عمر الزاهد وأبا نصر، ومن أصحاب أبي سعيد السكري نفطويه وابن درستويه ثم لقي أبا بكر محمد بن دريد فقرأ عليه ولزمه ولقي بعده أكابر أصحابه منهم أبو علي الفارسي وأبو القاسم عمر ابن سيف البغدادي وأبو عمران موسى[1].

محمد كاظم الطريحي

نسبه :

هو الشيخ محمد كاظم بن الشيخ كاتب (ت ١٣٨٨هـ) بن الشيخ راضي (ت ١٣٤٢هـ) بن الشيخ علي (ت ١٣٠١هـ) بن الشيخ محمد الصائغ الحلي (ت بعد ١٢٨٠هـ) بن الشيخ حسين (ت ١٢٣٢هـ) بن الشيخ عبدالله (متولي مشهد الشمس بالحلة ت بعد سنة ١٠٧٦هـ) بن الشيخ حمزة بن الشيخ محمود بن الشيخ أحمد بن الشيخ علي بن الشيخ أحمد بن الشيخ طريح بن الشيخ خفاجي بن الشيخ فياض بن الشيخ خميس بن جمعة بن ميثم بن خميس بن جمعة بن سليمان بن داود بن جابر بن الشيخ يعقوب بن عبدالله بن محمد بن مسلم بن عزيز بن المظفر بن علي بن الحسين بن محمود بن مسعود بن مطرود بن معمر بن موهوب بن وهب بن خزعل بن مناجز بن عبدالله ابن الصحابي الجليل الشهيد حبيب بن مظاهر الأسدي المسلمي العزيزي.

ولادته :

ولد في الساعة السادسة من نهار يوم الأحد ٢٦ رجب سنة ١٣٤١ الموافق لشهر نيسان ١٩٢٣م، بمدينة الكوفة، وله شقيق درج صغيراً اسمه محمد رضا، كانت ولادته يوم الخميس ٢٩ شوال ١٣٤٩هـ.

ووالدته العلوية الجليلة الملا كلثومة بنت العلامة السيد صالح بن السيد حسين بن السيد مهدي القبان- والمعروف بالقبانجي - ابن صالح بن أحمد إبن محمد بن حسين بن محمد بن علي بن حسين بن محمد بن خميس بن يحيى بن هزال بن علي بن محمد بن عبدالله بن أبي القاسم بن أبي البركات بن أبي القاسم بن علي بن عكرمة بن الحسن بن احمد بن علي بن محمد بن عمر بن يحيى بن الحسين النسابة بن أحمد بن يحيى بن الحسين بن يحيى بن الحسين ذي الدمعة بن زيد الإمام زين العابدين علي بن الإمام الحسين السبط الشهيد بن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)[2].

كانت العلوية كلثومة من الأديبات الخطيبات الفضليات، تجيد بالإضافة إلى لغتها العربية، التركية، والفارسية، وهي شقيقة الخطيب العلامة السيد عبد الأمير القبانجي النجفي وكانت أسرتها تقطن مدينة الخضر ثم انتقلت إلى النجف الأشرف، توفيت بالكوفة عن عمر نيف على الخمسين سنة، ولها شقيقة تسكن في قرية الكفل.

جده :

هو العلامة المجتهد الشيخ راضي بن الشيخ علي الطريحي، كان عليه المعول في أحكام الحج وأعماله وشؤون الحج، إذ سلك طريقة والده العلامة الفقيه الشيخ علي بن الشيخ محمد الطريحي.

حج أكثر من عشرين حجة، وله كتب في الفقه وأصوله، وتعليقات في النحو والعربية والعروض والسيرة.

قال الشيخ جعفر محبوبة (١٣١٤- ١٣٧٧هـ):

«هو مبجل محترم له مكانة سامية في نفوس الحجاج وأهل الحرمين ومعول عليه في أحكام الحج وسننه وآدابه حتى المراجع من أهل العلم والفتيا كانوا يثقون بقوله ويعتمدون على فعله أدركته وهو شيخ صبيح الوجه حسن المنظر طاهر الضمير نقي السيرة يتشرف بصحبته الأشراف من الحجاج ويود الكل منهم أن يكون بخدمته حظوة بقربه وانتفاعاً بمجالسته».

توفي سنة ١٣٤١هـ ودفن في الصحن (العلوي) الشريف، وأرخ وفاته الكامل الأديب مهدي الأعرجي بأبيات وهي:

يا جدثاً في جنبات الحمى

غيب بدر السعد في تربه

واريت وجهاً طالما كان الـ

(١) أنظر: أعيان الشيعة، محسن الأمين، م٤، دار التعاريف للمطبوعات، بيروت ١٩٩٨، ص١٢٦ وما بعدها.

(٢) محمد حسين الحسيني الجلالي: جريدة النسب لمعرفة من انتسب لى خير أب ص ٦٤، ط١، (١٤١٨هـ- ١٩٩٨) عمان، الأردن.

ضـــلالُ تهـــدى فـــي الليـــالي بـــه
قـــد كـــان مـــن واريـــت مـــن عـــصبة
قـــــد أخلـــــصت لله فـــــي حبـــــه
لـــذاك مُـــذ دعـــاه شـــوقاً مـــضى
أرخـــــتُ «راضٍ بلقـــــا ربـــــه»[1]

والده :

هـو العلامـة المجتهـد الـشيخ كاتـب الطريحـي (١٣٠٥-١٣٨٨هـ) المولود في النجـف الأشـرف صـباح الجمعـة ٢٦ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٠٥هـ

كتب عنه المؤرخ جعفـر محبوبـة سـنة ١٣٧٣هـ مـا يلـي: «شب على حب الفضيلة ونما على قـرض الـشعر ونظمـه فكـان حينه يُعد من الشعراء المجيدين، زاحـم شـيوخ الأدب وبـاراهم وسـابقهم فـي محافـل الكمـال وصـوغ الـشعر قبـل أن يبلـغ العشرين من عمره فكم له قصائد رنانـة تليـت أمـام الاسـتبداد والدستور على رؤوس العلماء والفحول من الشعراء وقد جمع شعره بنفسه قبل أعوام فعمدت عليه الارضة فأكلته فلم يبق إلا ما كان محفوظاً عند أربابه الذين مدحهم فيه أو رثاهم..»[2].

أعماله ووظائفه :

عمل في بداية شـبابه فـي الزراعـة فـي الكوفـة والـدغارة والحلة واسـتقر محاسـباً لـدى الـسيد علـي الـسيد طالـب أبـو صخرة أحد كبار الملاكين في الديوانية[3]، وبعد فترة من العمل معه استطاع أن يشاركه في ماكنة زراعية اشـتراها مـن وكيـل المكائن الزراعية ببغداد وقد قدم بهـا مـن بغـداد إلـى الـدغارة ونصبها في مزارع السيد علـي بـن الـسيد طالـب فعـادت لهمـا بعوائـد جزيلـة وكانـت سـبباً مباشـراً لازديـاد الـصلة بالـسيد المذكور وكان يرغب باستمرار العمل معه لولا أن والده الـشيخ كاتب فاجأه بفتاة من بني أعمامه للزواج منها ومع عـدم رغبتـه آنئذ لكنه نزل عند رغبة والده وتم زواجه في العام ١٩٤٧م.

سفراته :

كانت أولى سفراته خارج العراق إلى إيران بصحبة والـده ووالدته سنة ١٩٣٣ حيث مكثوا هناك حوالي ستة أشهر قـضى معظمها بمدينة خراسان بجوار الإمام علـي الرضـا(عليه السلام)، قـال: وكان لنا أقارب بمدينة سلطان آبـاد، وعـدد مـنهم فـي طهـران كالسيد أبي الفضل طريحي مدير السكك الحديد، وأسرة علميـة طريحيـة الأصـل تـسمى الآن بـآل المظـاهري ومعظمهـم فـي أصفهان، تسموا بالمظاهري نـسبة إلـى مظـاهر الأسـدي والـد جدنا الصحابي الجليل شهيد الطف حبيب بن مظـاهر الأسـدي، لكون نسبة (المظاهري) أسهل على اللسان الإيراني مـن نـسبة (الطريحي) حيث لا يستسهلون في لـسانهم لفـظ الطـاء والحـاء كما هو متيـسر للنـاطقين بالعربيـة وجـدد زيارتـه لإيـران فـي شـبابه وأقـام فـي بدايـة الخمـسينات عـدة سـنين مـشتغلاً بالصحافة والتنقيب عن المخطوطـات العربيـة والتفـرغ لإكمـال الدراسات العالية لاسيما في علوم الفلسفة التي أحبهـا وشـغف بها كثيراً، وكـان هيامـه البـالغ بفيلـسوفين مـن أكبـر فلاسـفة الإسلام وهما الكندي وابن سـينا ولإعجابـه بهمـا كتـب عنهمـا ونشر كتباً ومقالات، وكـان خـلال ذلـك يتـردد إلـى الـصوفية ويحضر حلقاتهم ولـه أجـازات مـنهم، كمـا كـان يـشارك فـي المؤتمرات الفكرية التي عقدت هناك، ومن ذلك مؤتمر ابن سينا ومؤتمر الخواجه نصر الدين الطوسي.

زار الفقيد أيضاً عدداً من البلدان العربية والإسلامية وحج إلى بيت الله الحرام غير مرة وبعد نكبة العراق التي امتـدت مـن سنة ١٩٦٨ تفرغ للتعليم والتأليف، وعندما سـنحت لـه الفرصـة للخروج من العراق بعد انتفاضة آذار / شعبان ١٩٩١ هاجر إلى الشام ومنها إلى الدانمارك حيث وافته المنية هناك.

ميوله الفكرية :

عاش (الطريحي) طفولته في الكوفة وقضى زهـرة شـبابه في مدينة النجف الأشرف طالباً في حوزتهـا العلميـة ومـستمعاً ومستفيداً ومشاركاً في مجالسها ومنتـدياتها الأدبيـة، والنجـف يومذاك بالرغم من الجو الديني العام الـذي يـضفي الروحانيـة والسكينة على المدينة المقدسة، لكن مناخ الاجتهـاد والاخـتلاف في الرأي والتفكير أضفى على المدينة طابع التسامح والتعـايش والانفتاح على جميـع الأفكـار، ولـم يكـن للتعـصب أو التطـرف ليأخذ مداه أو سبيله بين جميع القوميات والتي كانـت تتعـايش متجانسة كقطع الموزائيك المتراصـة فيمـا بينهـا مـع اخـتلاف ألوانها وتوجهاتهـا فـالنجف (فـي ثلاثينـات وأربعينـات القـرن الماضي) تآلفت بين أهلها والطلبة الوافـدين إليهـا مـن أصـقاع

(١) ماضي النجف وحاضرها ٢/ ٤٣٦- ٤٣٧.

(٢) ماضي النجف وحاضرها ٢/ ٤٥٨.

(٣) آل سيد طالب من سادات الديوانية والسيد طالب جدهم الأعلى نزح مـن إيران إلى النجف الأشرف لطلب العلم، يتصل نسبهم بالإمام موسى الكاظم عليه السلام، وفي العام ١٣٠٥هـ أرسل السيد طالب والد السيد علي المذكور إلى الديوانية كوكيل لمرجع عصره السيد محمد حسن الشيرازي نزيل سـامراء المتوفي سنة ١٣١٢هـ وقد توفي السيد طالب في ٩ محرم سـنة ١٣٣٤هـ وأعقب أربعة أولاد وهم السيد علي شريك الوالـد الـشيخ محمـد كـاظم الطريحي والسيد محمد والسيد حسين والسيد حـسن، وقـد تـوفي الـسيد محمد سنة ١٣٤٠هـ وأعقب ولداً واحداً قُتل في النجف فـانقرض عقبـه، توفي السيد علي في سنة ١٣٧٠هـ وأعقب ولدين هما: السيد نور والـسيد بدر، (راجع تاريخ الديوانية ص ٢٧٦).

الأرض المختلفة وصهرتهم في بودقتها العربية وتأثرت هي الأخرى ببعض التقاليد في المأكل والملبس والعادات لكن السمة الغالبة للنزعة النجفية كانت هي المهيمنة على الجميع وهي خلاصة القيم البدوية الإيجابية في الشدة والكرم والشجاعة والاستبسال والنجدة والفروسية، كما هي زبدة الحضارة المدينية التي ورثتها من الكوفة والحيرة.

مكتبته :

ورث محمد كاظم الطريحي قسماً من مكتبة الأسرة أو ما تبقى منها في حوزة والده الشيخ كاتب.

وقد جاء في كتاب موسوعة العتبات المقدسة «قسم النجف»: "وآل الطريحي من أقدم الأسر العلمية في النجف، وليس من شك أن كانت لبعض علمائهم مكتبات خاصة، غير أن أشهر هذه المكتبات هي مكتبة الشيخ فخر الدين الطريحي... وكان تأسيسها في طلائع القرن الحادي عشر الهجري- السادس عشر الميلادي[1]".

وفي أكثر بيوتات الأسرة مكتبات خاصة تضم النوادر من الكتب والأسفار، ومنها مكتبة العلامة المرحوم الشيخ كاتب الطريحي، والتي تعرضت للحرق خلال أحداث ثورة العشرين.

مؤلفاته :

١- ابن سينا (بحث وتحقيق) قدم له الإمام كاشف الغطاء وطبع ببغداد ١٩٤٨م.

٢- الكندي فيلسوف العرب الأول، (بغداد ١٩٦٢).

٣- الفلسفة الإشرافية عند ابن سينا، (طهران ١٩٥٤).

٤- عقيدة ابن سينا (طهران ١٩٥٤).

٥- نصير الدين الطوسي بين الفلسفة وعلم الكلام (طهران ١٩٥٢).

٦- الإمام علي بطل العروبة والإسلام ١٩٦٠.

٧- الأدب في ثورة العشرين ١٩٥٩.

٨- توثيق الارتباط بالتراث العربي وتحديد معالمه (بغداد ١٩٦٩).

٩- النجف الأشرف حضارة وأصالة دمشق ١٩٩٤.

١٠- في تاريخ النجف (عدة أجزاء).

١١- ديوان ابن كمونة تحقيق (النجف ١٩٤٨).

١٢- ديوان الشيخ علي نقي الأحسائي تحقيق (طهران ١٩٥٥).

١٣- كتب وأدباء وأناس آخرون (مذكرات).

١٤- تفسير غريب فيما يتعلق بأحوال الحديث والرجال للشيخ الطريحي تحقيق (طهران ١٩٥٥).

١٥- جامع المقال فيما يتعلق بأحوال الحديث والرجال للشيخ الطريحي تحقيق (طهران ١٩٥٥).

١٦- ضوابط الأسماء واللواحق للشيخ فخر الدين الطريحي تحقيق (طهران ١٩٥٥).

١٧- مطارح النظر في شرح الباب الحادي عشر للشيخ صفي الدين الطريحي تحقيق (النجف ١٩٥٨).

١٨- دراسة موسعة عن الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء.

١٩- دراسة موسعة عن الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي.

٢٠- النجف مدينة العلم والعمران- بيروت ٢٠٠٢.

٢١- كتاب الحروفية- بيروت دار المرتضى ٢٠٠٢.

وفاته :

انتقل إلى جوار ربه الكريم يوم ١٨ ربيع الأول ١٤٢٣هـ- ٢٩ مايس/ أيار ٢٠٠٢م، بالدنمارك ونقل جثمانه إلى الجمهورية العربية السورية فدفن في مقبرة السيدة زينب(عليها السلام) جنوبي دمشق صباح اليوم الخامس من حزيران سنة ٢٠٠٢م، أقيمت الفواتح على روحه الطاهر في الشام بحسينية الواحدي وحسينية الشهيد الصدر - سوريا، وفي الحيدرية النجفية في استوكهلم- السويد، وفي جامع الإمام علي(عليه السلام) وكذلك في الحسينية النجفية (خدام الحسين(عليه السلام) وحسينية الشهيد الصدر في كوبنهاكن - الدنمارك، وفي مدينة بون٠ ألمانيا، وقاعة المجمع السكني لسماحة آية الله العظمى السيد علي السيستاني في قم - إيران، وفي مدينة غريان- الجماهيرية الليبية، والحفل التأبيني الكبير في قاعة محفل علي(عليه السلام) بمدينة لاهاي.

(١) الخليلي: موسوعة العتبات المقدسة، قسم النجف، ج٢،، ص ٢٦٩، ماضي النجف وحاضرها ١/ ١٥٣، مقال: (أشهر الآثار المخطوطة في مكتبة آل الطريحي في النجف الأشرف) بقلم محمد أمين الدين- جريدة العراق- العدد ٥٣٨٢ الصادر في ١٩ تموز ١٩٣٨.